الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 126 - july 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وستة وعشرون - السنة الحادية عشرة - يوليو ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

جون سبوزيتو - داليا مجاهد

لماذا تغيب الديمقراطية فى البلدان الإسلامية

عبد الرشيد صادق المحمودى - ماهر شفيق فريد - محمد المهدى

دراما العشق والانتحار .. حياة الأدباء السرية

أيمن الصياد - أمة العليم السوسوة

« حَكَمْتَ .. فَعَدَلْتَ .... فَأَمِنْتَ »



السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٦
يوليـة ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

• أيمن الصياد ٤
«حَكَمْتَ.. فَعَدَلْتَ..... فأمِنْتَ»

• أحمد محمد أبو زيد ٨
بنيامين نتنياهو.. «مكان تحت الشمس»

• حسين أغا - روبرت مالاى ١٦
الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة «هل يفعلها أوباما حقا؟!»

• جون سبوزيتو ٢٢
«في البلدان الإسلامية لماذا تغيب الديموقراطية؟»

• هاريس كولنجوود ٣٠
«الرئيس والشركة»

• ليلى إبراهيم أبو المجد ٣٤
على الطريقة اليهودية «تجديد الخطاب الديني»

• عبد الرشيد الصادق محمودي ٤٠
«البحث عن وجيه غالي..!»

• ماهر شفيق فريد ٤٨
«كتبها.. وانتحر!»

• محمد المهدي ٥٠
«من تاريخ الانتحار» هنري دي مونترلان «الحياة خارج الزمن»

• باربارا جولد سميث ٥٤
«هَوَس العبقرية!... الحياة السرية لماري كوري

• ويليام ماكنيل ٦٢
«الأنفلونزا الكبرى»: قصة الجائحة

• إصدارات جديدة ٦٦

كتّاب العدد:

- أحمد محمد أبوزيد.. باحث في العلاقات الدولية - الشارقة.
- أمة العليم السوسوة.. الأمين العام المساعد للأمم المتحدة والمدير الإقليمي للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- باربارا جولد سميث.. كاتبة ومؤرخة أمريكية.
- جوزيف مسعد.. أستاذ السياسة والفكر العربي الحديث بجامعة كولومبيا.
- جون سبوزيتو.. أستاذ الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون.
- حسين آغا.. كبير المشاركين بكلية سانت أنطوني بجامعة أوكسفورد.
- داليا مجاهد.. المديرة التنفيذية لمركز جالوب للدراسات الإسلامية.
- روبرت مالي.. مدير برنامج الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المجموعة الدولية للأزمات.
- عبدالرشيد الصادق محمودي.. أستاذ الأدب العربي في جامعات فرنسا.
- ليلى أبوالمجد.. أستاذ الدراسات العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- ماهر شفيق فريد.. أستاذ الأدب بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة.
- محمد المهدي.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- هاريس كولنجوود.. صحفي أمريكي متخصص في الاقتصاد.
- هندريك هيرتزبيرج.. صحفي أمريكي.
- وليم ماكنيل.. أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - سعد الدين شحاته
على الغلاف لوحة الفنان حلمي التوني
«الليل والنهار» تفصيل - زيت على قماش ٢٠٠٨

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥١٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«حَكَمْتَ.. فَعَدَلْتَ..

تقرير التنمية الإنسانية العربى ٢٠٠٩
«تحديات أمن الإنسان فى البلدان العربية»
برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ٢٠٠٩

■■ فى ظهيرة اليوم السابع من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٥ كان «عمرو نبيل» مصور وكالة أسوشيتدبرس AP يؤدى مهمته - لا فى ميدان قتال كما فعل مرارا وإنما فى تغطية الانتخابات البرلمانية المصرية، التى اعتقد المتفائلون يومها أنها ستصبح نموذجا للديموقراطية «يحتذى فى منطقتنا العربية كلها». وكانت تلك العبارة - لو تذكرون - فى صلب التصريح الرسمى الذى أعلن عن إطلاق العملية الانتخابية «وفق قانون جديد يوفر فرصة غير مسبوقة للممارسة الديموقراطية..» يومها فقد «المصور» عينه - أو كاد - بعد أن اعتدى عليه من أراد منعه من تصوير تجاوزات أمنية فاقت يومها كل حد - وكانت تهدف - ببساطة - إلى منع الناخبين من الوصول إلى صناديق الاقتراع، لضمان أن يظل «للدولة» أو بالأحرى لجماعتها الحاكمة الأغلبية المطلقة.

يومها أيضا دفع أصحاب القرار بالبلطجية ذاتهم ليقتحموا جامعة عين شمس بالهراوات والسيوف والجنازير لتأديب طلبة جامعيين فكروا فى ممارسة حق ديمقراطى حجبته عنهم قوة السلطة.

يومها، ولحسابات انتخابية ضيقة لم يدرك أصحابُ القرار/ السلطة خطورة اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية، والذى كان من شأنه أن يشيع فى المجتمع مفهوم: أن القوة/ العنف هى السبيل «الوحيد» لكى تصل إلى هدفك؛ حقًا كان أو باطلاً (وقد كان). يومها أيضا أُهدرت أحكام القضاء، وأهدرت، فى غير موضع «كرامة القضاة». وأيضا لم يدرك صاحب القرار/السلطة خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادى شعورٌ باليأس من اللجوء إلى التقاضى «سبيلاً سلميا لحل المنازعات». كما أنه لم يكترث - ربما - بحقيقة أنه عندما تُغل يد القضاء فى رد المظالم لأصحابها يصبحُ الأمنِ الاجتماعى مهدداً. كما يصبح «مفهوم الدولة» ذاته فى خطر.

المشهد.. وإن اختلفت التواريخ والتفاصيل والألوان، تكرر فى غير قطر عربى. وأصبحت العبارة صحيحة من جهة أن ماجرى كان على الدوام «نموذجا يحتذى».

فقد سمير قصير حياته، وفقد آخرون حريتهم.. وسقط «الميكروفون» من يد «أطوار بهجت» مراسلة «العربية» فى العراق، ضحية للتعصب والطائفية. وراح طارق أيوب مراسل «الجزيرة» فى بغداد شهيدا بصاروخ أمريكى زعموا أنه ضل الطريق. قائمة الضحايا، كما تعلمون طويلة، وإن لم تكن بطولها قائمة المتهمين: الاحتلال، والإرهاب، والتعصب، والطائفية، ومن بعد كل ذلك - أو ربما قبله - «الدولة» حين تقصر فى واجباتها أو تمعن فى طغيانها، فتصبح الأكثر تهديدا لأمن المواطن.

تذكرت كل ذلك، حينما اقتربت من المناقشات المتعلقة بتقرير التنمية الإنسانية العربى الجديد ٢٠٠٩، والمقرر أن يصدر بعد أيام، والذى يبحث فى قضايا «أمن الإنسان فى البلدان العربية».

وهذا التقرير هو المجلد الخامس من سلسلة التقارير التى يرعاها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى. وهو كما التقارير التى سبقته، ليس تقريرا تقليديا - كما توضح مقدمته - يجرى إصداره والمصادقة عليه عبر المسالك البيروقراطية المعهودة فى الأمم المتحدة، وإنما هو دراسة بحثية يضعها من وجهة نظر مستقلة، عدد من المفكرين والباحثين وراسمى السياسات فى البلاد العربية. يطرحون من خلاله تحليلا شاملا لبيناتهم المعاصرة.

يدعو التقرير إلى مناقشة عدد من القضايا التى تمس أمن الإنسان فى عالمنا العربى، مثل المخاطر الاقتصادية والفقر والبطالة. والضغوط على الموارد الديموجرافية والبيئية، ومشكلات الأمن الغذائى، والتعصب الاثنى والطائفى، وربما قبل كل ذلك وفى صدارته «الاحتلال والتدخل العسكرى الأجنبيان». ولكنه - وذلك مما يحسب قطعا لكاتبى التقرير - لايغفل عن حقيقة أن «فقدان أمن الإنسان لا تخلو منه حتى البلدان التى تتمتع باستقرار نسبى، حيث تقوم الدولة المتسلطة، مستندةً إلى الدساتير المنقوصة والقوانين المجحفة، بحرمان المواطنين حقوقهم فى أغلب الأحيان». فيطرح السؤال - الذى أراه الأهم - حول «أداء الدولة فى ضمان أمن الإنسان أو تقويضه».

يُذكرنا كاتبو التقرير بذلك التقرير الأول الذى صدر عام ١٩٩٤. مشيرين إلى أن جوانب القصور التى حدد معالمها التقرير الأول، ربما تكون بعد مرور سبع سنوات، قد ازدادت عمقا. الأمر الذى يدفع بالسؤال المحرج لأن يطرق أبوابنا بقوة: لماذا كانت العقبات التى تعترض سبيل التنمية فى المنطقة عصيةً على الحلّ إلى هذه الدرجة؟

ربما لا يقول التقرير بوضوح إن «الإنسان الحر فى مجتمع عادل هو شرط أصيل للتنمية»، وإن كنت لا أراه يبتعد عن ذلك المعنى كثيرا عندما يشير إلى أن جواب السؤال يكمن فى هشاشة البنى السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والبيئية فى المنطقة، وفى افتقارها إلى سياسات تنموية تتمحور حول الناس، وفى ضعفها حيالَ التدخل الخارجى، ثم فى تضافر هذه العناصر لتقويض أمن الإنسان، ولأن إحساس الإنسان بأمنه هو من مستلزمات التنمية الإنسانية، فقد كان أن أدى غياب أمن الإنسان على نطاق واسع فى البلدان العربية إلى إعاقة مسيرة التقدم فيها.

وبعد أن يحاول التقرير أن يضع مفهوما نظريا «متكاملا» للمقصود بأمن الإنسان، ينتقل فى فصوله السبعة لمناقشة أبعاد المخاطر المختلفة التى رأى كاتبوه أنها تهدد ذلك الأمن فى منطقتنا. فحين يتحدث عن الضغوط الديموجرافية مثلا، يذكرنا بما يغيب عن معظم سجالاتنا ونقاشاتنا التى تنحصر عادة فيما هو سياسى - بالمعنى الضيق لمفهوم السياسة - والتى تستدرج عادة إلى معارك رخيصة، تحكمها فى الأغلب مواقف مسبقة، ومصالح ضيقة، وعصبية قبلية جاهلية، فننسى مثلا مايذكرنا به التقرير من تقديرات تشير إلى أن الدول العربية ستضم نحو ٣٩٥ مليون نسمة بحلول العام ٢٠١٥ (مقارنةً بـ ٣١٧ مليوناً فى العام ٢٠٠٧، و١٥٠ مليوناً فى العام ١٩٨٠). وفى منطقة تعانى نقصاً متزايداً فى المياه والأراضى الصالحة للزراعة، فإن معدلات النمو السكانى، على الرغم من تناقصها، تظل لها أهميتها.

كما تشير التقديرات أيضا إلى مايمكن أن تمثله ندرة المياه إذ يقدر الحجم الإجمالى السنوى لموارد المياه السطحية المتوافرة فى البلدان العربية بنحو ٢٧٧ بليون متر مكعب سنوياً، لا ينبع منها فى العالم العربى سوى ٤٣ فى المائة فضلا عن أن مخزون مكامن المياه الجوفية المتجددة والذى يمثل فى أغلب الأحيان السبيل الوحيد للحصول على المياه العذبة يُستهلك بأسرع مما تستعيد مخزونها.

وبعد أن ينبه التقرير إلى ماتواجهه المنطقة من تحديات متعاظمة تهدد أمن السكان نتيجة للضغوط الديموجرافية والبيئية. يخلص إلى أن الصراعات المترتبة على المنافسة على الموارد الطبيعية المتناقصة قد تفضى إلى رفع نسبة التوتر فى العلاقات بين الجماعات والسكان والدول، العربية وغير العربية. وستنجم هذه التحديات عن الضغوط السكانية والديمغرافية، والإفراط فى استغلال الأرض، ونقص المياه والتصحر والتلوث والتغيرات المناخية.

من ناحية أخرى، يتوقف كاتبو التقرير عند مايبدو من ثراء لدى الدول النفطية. ويخشون أن تعطى الثروة النفطية الخيالية لدى البلدان العربية صورة مضلِّلة عن الأوضاع الاقتصادية لهذه البلدان، لأنها قد تخفى مواطن الضعف البنيوى فى العديد من الاقتصادات العربية وما ينجم عنها من زعزعة فى الأمن الاقتصادى للدول والمواطنين على حد سواء.

قد لا يتسع المجال هنا، بحكم المساحة، - وبحكم التخصص - لمناقشة مختلف القضايا التى يعالجها التقرير؛ مثل البطالة، والعنف ضد النساء، والأشكال الحديثة للاتجار بالبشر، ومحنة اللاجئين والمهجرين، فضلا عن الضغوط الديموجرافية، وأوضاع الخدمات الصحية، وحروب المياه التى باتت على الأبواب، وغير ذلك من مسائل أظنها تحتاج إلى مناقشات موسعة من الخبراء والمتخصصين، ولكننى سأتوقف عند الصفحات التى أفردها كاتبو التقرير لمناقشة علاقة «الدولة .. والهوية .. والتنوع .. والمواطنة» بأمن الإنسان.

تتمحور العلاقة الملتبسة تلك فى السؤال الابتدائى الذى يطرحه التقرير: «هل الدولة العربية جزء من الحل، أم جزء من المشكلة؟».

وللإجابة عن هذا السؤال، يناقش التقرير أداء البلدان العربية وفقاً لمقاييس ملازمة للدول التى تمتلك مقومات الشرعية. ويحلل ما إذا كانت تلك الدول تحوز القبول من جانب مواطنيها، وتساند حقهم فى الحياة والحرية وتضمن لهم هذا الحق، وتحميهم من العدوان. أم لا؟ ويعتمد التحليل على أربعة معايير:

١. مدى قبول المواطنين لدولتهم.
٢. التزام الدولة بالاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.
٣- كيفية إدارة الدولة حقَّها

.....فَأَمِنْتَ»

أيمن الصياد



© Reuters

الحصرى فى استخدام القوة والإكراه.

٤ـ مدى قدرة الضوابط والموازين المؤسسية على الحيلولة دون إساءة استخدام القوة.

ويخلص التقرير (إلى مانعرفه جميعا دون أن نعترف به ربما) من أن حالات من التقصير فى تطبيق هذه المعايير كثيرا ما تجتمع لتجعل الدولة خطرا يهدد أمن الإنسان، بدلا من أن تكون سندا له.

أكثر مااستوقفنى حين تسنى لى الاطلاع على أوراق من التقرير، هو إدراك كاتبيه لحقيقة أننا مازلنا بعد أكثر من نصف قرن من الزمان ندفع ثمن الإرث الاستعمارى القديم، فدولنا «كيانات مصطنعة» هكذا يقول التقرير بوضوح. إذ إنها غالباً ما تضم خليطاً من الجماعات الإثنية والدينية واللغوية التى دُمجت، كأقليات، فى مرحلة ما بعد الاستعمار. وفى حين استطاعت قلةٌ من البلدان العربية أن تحقق انتقالا سهلا وسليماً نحو الاندماج، فإن تياراً قوياً تنامى فى دول أخرى بهدف حجب التنوع فى أوساط السكان، وصهر التغاير الثقافى واللغوى والدينى تحت إمرة سلطة واحدة. وفشلت أغلبية البلدان العربية فى تطوير الحكم الديمقراطى الرشيد ومؤسسات التمثيل القادرة على ضمان الاندماج وتحقيق العدالة فى توزيع الثروة بين مختلف الجماعات، فضلا عن احترام التنوع الثقافى.

كان من نتائج ذلك أن الجماعات ذات الهُويات المختلفة فى عدد من الدول العربية سعت إلى تحرير نفسها من نطاق الدولة/ الأمة التى تستظلها. هذا الرفض لشرعية الدولة التى ورثتها وأدامتها الدولة العربية المعاصرة رافقته صراعات كان من شأنها بالضرورة أن تهدد أمن الإنسان.

يرصد التقرير كيف أن الولاءات الإثنية والدينية والقَبَلية كانت هى المحاور التى التفت وحشدت حولها الجماعات المختلفة للمناداة بالاندماج أو الانفصال. وأفضى هذا الحشد والتجييش إلى آثار مدمرة ومزعزعة للاستقرار انتقصت من أمن الإنسان وسلامة الدولة على حد سواء.

ورغم أن التقرير يقول بأن هذه الصراعات كانت هى المسؤولة عن الجانب الأعظم من الإصابات البشرية فى البلدان العربية، إلا أنه يبقى من الأهم مايذكره من أن «الهوية»، بحد ذاتها، لم تكن بالضرورة سبب النزاع، أو حتى المصدر الرئيسى للتوتر بين مختلف الجماعات فى المنطقة. بل إنه من الضرورى ملاحظة أن الصدامات التى تنطلق، فى ظاهرها، من اعتبارات تتعلق بالهوية، كثيراً ما تنشأ من تعثر سبل الوصول إلى السلطة السياسية أو الثروة، ومن غياب قنوات التمثيل والمشاركة السياسية، ومن قمع التنوع الثقافى واللغوى.

ويبقى بغض النظر عن التفاصيل، ما يشير إليه التقرير من أن مفهوم «المواطنَة»، الذى هو المفهوم المعيارى الذى كان له الإسهام الأكبر فى إدارة التنوع الإثنى والثقافى واللغوى فى التاريخ السياسى الغربى، لم يتبلور بعد بصورة كاملة فى البلدان العربية.

كما تبقى النقطة المحورية هنا أن الدول العربية لم تصل بعد إلى الحكم الديمقراطى الرشيد، الكفيل وحده، بحكم طبيعته بمعالجة هذه المسألة، ناهيك عن اعتماد الديمقراطية الحقيقية المتمثلة فى احترام حقوق المواطنين «أقلية كانت أو حتى أغلبية».

يناقش التقرير أيضا كيف أثرت إجراءات قيل إنها للحفاظ على أمن الوطن على «أمن المواطن» ذاته، فيشير إلى ماشهدته بلدان عربية عديدة من فترات طويلة جداً من الأحكام العرفية، التى تحولت فيها الإجراءات التى يفترض أن تكون مؤقتة إلى أسلوب دائم لتوجيه الحياة السياسية

ويرصد كاتبو التقرير، كيف أنه فى أعقاب أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، سَنَّت معظم البلدان العربية قوانين لمكافحة الإرهاب، تقوم على تعريف غير محدد لمفهوم «الإرهاب»، ومنحت هذه الإجراءات

لمـــاذا كانت العقبـات التى تعترض سبيل التنمية فى المنطقة عصيّةً على الحل إلى هــذه الدرجــة؟

الأجهزة الأمنية فى الدولة صلاحيات واسعة فى بعض المجالات ولكنها قد تشكل تهديداً للحريات الأساسية فى مواضع أخرى. كما تهدد هذه القوانين حرية التعبير، وتزيد من الصلاحيات الممنوحة لتفتيش الممتلكات والتنصت والاعتقال. كما تسمح بالإحالة إلى المحاكم العسكرية. وعلى العموم، فقد أخفقت هذه القوانين فى تحقيق التوازن المطلوب بين أمن المجتمع من جهة والحريات الفردية من جهة أخرى. ويخلص كاتبو التقرير إلى أن التهديد الأكثر جديةً لأمن المواطن فى بعض البلدان العربية يتمثل فى أن السياق الذى تجرى فيه مكافحة الإرهاب يعطى الدولة الذرائع لانتهاك الحقوق والحريات الفردية دون الاحتكام إلى القانون.

ويتناول التقرير أيضا كيفية تعامل الدول العربية مع الحركات الإسلامية السياسية. فكثيراً ما تتذرع الدول بالمخاطر التى تمثلها هذه الحركات لتبرير الانقضاض على الحقوق السياسية والمدنية. فى حين أن السبيل الأمثل للحفاظ على الاستقرار وأمن المواطنين إنما يكمن فى إدخال الحركات المسالمة فى إطار النشاط السياسى المشروع.

يتحدث التقرير كذلك عن القوانين التى تتناول حرية الرأى والتعبير بطريقة غامضة، مع الجنوح إلى التقييد لا إلى التسامح (يشير التقرير فى هذا السياق إلى ميثاق القنوات الفضائية العربية) كما يلاحظ كيف أن «ما تضمنه الدساتير العربية للمواطنين تتولى تشذيبه فى كثير من الحالات القوانين العادية، وما تبيحه تلك القوانين تحوله الممارسة إلى مخالفة فى أغلب الأحيان».

ويرصد التقرير مفارقة أن المخاطر التى تتهدد استقلال القضاء لا تأتى من الدساتير التى تُعلى، على العموم، من شأن هذا المبدأ، بل من السلطة التنفيذية. ويقول إن كل السلطات القضائية العربية تعانى من انتهاك استقلالها بصورة أو بأخرى جراء هيمنة السلطة التنفيذية على السلطتين التشريعية والقضائية. يضاف إلى ذلك أن محاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية قد تقوض استقلال القضاء، لأنها تمثل إنكاراً لمفهوم العدل الطبيعى وانتقاصاً من ضمانات المحاكمة العادلة. ومن نتائج ذلك نشوء فجوة ملموسة - فى حماية الأمن الشخصى للمواطنين - بين النصوص الدستورية من جهة والممارسات القانونية الفعلية من جهة أخرى. وقد جاهد العديد من القضاة فى بعض



البلدان العربية لتأكيد معنى الاستقلال القضائى، غير أنهم يبذلون جهودهم تلك فى بيئة حافلة بالتحديات. (هل تذكرون المحاولات المستمرة لنادى القضاة المصرى والتى باءت فى النهاية بالفشل).

أهم مايتعرض له التقرير - فى رأيى - هو حديثه عن الضوابط المؤسسية للحيلولة دون إساءة استخدام السلطة فيقرر: إن قوى الأمن والقوات المسلحة التى لا تخضع للرقابة العامة تمثل تهديداً جديًا لأمن الإنسان، وذلك ما تشهد به تجربة بلدان عربية عديدة. فمعظم رؤساء هذه الدول يستأثرون بسلطات مطلقة لا حسيب عليها ولا رقيب.

وتعمل دوائر الأمن العربية فى أجواء تتمتع فيها بالحصانة من المساءلة لأنها من الأدوات التى تعمل بشكل مباشر لصالح رئيس الدولة، وتعتبر مسؤولة أمامه وحده. وتتعزز سلطاتها الهائلة بتدخل السلطة التنفيذية فى استقلال القضاء بطرق مختلفة (راجع ماكتبه المستشار طارق البشرى فى هذه المجلة: مارس ٢٠٠٣ ويونيو ٢٠٠٥) وبالسيطرة التى يمارسها الحزب الحاكم فى أغلب الدول على السلطة التشريعية؛ وبتكميم وسائل الإعلام. وفى ظل هذه الظروف تنتفى الرقابة التشريعية والشعبية الحقيقية.

تأتى فى هذا السياق مسألة تركيز السلطة؛ وعدم وجود آليات «حقيقية» لتداولها. ويذكرنا التقرير هنا بالتعديلات التى أدخلت على دساتير عربية عدة بهدف التمديد لرئيس الدولة. ولعل المفارقة أنها المسألة «الوحيدة» التى يتفق فيها الحكام العرب رغم ما يبدو من اختلافهم حول كل قضية أخرى.

إن قياس أداء البلدان العربية وفق المعايير المتعارف عليها دوليا، يؤكد أن العلاقة بين الدولة وأمن الإنسان ملتبسة. فضيما يتوقع من الدولة أن تضمن حقوق الإنسان، نراها فى عدة دول عربية تمثل مصدراً لتهديده. ومن ثم يبقى سؤال التقرير: «هل الدولة العربية جزء من الحل، أم جزء من المشكلة؟» مطروحا.. بل ومطلوبا.

ويبقى من أهم ما فى التقرير (لاحظوا أنه «دولى»)، ماذكره فى الفصل الخاص بالاحتلال والتدخل العسكرى. وكيف أنهما كانا على مدى تاريخ المنطقة، عاملين أساسيين من أهم العوامل التى تهدد أمن الإنسان.

ويعرض التقرير تقييماً تفصيلياً للأضرار الناجمة عن الانتهاكات التى ترتكب ضد حقوق الإنسان، مع التركيز على آثار التدخل الأميركى فى العراق، واستمرار السيطرة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فى ذلك الحملة الأخيرة على غزة، والأوضاع الصعبة التى يعانيها الشعب المحاصر فى الصومال.

ويلاحظ التقرير أن دوام الاحتلال والتدخل طوال هذه الفترة يدل على انكشاف المنطقة لسياسات الأطراف الخارجية. وتعتمد احتمالات تسوية النزاعات الرئيسية فى المنطقة، إلى حد كبير، على إرادة الأطراف غير العربية، مما يعكس مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الأمم المتحدة بوصفها الضامن الحيادى الوحيد لأمن الإنسان والأمن الوطنى فى المناطق المحتلة، وهو الدور الذى همشته دول كبرى وحرمت الأمم المتحدة من أدائه.

أيا ماكان الأمر، ورغم أن كاتبى التقرير آثروا - إدراكا لحساسية الموضوع الذى يتعرضون له - ألا يخلعوا «قفاز الدبلوماسية الحريرى» فاختاروا ألفاظهم - كما بدا لى - بعناية ودقة وحذر»، إلا أن ما وجد طريقه فى نهاية المطاف لصفحات التقرير من حقائق لم يكن ممكنا إغفالها، يظل مهما ومطلوبا، كما يظل السؤال الذى يطرحه علينا ونحن نكاد نختتم عقدا كاملا من القرن الحادى والعشرين، سؤالا محوريا: لماذا كانت العقبات التى تعترض سبيل التنمية فى المنطقة عصيّةً على الحل إلى هذه الدرجة؟

ربما غضب الجميع - أو هكذا أظن - من فقرة هنا أو من رقم هناك، فالحقائق دائما موجعة. ولكن لابد لنا جميعا أن نحسب للقائمين على هذا التقرير أنهم وضعوا قضايانا على الطاولة.. ثم تركوا لنا مهمة مناقشتها.

ونحن فى «وجهات نظر» حين نفتح الباب للمناقشة، أتذكر للأسف أن التقرير الأول الصادر قبل ست سنوات كاملة حذر من «التزاوج بين الفساد والسلطة»، ومن ثم أتذكر مقولة أحمد كمال أبو المجد: «أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة»... ولعل منكم من يتفق معى فى أن المفتاح كله ربما يكمن فى هذه العبارة.

كما لعل مفتاح «الأمن» الذي نتحدث عنه يكمن هو الآخر في تلك العبارة العبقرية البسيطة التى قالها أعرابى - قبل أربعة عشر قرنًا كاملة - لخليفة المؤمنين: «حكمت، فعـدلت، فأمنت.. فنمت يا عمر» ■

أمن الإنسان فى البلدان العربية:

تقرير جديد وآلية مغايرة

أمة العليم السوسوة*

■ ■ بعد أيام قليلة يعلن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى الإصدار الخامس فى سلسلة تقارير التنمية الإنسانية العربية تحت عنوان «تحديات أمن الإنسان فى البلدان العربية» والذى يُعمِل التوصيف الأشمل لمفهوم أمن الإنسان الذى قدمه تقرير التنمية البشرية الدولى لعام ١٩٩٤ كعدسة كاشفة يتفحص من خلالها عن كثب أوضاع التنمية الإنسانية فى المنطقة. فى هذه المقاربة يتخطى التحليل النطاق التقليدى للأمن الذى يركز بالأساس على المفهوم الضيق لأمن الدولة إلى مفهوم موسع يتخذ الإنسان محوره الأساسى. ويشدد التقرير على علاقة الارتباط الوثيق بين أمن الدولة وأمن الإنسان إلا أنه يؤكد على أن نمط العلاقة السائد تقليديا والذى يتم فيه تغليب الأول على الأخير، يؤدى إلى عدم تحقق أى منهما. فى حين أن ضمان أمن الإنسان بأبعاده المتعددة - والذى هو بالأساس مسؤولية الدولة - يؤدى إلى تعاظم فرص التنمية وتعزيز أمن الدولة ذاتها.

التقرير يتناول بالرصد والتحليل المعمق أبعادا متعددة من التهديدات التى تواجه أمن الإنسان فى البلدان العربية وتشمل الأضرار التى تصيب قاعدة الموارد الطبيعية (البعد البيئى)، وتلك المرتبطة بدور الدولة فى تحقيق أمن الإنسان (البعد السياسى)، وتلك التى تؤثر بشكل غير متناسب فى الفئات المستضعفة (البعدان الشخصى والاجتماعى). كما تشمل المخاطر الاقتصادية والفقر والبطالة (البعد الاقتصادى)، والافتقار إلى الغذاء (البعد الغذائى)، وقصور الرعاية الصحية الأساسية (البعد الصحى)، فضلا عن المصدر الرئيسى الذى يتهدد أمن الإنسان بشكل شامل ومنهجى والمتمثل فى الاحتلال الأجنبى للأراضى العربية.



عدسة الأمن الإنسانى كما يُعملها التقرير تظهر لنا مدى هشاشة أوضاع هذه الأبعاد الرئيسية لمفهوم الأمن فى بلداننا العربية على اختلافها. مما يؤدى إلى معايشة مواطنيها تهديدات جوهرية مشتركة تحد بشكل حقيقى ومؤثر من قدراتهم ومن الخيارات المتاحة لهم ليعيشوا حياة كريمة وليتمتعوا بحرياتهم وحقوقهم الأساسية، بل وفى بعض الأحيان ليضمنوا الحد الأدنى المتمثل فى البقاء. وبهذا فهى تحد من قدرة البلدان العربية على إحراز تقدم حقيقى أو معالجة مواطن القصور التى تعوق مسيرة التنمية الإنسانية بها فى مجالات تأتى على رأسها المعرفة والحريات وتمكين المرأة، وهى أولويات تنموية طرحتها الأجزاء الأربعة السابقة التى كونت السلسلة الأولى من تقارير التنمية الإنسانية العربية.

وتقرير هذا العام يستكمل مسيرة السلسلة الأولى فى النقد الذاتى المتبصر والرصين لأحوال التنمية فى البلدان العربية والذى يمثل خلاصة جهد مجموعة متميزة من الخبراء والباحثين ذوى الجذور العميقة فى المنطقة والخبرة الواسعة بواقعها التنموى وديناميات التغيير بها، وهو نقد يمارسونه فى استقلالية فكرية تامة يحرص عليها ويدعمها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى. شهدت عملية إعداد تقرير هذا العام مجموعة من التغيرات شملت توسيع نطاق المشاركة فى لجنته الاستشارية لتشمل تمثيلاً واسعاً لمختلف التيارات الفكرية فى المنطقة وزيادة التمثيل النسائى ولكن لعل أهم التغيرات تمثل فى إتاحة الفرصة لما يربو على المائة من الشابات والشبان من مختلف أرجاء المنطقة للمشاركة بآرائهم فى صياغة التقرير بشكل فاعل من خلال ثلاث جلسات تشاورية.

وقد آثرنا هذه المرة ألا تمثل مناسبة إعلان التقرير محطته النهائية بل أن تؤذن ببداية حوار واسع حول مقاربته بين مؤيد ومعارض لتحليلاته وأطروحاته، وهو حوار سيسعى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى هذا العام إلى ترسيخ جديته وتنوعه وتعدديته الفكرية مع توسيع نطاقه الجغرافى والزمنى بشكل منظم من خلال اعتماد آلية جديدة لحوار ممتد على مدى ما يقرب من عام. وذلك بإطلاق التقرير من خلال سلسلة من الحوارات العامة الموسعة فى مدن عربية متعددة.

تبدأ السلسلة بحوار بيروت والذى يتلو مباشرة إعلان التقرير، قبل أن تنتشر الحوارات شرقاً وغرباً فى ضيافة هيئات عربية متميزة فى الإسكندرية، ودبى، والرباط، والدوحة، وتونس، وعمان، لتتيح الفرصة لعدد وافر من صانعى القرار، وقادة الرأى وهيئات المجتمع المدنى، لتفحص القضايا التى يطرحها التقرير وتدارس ما قد تثيره من أفكار وخيارات للتعامل مع مشكلات وقضايا أمن الإنسان فى البلدان العربية.

هذا وقد عهد البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة إلى مجلة «وجهات نظر» الفكرية الرصينة التى تصدر من القاهرة لتتولى تنظيم وإدارة سلسلة الحوارات لما تتسم به من استقلالية، ولما لها من وزن ومصداقية فى الأوساط الفكرية العربية، على أن يتم نشر خلاصة تلك الحوارات بالطريقة الملائمة.

يستمر الحوار كذلك من خلال سلسلة من موائد البحث المستديرة يشارك فيها الخبراء ذوو الصلة، وتستضيفها مجموعة متميزة من مراكز الأبحاث والفكر فى البلدان العربية، إلى جانب موقع إليكترونى تفاعلى يجرى العمل على تطويره ليوسع قاعدة التعاطى مع التقرير إلى جمهور الفضاء الإلكترونى العريض وبالأخص من الشباب والذين سنعمل هذه المرة على أن نصدر لهم نسخة خاصة «شبابية» من التقرير.

ويحدونا الأمل أن تفرز هذه الإستراتيجية المتكاملة حوارا جادا وعملى التوجه يغطى كافة أرجاء البلدان العربية ويصل إلى مواطنيها على تعدد انتماءاتهم بما يتناسب مع الجهد الكبير والمتفانى الذى بذله القائمون على إعداد هذا التقرير، وبما يرقى إلى أهمية موضوعه الرئيس.

إن أمن الإنسان فى البلدان العربية لهو موضوع خطير وآنى يستحق أن يشغل البال العربى العام ويتبوأ مكان الصدارة فى حواراته، لا أن يبقى حبيساً بين دفتى كتاب يرجع إليه المتخصصون بين حين وآخر. ■

● تشغل السيدة «أمة العليم السوسوة» منصب الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، والمدير المساعد والمدير الإقليمى للدول العربيّة ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى.

بنيامين نتنياهو...

■■ يبدو أن مستقبل الحكومة الإسرائيلية الجديدة «الثالثة عشرة» والأكبر حجمًا فى تاريخ إسرائيل بقيادة بنيامين نتنياهو سيكون واعدًا، فالرهان على عدم قدرته على حيازة الأغلبية والتوافق مع باقى الأحزاب من أجل تدعيم موقف حزبه الذى جاء ثانيًا فى الانتخابات العامة - والذى كلف بتشكيل الحكومة رغم ذلك - قد ثبت وهنه. وعليه، فعلى الفلسطينيين وباقى وحدات النظام السياسى الإقليمى العربى الاستعداد الكامل - طواعية أو كراهية - لمدة أربع سنوات قادمة مع رئيس وزراء إسرائيلى يمثل انعكاسًا لأقصى جناح يمينى صهيونى متطرف Ultra-Wright wing فى تاريخ الدولة الإسرائيلية؛ ومع حكومة أقل ما يمكن أن توصف به أنها حكومة «عنصرية»، إن لم تكن «إرهابية».

Durable Peace: Israel and Its A Place Among the Nations
Benjamin Netanyahu
Grand Central Publishing, 2000

بنيامين نتنياهو : «مكان تحت الشمس» (عمان: دار الجليل، الطبعة الخامسة ١٩٩٩).

فى أدبيات العلوم السياسية والعلاقات الدولية هناك العشرات - إن لم يكن المئات - من النظريات والمناهج والأدوات التى تستخدم لتحليل وتفسير سلوك الدول والجماعات والأفراد - باعتبارهم وحدات سياسية. ولعل من أهم هذه النظريات والأدوات هى أداة تحليل المضمون والخطاب Content Analysis، والمقصود بأداة تحليل النصوص والخطاب: «هى تلك الأداة التى تهتم بجميع أنواع القول أو الخطاب - النصوص - سواء أكانت مكتوبة أو منطوقة؛ لغوية أو غير لغوية. أى أنها تعتبر كل أداة فى العالم نصًا وخطابًا قابلاً للتحليل والتقسيم والقراءة. حيث تقوم هذه الأداة - وفقًا لمنهجية علمية فى القراءة والتفسير فى ظل سياق النص أو الخطاب المراد تحليله لتأسيس الفهم العلمى للنصوص واستنتاج وفهم دلالاته ومكنوناته الظاهرة والباطنة». حيث سيتجنب الباحث - نظريًا - على قدر الإمكان أسلوب الانتقاء وانتزاع الجمل من سياقها ووضعها فى غير موضعها؛ بما يؤدى لتأويل وتغيير معانيها ودلالاتها اللغوية والفكرية. بما سيؤدى لتشويه النتائج والاستنتاجات وانحراف سياق التحليل والوصول لنتائج خاطئة لا تغنى ولا تسمن من جوع.

نحن نتفق مع الرأى القائل بأن سلوك الوحدات السياسية (دول - جماعات - أفراد) يمكن فهمه وتفسيره والقدرة على التنبؤ به من خلال ثلاثة مستويات. فطبقًا لعالم السياسة الأشهر فى النصف الثانى من القرن العشرين Kenneth Waltz فإن هناك ثلاثة مستويات Three Images لتحليل وفهم العلاقات الدولية وسلوك الدول فى النظام الدولى. الأول يذهب للقول بأن السياسة الدولية مدفوعة أساسًا من أفعال الأفراد أو النتائج النفسية لسلوك القادة والسياسيين. المستوى الثانى فى شرح السياسة الدولية يرى أنها نتيجة للدوافع وطبيعة التركيب الداخلى والمحلى للدول، فى حين أن المستوى الثالث يركز على دور العناصر الهيكلية أو النظامية، أو تأثير الفوضى الدولية التى تمارس على سلوك الدولة. والتى لا تعنى فى هذا السياق الاضطراب، ولكن عدم وجود قوى أكبر تمارس السيادة على الدول القومية. بالنسبة للأفراد (الشخصيات العامة والسياسية Public Figures) فإنهم يقعون فى المستوى الأول. فمن خلال تبوئهم للمناصب العامة أو امتلاكهم للنفوذ



وقدراتهم على سن القوانين والتشريعات الملزمة واتخاذ القرارات التى من شأنها التأثير على سلوك الدول وتحديد مستويات واتجاهات وطبيعة علاقاتها الخارجية مع باقى وحدات النظام الدولى.

لفهم السياسة الدولية للدول العبرية من خلال تحليل كتاب بنيامين نتنياهو الذى بين أيدينا فإننا سوف نستخدم أداة تحليل الخطاب والنصوص؛ ومن خلالها سنحاول الوصول لعموميات Generalizations نستطيع معها تكوين نسق عقيدى Belief System أو شبكة معرفية Cognitive Network تساعدنا على معرفة نمط وأسلوب تفكير نتنياهو فى المستقبل؛ وذلك عن طريق ترتيب أولوياته وأهدافه من خلال كتاباته والنصوص المنشورة له. وهنا سوف نقوم بتحليل Analysis وتفكيك وتبعيد Dimensionalization كتاب نتنياهو «مكان بين الأمم».

إن الكتاب فى رأينا يمثل خلاصة التفكير اليمينى الصهيونى، وجاء معبراً بصدق عن الأجندة الحقيقية للكيان الصهيونى

أحمد محمد أبوزيد

«مكان تحت الشمس»

١ ـ الكتاب والكاتب: نموذج الواقعية الهجومية

الكتاب الذى سنتطرق إليه الآن هو «مكان تحت الشمس A Place Among the Nations»، نشر للمرة الأولى عام ١٩٩٣ باللغة العبرية، وترجم للإنجليزية عام ١٩٩٤/١٩٩٥، وللعربية عام ١٩٩٦ عن طريق دار الجليل بالأردن. والكتاب عبارة عن خليط من السيرة الذاتية للمؤلف؛ والكتابات الصحفية، والأفكار النظرية الخاصة بعلم العلاقات الدولية (خاصة علم الاستراتيجية وحل وإدارة الصراعات والأزمات الدولية والسلام الديمقراطى Democratic Peace Theory وتوازن القوى). إلى جانب الكثير من المغالطات والافتراءات العنصرية؛ التى لا تثبت أمام أى تحليل علمى (تاريخى أو أنثروبولوجى)؛ وبالطبع الكثير من الذم والقدح والتطاول والافتراء على العرب عامة والفلسطينيين خاصة. ولكن إجمالاً، فإن الكتاب فى رأينا يمثل خلاصة التفكير اليمينى الصهيونى، وجاء معبراً بصدق عن الأجندة الحقيقية للكيان الصهيونى ـ بدون مجاملة أو تجميل. وهو كتاب لا يجب أن يغيب أو أن يحرم من قراءته كافة الناطقين بلغة الضاد. فهو يحمل رسالة مباشرة عن «كيف يفكر العدو؟» ويقول بصراحة «ماذا يريد منا؟»، ويحدد وبوقاحة «كيف يحقق ما يريد؟»، فمن عرف لغة قوم.. أمن مكرهم كما ذكر صلى الله عليه وسلم.

أما الكاتب فهو بنيامين بن تشيون نتنياهو ـ أستاذ التاريخ اليهودى ـ تخرج من جامعة MIT للتكنولوجيا ـ أرقى جامعة متخصصة فى التكنولوجيا فى العالم. كان مندوب للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة خلال الثمانينيات من القرن العشرين. ثم انتخب عضواً فى الكنيست (البرلمان) الإسرائيلى أوائل التسعينيات. ثم تولى رئاسة الوزراء فى إسرائيل من عام ١٩٩٦ : ١٩٩٩. هذا الرجل يعتبر مثالاً نموذجياً Typical Model للنظرية الواقعية الهجومية Offensive Realism فى العلاقات الدولية؛ والتى توجد أصولها النظرية فى كتابات علماء وباحثين واقعيين مثل البروفيسور John mearsheimer, Randell Schweller, Freed Zakria وغيرهم. وبيبى Bibi (كما كان الرئيس الأمريكى السابق كلينتون ينادى نتنياهو) يتخذ من مقولات وأطروحات هذه المدرسة أسلوباً ونظاماً للتخطيط والعمل السياسى له. هذه المدرسة سنتطرق لها بإيجاز فى الجزء الثانى من هذه الدراسة؛ وفى الجزء الثالث سوف نقوم بتطبيق أداة تحليل الخطاب والنصوص من منظور الواقعية الهجومية على كتاب نتنياهو الذى بين أيدينا.

٢ ـ الواقعية الهجومية: خلفية نظرية

طبقاً للمنهج الواقعى فإن العلاقات بين الدول تحكمها وتحددها معادلات وصور توزيع القوى والقدرات المختلفة بين الوحدات الدولية (الدول القومية). فى ظل توجدها فى عالم تنافسى Competitive، ذات طبيعة فوضوية Anarchic، حيث لا توجد سلطة مركزية أعلى High Authority من الحكومات الوطنية تقو بمهمة توجيه وتحديد نوع العلاقات بين الدول ولا اتجاهاتها أو نوعيتها (سواء تعاونية أو تصارعية). فى ظل هذا النظام الأنانى Egoism المتسم بالطابع الفردى، حيث لا تتحقق مصالح الدول الوطنية (التى تعرف لدى الواقعيين فى مفهوم القوة) إلا عن طريق استثمار وتحديد أفضل السبل المتاحة لدى الدولة لتوجيه واستخدام مصادر قوتها وقدراتها القومية (سواء أكانت سياسية، عسكرية، اقتصادية، دبلوماسية، ديمجرافية، أو جيوبوليتيكية).

الهدف الأسمى للدول فى المفهوم الواقعى هو الأمن Security والبقاء Survival، عن طريق توسيع نطاق قوتها القومية Maximize its National Power. فالنظام الدولى (العام والفرعى) هو نظام يقوم على ميكانيزم «احم نفسك» و«حافظ على نفسك» Self - Help System. فالدول إن لم تستطع حماية نفسها، فعليها تقبل الصور التى تبرز نتيجة اختلاف معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات فى بنية النظام الدولى. فالقوى يفعل ـ وفقاً لما يملك ـ ما يريد، والضعيف يتحمل ما يجب عليه أن يتحمله.

إن طبيعة العلاقات ونوعيتها بين الدول تتوقف من المنظور الواقعى على مدى الاختلاف أو التوافق والتباين فى القدرات والإمكانيات ومصادر القوى كما أسلفنا. فإذا كانت الهوة بين معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات واسعة بين الدول، فإن الطرف القوى هو الذى يسيطر على مقدرات النظام، ويقوم بفرض توازن يعمل لصالحه ويحقق مصالحه الوطنية، حتى يتحول أو تتغير معدلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات فى النظام، بصورة قد تعيد تشكيل التوازن بناء على الاختلاف الذى أحدثته فى بناء النظام. وهى نظرية توازن القوى Balance of Power، خاصة وإن كان هذا الطرف الطموح Revisionist (القوى) يمتلك السلاح النووى ـ كإسرائيل فى حالة النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط؛ أو يسعى لامتلاك السلاح النووى ـ كإيران فى حالة النظام الإقليمى الخليجى. من جانب آخر، فإن نوعية العلاقات بين الوحدات الدولية فى أن نظام تتوقف على صور التهديد الذى قد تمثله إحدى هذه الوحدات لباقى وحدات النظام، فطبقاً لنظرية توازن التهديد Balance of threat فإن الدول تميل للتحالف والتكتل Coalition ضد الدول التى تمثل تهديداً كبيراً لها، وتميل للتعاون والتقارب Rapprochement والتكامل مع الوحدات الدولية المسالمة والوديعة التى لا تمثل لها أى صورة من صور التهديد.

وطبقاً لرائد المدرسة الواقعية ـ البروفيسور Kenneth Waltz ـ أن الدول لا يحركها سوى سعيها نحو البقاء Survival وتعظيم حدود ونطاق أمنها Maximize its Security ولا يؤثر عليها سوى الإحساس بالخطر والتهديد Threat من جانب القوى الأخرى. فالدول فى المنظور الواقعى يحدد سلوكها خمسة افتراضات Assumptions أساسية هى كالآتى:

١ - أن الدول لا تسعى من أجل القوة فقط كما يذهب Margenthau وإنما تسعى الدول للحفاظ على بقاءها Survival- وهو ما يقودها لمحاولات تعظيم وتوسيع نطاق أمنها. سواء يتبنى استراتيجيات وسلوكيات دفاعية Defensive أو هجومية offensive في ظل نظام دولى وبيئة دولية تتميز بالطبيعة التنافسية والفوضوية وعدم وجود سلطات أعلى من سلطة الدول القومية التى تتحرك منفردة فى محاولاتها وسعيها للبقاء والحفاظ على أمنها وتعظيم نطاقه.

٢ - إنه فى ظل هذه البيئة التنافسية فإن الدول تحوز بعض القوى العسكرية الهجومية، التى قد تقودها للدخول فى صراعات مسلحة مع بعض القوى الأخرى وإيذاءها وتحطيمها دفاعاً عن نفسها، حتى مع عدم وجود أسلحة يظل الصراع هو السمة المميزة للعلاقات بين الدول.

٣ - إن الدول لا تثق فى بعضها البعض، ولا يمكن التأكد ومعرفة نواياها تجاه بعضها البعض. فبعض الدول لديها نوايا شريرة والبعض الآخر لديها نوايا كريمة. ولكن لا يمكن التأكد من هذه النوايا بصورة يقينية؛ وذلك لتغيرها الشديد حسب دوافع الدول وتفاعلات وتغيرات البيئة الدولية. فمن الممكن أن تكون نوايا إحدى الدول كريمة فى أحد الأيام وشريرة فى اليوم التالى.. والعكس بالعكس.

٤ - إن الهدف الأسمى للدول فى النظام هو السعى نحو البقاء Survival-

٥ - إن الدول فى سعيها نحو البقاء تفكر جدياً فى كيفية تحقيق ذلك. وبالتالى فهى عامل - أداة عقلانية instrumentally Rational، ولكنها تتعامل فى ظل نظام دولى غير دقيق Uncertainty وغير كامل المعلومات Imperfect، حيث تكون هنالك فرص لأعدائها لإخفاء نواياهم الحقيقية عنها.

هذه المحددات الخمسة هى التى تحدد طبيعة الاستراتيجيات التى قد تتبعها الدول القومية فى تعاملها وتفاعلاتها مع باقى الوحدات الدولية الأخرى، فى سعيها للنجاة والبقاء، وهو ما يعتبره Mearsheimer هدفاً دفاعياً Defensive Goal- على هذا الأساس يضع Mearsheimer ثلاثة نوازع Motivates (نماذج سلوكية) تحدد طبيعة السلوك التى تنتهجه الدول فى النظام الدولى. هذه النماذج هى:

١ - الخوف Fear: فالدول فى النظام الدولى تنظر لبعضها بعين الارتياب والشك Suspicion- فالدول تتوقع نشوب الحرب بسهولة، حيث لا مجال للثقة بين الدول وبعضها البعض، التى تحركها مصالحها الذاتية Self - Interests وسعيها نحو تحقيقها لممارسة العداء تجاه الآخرين.

٢ - السعى نحو النجاة - البقاء Survival: فكل دولة فى النظام الدولى تسعى جاهدة نحو البقاء، فكل الدول تمثل تهديداً محتملاً Potential Threat للأخرى فى ظل غياب سلطة عليا تحمى الدول من بعضها البعض عندما ينشب ويظهر الخطر. فالدول لا تستطيع الاعتماد على الآخرين فى توفير الأمن والاستقرار لها. فلا يوجد «خفر Watchmen» فى العلاقات الدولية القائمة بالأساس، وكما يذهب Waltz على مبدأ اخدم نفسك Self- Help-

٣ - السعى نحو تعظيم مكانتها وقوتها Maximize its Relative Power Positions: فالدول فى النظام الدولى تسعى إلى توسيع وتعظيم مكانتها وقوتها بين الدول الأخرى، وذلك ببساطة لأن الدول تعى تماماً أنه: «كلما كبر حجم قوتها.. زادت معدلات أمنها واستقرارها» فكل الدول تسعى لتعظيم مكانتها وإمكانياتها العسكرية والسياسية لأنها الأداة الوحيدة القادرة على ضمان بقائها.

على ذلك الأساس فإن الدافع الرئيسى للدول نحو التعاون وتحقيق السلام فيما بينهما هو توازن القوى وتعظيم المكاسب. فكل دولة تسعى من وراء توقيع أى اتفاق مع أية دولة أخرى إلى ضمان تعظيم مكاسبها - ولو جزئياً، وإن لم يمكن مضموناً فعلى الأقل لا يضرها.

٣ - بنيامين نتنياهو: الصهيونى الواقعى الهجومى

نهجنا فى تحليل نص كتاب نتنياهو لن يكون تقليدياً - بعرض الأفكار الرئيسية التى يحتويها الكتاب وفصوله، ولكن عن طريق انتقاء الأفكار الرئيسية التى تكون محور وركائز الفكر السياسى نتنياهو، من خلال توافقها وتناغمها مع أطروحات المدرسة الواقعية الهجومية. وقد أمكننا تحديد - من خلال قراءة وتفكيك نص الكتاب - أهم المحاور والموضوعات التى تحتل أولويات رئيس الوزراء الإسرائيلى الثالث عشر، والمتوقع أن تتصدر أجندة عمله خلال السنوات القادمة.

الأمن القومى الإسرائيلى

وجود وبقاء الدولة هو جوهر وأساس الأمن القومى لأى دولة وفقاً لرؤية المدرسة الواقعية، والأمن الإسرائيلى عند نتنياهو مرادفاً للوجود اليهودى، بمعنى أن وجود أجواء من عدم الاستقرار وغياب الأمن يهدد وجود إسرائيل واليهود. وعليه: فعلى إسرائيل فى ظل تواجدها فى بيئة إقليمية ومنطقة متوترة وغير مستقرة وغير ديمقراطية ومشبعة بالتوترات والعداوات المتأصلة (ص ٤٣٣) ليس فقط التأكد من عدم تعرض قيمها وأهدافها ومصالحها المركزية للتهديد - كما يعرف الواقعيون الأمن - ولكن امتلاكها للقدرة على ردع الآخرين عن مهاجمتها، فأمن إسرائيل يقوم على الردع وليس على المعاهدات والتسويات.

يحدد نتنياهو خمس مصالح قومية عليا لإسرائيل: لا يجوز التراجع أو التنازل عن تحقيقها. هذه المصالح - الأولويات - الوطنية يحددها على النحو التالى (ص ٤١٦ - ٤١٧).

١ - المحافظة على أمن إسرائيل الاستراتيجى، والذى يتمثل فى قدرتها على ردع أى طرف إقليمى عدوانى وقدرتها على الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم خارجى.

٢ - ضمان سيطرة إسرائيل على مصادر المياه الجوفية فى الضفة والجولان.

٣ - عدم عودة اللاجئين الفلسطينيين المهجرين، عن طريق مراقبة إسرائيل لديمجرافية الضفة الغربية.

٤ - ضمان وحدة القدس تحت السيادة الإسرائيلية وعدم تقسيمها.

٥ - ضمان استمرار التفوق العسكرى والتكنولوجى الإسرائيلى على جيرانها العرب.

هذه المصالح الوطنية العليا من وجهة نظر نتنياهو تحتم على إسرائيل رفض أية مشروعات أو اقتراحات لإعلان دولة فلسطينية فى الضفة الغربية. فالضفة الغربية لنهر الأردن عند نتنياهو تمثل حاجزا طبيعيا أكثر من ممتاز للدفاع عن إسرائيل، حيث تمثل مرتفعات نابلس حائط صد عظيما ضد أى هجوم على إسرائيل، بل إن نتنياهو يرفض حتى إعطاء الفلسطينيين «حق الحكم الذاتى» (ص ٤٢١)، فهو يرى أن إسرائيل هى دولة واحدة لشعبين (وليس دولتين لشعبين) والسيادة فيها للحكومة الإسرائيلية فقط.

من ناحية أخرى يرفض نتنياهو - أيضاً - التنازل عن السيادة الإسرائيلية عن الجولان وتسليمها لسوريا. ويعلل نتنياهو رفضه للانسحاب من الجولان بالقول بأن «مرتفعات الجولان تعطى لإسرائيل ميزة الإنذار المبكر ضد أى تحرك عسكرى سورى أو عربى تجاه إسرائيل، وكذلك تحرك جوى بفضل



محطات الإنذار المبكر المزروعة فى مرتفعات نابلس والجولان» (ص ٣٢٤).

ويدعم نتنياهو وجهة نظره الرافضة بأى شكل من أشكال التنازل أو الانسحاب من الضفة الغربية أو هضبة الجولان بحجة «الدواعى الأمنية» بالتقييم العسكرى الذى قدمه خبراء فى وزارة الدفاع الأمريكية لوزير الدفاع الأمريكى روبرت ماكنمارا عام ١٩٦٧ - عقب حرب يونيو ١٩٦٧ بأيام - حيث لم يصدق الوزير ماكنمارا الأسباب والشائعات التى روجتها إسرائيل لتبرير عدوانها على مصر وسوريا. حيث استخلصت «ورقة الموقف» هذه وأكدت المزاعم الإسرائيلية وقالت المذكرة بأنه «إذا أرادت إسرائيل الحفاظ على نفسها فعليها الاحتفاظ بأربعة أخماس الضفة الغربية وقطاع غزة وبهضبة الجولان، باعتبارها المناطق الوحيدة التى تستطيع بها إسرائيل الدفاع لما توفره هذه المناطق من حواجز طبيعية قادرة على صد أى هجوم ضد إسرائيل» (ص ٣٢٩).

أما أخطر مصادر تعرض الأمن الإسرائيلى للخطر من وجهة نظر نتنياهو فينحصر فى التهديد الذى تمثله الجماعات الإرهابية (الفدائية) الفلسطينية والعربية والإسلامية، حيث يرى نتنياهو أن إسرائيل منذ بدايتها محاصرة بالإرهابيين من كل حدب وصوب، ويدعى أن حروب إسرائيل كلها كانت حروبًا دفاعية، فحرب ١٩٥٦ كانت حربًا لإيقاف التهديد الذى يمثله الفدائيون على إسرائيل من سيناء (ص ١٨٨)، وكذلك حروب ١٩٨٢ و٢٠٠٦ و٢٠٠٨ وغيرها. المصدر الثانى للخطر على الأمن القومى الإسرائيلى هو سعى بعض النظم المجاورة لإسرائيل للحصول على أسلحة الدمار الشامل لاستخدامه فى إبادة إسرائيل. أما المصدر الثالث فهو الاختلال الديمجرافى الذى يمثله الفلسطينيون على إسرائيل. أما المصدر الرابع - ويا للعجب - من وجهة نظر نتنياهو فهو الحكومات اليسارية وحركات أنصار السلام الإسرائيلية، الذين يريدون تهديد أمن وسلامة وبقاء دولة إسرائيل بقبولهم التنازل والانسحاب من الضفة الغربية والجولان، ويؤيدون إقامة دولة فلسطينية، ويوافقون على تقسيم القدس.. فهؤلاء هم التهديد الحقيقى لإسرائيل(!).

الطريقة الرئيسية لحماية أمن إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هى «ردع Deterrence» العرب والفلسطينيين. والعمل على تقوية نظام الدفاع الإسرائيلى وضمان التفوق العسكرى لصالح إسرائيل على جميع الدول العربية؛ بصورة تمنعهم وتردعهم عن التفكير فى الهجوم على إسرائيل. فهذا التفوق هو الحامى الرئيسى لإسرائيل، وليس المجتمع الدولى أو المعاهدات الدولية كما يدعى اليساريون.

الفلسطينيون

الفلسطينيون عند نتنياهو دخلاء وأجانب Foreigners ولا ينتمون لأراضى إسرائيل، بل يكاد يكون الفلسطينى عبر صفحات الكتاب محتلاً لأراض ليست أرضه ولوطن ليس وطنه. وهم عبارة عن جماعات بشرية مهاجرة من البلدان العربية المجاورة ليهودا والسامرة «أراضى إسرائيل» زرعوا زرعًا داخل وطن اليهود واليهودية. ويرى نتنياهو أن الفلسطينيين فى سبيلهم لتبرير وجودهم فى «يهودا» قد ساقوا للعالم مبررات تاريخية مزيفة، حيث بدأ العالم مقتنعًا بأن اليهود هم الذين اغتصبوا وطن الفلسطينيين (ص ٢٣٣).

نتنياهو يلوى الحقائق التاريخية والطبوغرافية ليضفى مصداقية على أطروحاته الصهيونية بعدم أحقية الفلسطينيين فى التواجد فى أرض إسرائيل، حيث يدعى أن كل القرى والمدن الفلسطينية هى فى أساسها قرى ومدن عبرانية. فمدن مثل نابلس وطولكرم وجنين ورام الله والجليل وغيرها من القرى والمدن هى فى الأساس مدن يهودية مثل أرائيل، معاليه، أدوميم، عمانويل، الكناح جعفات زئيف، افرات وبيتار وغيرها (ص ٢٢٨ ، ٢٢٩). ويرى نتنياهو أن اليهود هم الذين ظلموا بصدور وعد بلفور عام ١٩١٧، الذى اعترف «نظريا» بحق اليهود فى بناء وطنهم القومى؛ وأعطى «فعليا» أغلبية الأراضى «للمحتلين» العرب والفلسطينيين، حيث لم يحصل اليهود (السكان الأصليون) إلا على ١٠٪ من الأراضى (ص ١٢٠ ، ١٤٠).

والفلسطينيون عند نتنياهو قوم كسالى لا فائدة ولا نفع منهم. فعلى الرغم من استيطانهم هذه الأراضى الخصبة والغنية، إلا أنهم لم يقوموا بإجراء أى تغيير أو تحويل فى شكل الطبيعة أو توسعوا فى المساحات الزراعية أو قاموا بنهضة أو ثورة حضارية أو صناعية بها، بل على العكس، فقد ظلت هذه الأراضى طوال النصف الأول من القرن العشرين كما وصفها مارك توين عندما زارها لأول مرة فى منتصف القرن التاسع عشر «أراضا بكرا وبرية كما صورها الكتاب المقدس» (ص ٢٢٨) فى دلالة لا تخلو من التلميح بأن هؤلاء الفلسطينيين حتى لو استوطنوا هذه الأرض فهم مجرد قوم «رحل» أو «بدو ورعاة» وليسوا بناة حضارة أو تعمير. على العكس من اليهود الذين أقاموا دولة حضارية وطوروا الزراعة والصناعة فى أقل من خمسين عاما. هو ما يعطيهم الحق فى الاحتفاظ بهذه الأرض. فهم الطرف الأجدر بها: فهم الذين أحسنوا استغلال مواردها والاستفادة منها. بغض النظر عن القصور المنهجى فى هذه المقارنة. فالأراضى والأوطان ليست مشروعا أو مناقصة يفوز بها أكثر الأطراف اجتهادا أو أكبرهم إسرافا.

يرفض نتنياهو البتة الاعتراف بأى حقوق سيادية للفلسطينيين، ويرفض تماما إقامة دولة فلسطينية أو حتى إعطاء الفلسطينيين الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة. ويرى أنه من المستحيل على حكومة يترأسها هو - وعليه شخصيا - الانسحاب من الضفة الغربية وتركها أراضى خصبة ومرتعا لإقامة دولة فلسطينية تتبنى حكوماتها أيديولوجية قتالية تدعو لإفناء إسرائيل والقضاء على اليهود تماما - سواء حركة علمانية كفتح أو إسلامية راديكالية كحماس - فالفلسطينى عند نتنياهو شخص أحادى الشخصية، يريد القضاء على اليهود. وهو ما يبرر انتهاجه هذا الخط المتشدد للغاية فى تعامله مع الفلسطينيين وحقوقهم ومطالبهم. ويرى أن الحل الوحيد المتاح للفلسطينيين دون إيذاء إسرائيل هو إخضاعهم للسيادة الإسرائيلية وإعطاؤهم حقوقهم المدنية «كاملة» مقابل التنازل عن «كافة» حقوقهم السياسية والسيادية تماما. أى أن المطلوب - بصراحة - أن يصبح الفلسطينيون.. إسرائيليين.

السلام

سلام الردع هذا هو الشكل الوحيد للسلام المتاح أمام العرب والفلسطينيين من نتنياهو. هذا المفهوم الهجين والمزيج من مكونين لا يجتمعان أبدا (كالزيت والماء)، فمفهوم الردع مفهوم واقعى يعنى «القدرة على إيقاف الآخرين وإجبارهم على التراجع عن مهاجمة أطراف أخرى»، بينما مفهوم السلام يعنى «حالة من الانسجام والتقارب بين الشعوب والجماعات». أما مفهوم سلام الردع فيعنى بلغة نتنياهو «عندما تواجه خصما

سلام الردع هذا هو الشكل الوحيد للسلام المتاح أمام العرب والفلسطينيين من نتنياهو

ديكتاتورياً احتفظ لنفسك بقوة كافية لردعه عن الخروج للحرب، وطالما بقيت تلك هذه القوة ستحصل على الأقل على سلام ردع، ولكن إذا ضعفت وسائل الدفاع لديك، أو حتى نشأ انطباع بأنك ضعفت، فإنك ستجر على نفسك حرباً وليس سلاماً» (ص ٣٠١ - ٣٠٢).

السلام عند نتنياهو نوعان. سلام ديمقراطي وسلام مع ديكتاتور. النوع الأول يسود بين الدول الغربية واليابان وأستراليا، حيث تسود الأنماط الديمقراطية والليبرالية والرأسمالية في هذه الدول. والتي بفضل المقيدات والقيود التي تفرضها بنية النظام السياسي والاجتماعي المحلي وطبيعة العملية السياسية تضطر هذه الدول لمواجهة صراعاتها ومنافساتها ونزاعاتها - الداخلية والخارجية - بصورة غير عنيفة. أي أن السلام هو محصلة عوامل بنيوية داخلية بالأساس. والنوع الآخر من السلام هو سلام ديكتاتوري (مع ديكتاتور) الذي يسود في مناطق مثل الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. حيث تؤكد الدراسات أن النظم التسلطية والديكتاتورية لديها ميول أكبر من الدول الليبرالية لاستخدام العنف والإكراه لإدارة صراعاتها وأزماتها - الداخلية والخارجية - لانعدام وجود فاعلية سياسية وحراك اجتماعي وسيطرة العسكريين على الحكم. وفي ظل تواجدها في محيط إقليمي تسلطي وديكتاتوري على الرغم من أنها دولة ديمقراطية فإن إسرائيل - من وجهة نظر نتنياهو - مرغمة على انتهاج سلام من النوع الثاني لمواجهة العرب.. سلام ردع. فالأمن مقدم أبداً على السلام، فالعرب عند نتنياهو لا يفهمون سوى لغة القوة، أما إذا تهاونت معهم فإنهم سيغدرون بك ويلقونك في البحر - فهكذا فعل النازي هتلر عندما انتهجت معه أوروبا سياسة المهادنة Appeasement، فالديكتاتورية يجب أن تواجه لا أن تهادن، فكلما شعر الديكتاتور بضعف الأطراف التي يواجهها زادت ميوله وسلوكياته العدوانية والهجومية.

يدعم نتنياهو نظريته عن «سلام الردع» بمثال عن التجربة التي أجراها العالم الألماني كارل أوغست ميبوس لمعرفة العلاقة بين الفريسة والمفترس (ص ٣١٦ - ٣١٧)، حيث وضع العالم في صندوق زجاجي مليء بالماء سمكة مفترسة من نوع «الكراكي» - التي تمثل العرب عند نتنياهو - ثم وضع فاصل زجاج شفاف في منتصف الصندوق، وبعده وضع سمكة أليفة من نوع «الشبوط» - إسرائيل كما يرى نتنياهو، ومتى رأت سمكة الكراكي فريستها الشبوط حتى بدأت في الهجوم عليها؛ إلا أنها ظلت تصطدم مراراً وتكراراً بالحائط الزجاجي الشفاف. حتى تكسر أنفها ومقدمة رأسها. فأقلعت عن مهاجمة الشبوط بعد ذلك. حتى بعد أن تم إزالة الحائط الزجاجي. ظل السلوك الوديع للكراكي تجاه الشبوط كما لو كان الحاجز موجودا. هذا الجدار عند نتنياهو هو «قوة الردع» الإسرائيلي - التقليدي والنووي. الذي يمثل جداراً واقياً لإسرائيل ضد العدوانية العربية. وعليه، فإن أمن إسرائيل واستقرارها سيظل مضموناً مادامت قوة ردعها (الجدار الواقي) فعالة وقوية. هذا الجدار الواقي عماده الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين إسرائيل والجيوش العربية، والمتمثل في جبال الضفة الغربية وهضبة الجولان.. وهو ما يرى نتنياهو استحالة التنازل عنهما مادام هو رئيساً لوزراء إسرائيل.

ولتحقيق السلام في الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل يرى نتنياهو عدة شروط ومتطلبات مسبقة Preconditions يجب تحقيقها ليكون السلام «ثابتاً، وعلى أراض صلبة، وليس مجرد «حبر على ورق» أو مناسبة لالتقاط الصور التذكارية. هذه الشروط يحددها نتنياهو على النحو التالي (ص ٤٢٣):

١ - تسوية الخلاف حول الأراضي المختلف عليها.

٢ - توقيع معاهدات سلام رسمية بين الدول العربية وإسرائيل.

٣ - إيجاد ترتيبات أمنية مع الدول العربية تحمي إسرائيل من أي هجوم، ويمكن للأطراف التأكد من أن الاتفاقيات تنفذ نصاً وروحاً.

٤ - تطبيع العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل.

٥ - وقف الدعاية اللاسامية واللاصهيونية في المدارس ووسائل الإعلام العربية.

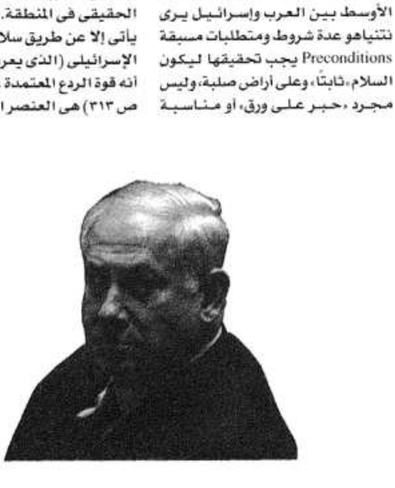
٦ - تدشين هيئة دولية تمنع بيع الأسلحة ووسائل قتالية غير تقليدية لأنظمة الحكم المتطرفة في المنطقة.

٧ - تشجيع مشروع دولي لتوطين اللاجئين.

٨ - إيجاد صيغة من التعاون الإقليمي لتطوير مصادر المياه وحماية الطبيعة والبيئة.

يتغاضى نتنياهو خلال هذه الشروط عمداً عن إيراد أية التزامات أو شروط أو حتى تنازلات تقدمها إسرائيل من أجل تدعيم هذا السلام.

إن إسرائيل - الدولة الصغيرة - إذا أرادت لها مكانا بين الأمم (تحت الشمس) من وجهة نظر نتنياهو - فإن عليها تأكيد جذورها في المنطقة وإظهار صعوبة اقتلاعها من مكانها الحقيقي في المنطقة. هذا التأكيد لن يأتي إلا عن طريق سلام الردع. فالأمن الإسرائيلي (الذي يعرفه نتنياهو على أنه قوة الردع المعتمدة على قوة الحسم ص ٣١٣) هي العنصر الحيوي للسلام.



إذ إن السلام الذي لا يمكن الدفاع عنه لن يصمد طويلاً. فلا سلام مع العرب قبل ضمان أمن إسرائيل. فالعرب الذين يتقلب سلوكهم الدولي الخارجي كالحرباء لا أمان لهم، ولا يجب أن ينخدع الإسرائيليون بالوعود والأماني والآمال بتحقيق السلام والتطبيع مع العرب؛ ولكن يجب إجبارهم على قبول وتنفيذ السلام وفقاً للمفهوم الإسرائيلي. فاليهود لن يكونوا كأهل طروادة الذين خدعهم اليونانيون بهداياهم، والتي كانت السبب في هزيمتهم، فإسرائيل تفضل أن تكون جودزيلا على أن تكون بومباي.

كي يتحقق السلام بين العرب وإسرائيل يرى نتنياهو أن تقوم إسرائيل بانتهاج الخطوات التالية - هذه الخطوات أعدها نخبة من الخبراء الأكاديميين المتخصصين في العلاقات الدولية لنتنياهو عندما كان رئيساً للوزراء عام ١٩٩٦ تحت عنوان Clean A Break وترجمها للعربية وناقشها الدكتور عزمي بشارة. هذه الخطوات كالآتي:

١ - إسرائيل يجب أن تحافظ على تفوقها (الكمي والكيفي) في مجال التسلح التقليدي وغير التقليدي.

٢ - عدم الانسحاب من أراضي الضفة الغربية والجولان.

٣ - رفض حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين.

٤ - الحيلولة دون حصول إيران - أو أية دولة إقليمية - على السلاح النووي.

٥ - الحيلولة دون صعود أية قوى عربية أو إقليمية معادية لإسرائيل.

وفي سبيلها لتحقيق أمنها وتدعيم مكانتها وترسيخ هذا السلام «السلام الإسرائيلي Pax Isrealica» فإن عليها الاستعداد تماماً للتحرك ضد أي خطر أو تهديد يوجه إليها. وأن تثبت القدرة على ردع الأطراف الإقليمية المعادية لها - إما بصورة استباقية أو وقائية - لأن هزيمة إسرائيل مرة واحدة - في حرب نظامية - تعني نهايتها للأبد (ص ٣٢٧). وهو ما يتطلب - داخلياً - تسخير جميع موارد الدولة لصالح «الردع» ودواعي «الأمن القومي»، أي أن تكون الدولة هي الجيش، والجيش هو الدولة (نظام بريتوني Praetorian Regime). فقوة اليهود في دولتهم وقوة دولة إسرائيل في سكانها (دولة المجندين)، فإسرائيل دولة قامت بالأساس على الخوف

والشعور بالتهديد، ولو تلاشى هذا الشعور أو غاب فإن المجتمع اليهودى سيساق مرة أخرى إلى المسلخ كالخراف ليواجه محرقته الأخيرة.

أما أكثر الأجزاء وقاحة وكذبًا فى الكتاب فهو الجزء الذى يدعى فيه نتنياهو إقدام الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية على تقديم تنازلات مؤلمة من أجل تحقيق السلام مع العرب، فنتنياهو يقول بأن الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل قامتا خلال القرن العشرين بتقديم «تنازلات كبيرة» (ص ٤٠٩) هذه التنازلات هى:

١ - التنازل عن المطالبة بمياه نهر الليطانى فى جنوب لبنان عام ١٩١٩.

٢ - اقتطاع حوالى ٨٠٪ من أراضى الوطن اليهودى جراء وعد بلفور.

٣ - تنازل الصهيونية من أجل السلام عن سيناء جراء معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩.

٤ - تسليم طابا لمصر عام ١٩٨٩.

هذه النبرة توضح شيئا واحدا وواضحا للجميع وهو: أن حدود دولة إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هى «من النيل إلى الفرات»، كما تذهب الدعاوى الصهيونية المتطرفة.

القدس

يرفض نتنياهو البتة التنازل قيد أنملة عن القدس للعرب أو للفلسطينيين. ويرى أن عاصمة ومدينة داود هى أراض يهودية بالأساس؛ وأن العرب و«الأردنيون» بالأساس، هم الذين احتلوها قبل عام ١٩٤٨، وقاموا بمذابح ضد السكان اليهود الأصليين للمدينة؛ ولم يسمحوا لهم بإقامة شعائرهم والحج إلى المدينة المقدسة (ص ٤٠٦ - ٤٠٧).

يدعى نتنياهو أن مدينة القدس لم تكن مستقرة أو آمنة إلا عندما كانت فى أيدى اليهود وسيادتهم. وأن الدولة الإسرائيلية لم تقم بأى أفعال هجومية أو عدوانية أو طبقت أية ممارسات عنصرية ضد السكان العرب فى المدينة المقدسة. وعليه فهو يرفض أى شكل من أشكال التنازل أو التفاوض عن السيادة الإسرائيلية واليهودية عن جزء أو كل من مساحة المدينة؛ ويتذرع بأن مثل ذلك التنازل للعرب أو الفلسطينيين قد يحول المدينة لساحة تقاتل دينى وعرقى بين العرب والمسلمين واليهود والمسيحيين.

يرفض نتنياهو ادعاءات اليسار الإسرائيلى (الذين يمقتهم أشد المقت) الداعية للانسحاب من الضفة والجولان والتنازل عن السيادة الإسرائيلية عن القدس (القدس الشرقية على الأصح) ويرى أن هذا التنازل لا يمكن قبوله من جانب حزب الليكود واليمين الصهيونى، ويؤيد الخطوات السابقة التى قام بها زعماء من الليكود مثل شامير، وبيجين الذى رفض حتى ذكر مدينة القدس فى مفاوضات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ (ص ٤٠٧).

الحل الذى يقدمه نتنياهو لحل معضلة مدينة القدس هو إعطاء الفلسطينيين المولودين فى القدس ومنحهم حقوقًا مدنية؛ أى مساواتهم فى الحقوق المدنية مع المواطنين الإسرائيليين دون أن يعنى ذلك أن يكون لهم أى صورة من صور الحكم أو الحقوق «السيادية» على القدس (ص ٤٠٦).

المياه

المياه بالنسبة لنتنياهو مسألة «أمن قومى» National Security (ص ٣٤٤)، حيث يرى أنه لا توجد أى دولة فى العالم يمكن أن تعيش بدون مياه - كالإنسان تمامًا. وبما أن إسرائيل تحصل على ٨٠٪ من احتياجاتها المائية من مناطق لا تقع تحت سيادتها وسيطرتها الفعلية (الضفة الغربية والجولان) فإن هذا الموضوع لا يمكن تجاهله - كما هو الحال الآن - ويتوجب عليها - أى إسرائيل - القيام بجميع السبل المتاحة أمامها (الشرعية وغير الشرعية) بالسيطرة على مناطق استخراج هذه المياه؛ ولا يتوجب عليها التنازل عنها أو الانسحاب منها. فالدول واقعيًا يمكن أن تتنازل عن أية مصالح أو أهداف استراتيجية؛ ولكنها لا يمكن أن تتنازل - طواعية - عن أمنها وبقائها.

يرى نتنياهو أن العرب قوم منافقون وكذابون (ص ٢٨٤ ، ٣٩٠) يتخذون من قضية فلسطين ذريعة أو «فزاعة»

نتنياهو - هذا الشكاك - لا يثق أبداً فى نوايا العرب والفلسطينيين، ويرى أن العرب والفلسطينيين يمكن لهما أن يهددا أمن وبقاء إسرائيل عن طريق «تسميم» منابع المياه. فكما هدد صدام حسين بتلويث مياه الخليج أثناء حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ - ١٩٩١ فإن الفلسطينيين قد لا يترددون فى تسميم هذه المياه (ص ٣٤٥)، وهو ما يتوجب على دولة إسرائيل أن تعمل وأن تضمن عدم وقوع هذه المناطق تحت سيطرة وسيادة دولة معادية لها. وهو الأمر الذى لو حدث فإن إسرائيل عليها التحرك بكل جدية لمواجهة مثل هذه الاحتمالات لتسميم المياه (الإرهاب المائى) أو وقوع مناطق هذه المصادر المائية تحت سيادة دولة معادية (سوريا).

ولأن التوقعات المستقبلية للصراع الدولى فى الشرق الأوسط والصحراء الكبرى - الصادرة عن البنك الدولى والأمم المتحدة - ترى أن المياه قد تكون أحد أهم العوامل المؤججة للصراعات والنزاعات فى هذه المناطق، فإن دعاوى وأطروحات نتنياهو تأخذ منحى خطيراً وجادا للغاية. فكما كان النفط هو العامل المؤجج للصراعات فى عالمنا المعاصر، فمن المحتمل أن تلعب المياه هذا الدور فى المستقبل، خاصة فى ظل تزايد المعلومات والبيانات المتاحة التى تتوقع زيادة نسبة التصحر وارتفاع درجة حرارة الأرض وزيادة نسب الجفاف فى الشرق الأوسط وجنوب الصحراء الكبرى. وهو ما جعل نتنياهو يعتبر مسألة الأمن المائى مسألة أمن قومى.

العرب

إن عنصرية وفوقية النهج الذى انتهجه نتنياهو فى رؤيته للعرب والمسلمين جعلنا نفكر فى التغاضى عن تناول هذا الموضوع رغم أهميته. هذا «البولندى» ينظر لنا نحن العرب نظرة استشراقية ودونية؛ فنحن عنده قوم لا ينفع معهم سوى انتهاج أسلوب القوة والإكراه، ولا يصلح معنا أبدا انتهاج سياسات سلمية مثل المهادنة أو السلام؛ ولكن لا يصلح معنا إلا «الردع» و«المواجهة» و«الضغط» (ص ١٩٠ ، ١٩١، ٢٥١) . ويرى نتنياهو أن العرب قوم «خونة» ويغيرون سلوكهم السياسى مثل الحرباء (ص ١٧٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٣٩٥). فهم يعرضون على إسرائيل السلام باليمنى ويستعدون للكمها باليسرى. والعرب يعتبرون «منظمة التحرير الفلسطينية» حصان طروادة الذين إذا ما اعترفت وأعطت إسرائيل لهم دولة فإنها ستكون «بذرة» الفناء لإسرائيل التى زرعت وسط حديقتهم.

يرى نتنياهو أن العرب قوم منافقون وكذابون (ص ٢٨٤، ٣٩٠) يتخذون من قضية فلسطين ذريعة أو «فزاعة»، أو كوسيلة لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم للسيطرة والتوسع الإقليمى بالمزايدة على الفلسطينيين أنفسهم - مثلما فعل ناصر وصدام والقذافى (ص ١٦٦ - ١٦٨). والهدف الآخر هو إلهاء الغرب عن الأزمات والمشاكل وصور انتهاك حقوق الإنسان داخل الدول العربية. ثالثًا: تخفيف أعباء التدخل الخارجى والنفوذ الدولى التى تمارسها القوى الدولية على الأنظمة العربية لإجراء التحول الاقتصادى والاجتماعى نحو الغرب؛ متذرعين بأن سبب هذه الصراعات والنزاعات هو «الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين» (انظر الفصل الثالث والرابع)، ورابعاً: تبرير استمرار الأنظمة التسلطية فى الشرق الأوسط والتهديد بأن البديل الحالى لهذه الأنظمة هى

الجماعات والأنظمة الراديكالية المعادية للولايات المتحدة والغرب ولإسرائيل مثل إيران وجماعات مثل حماس وحزب الله.

السبيل الوحيد للتعامل مع العرب من وجهة نظر نتنياهو هو فرض سياسة «الأمر الواقع»، وذلك عن طريق تعظيم القدرات الدفاعية والهجومية لإسرائيل، وقدرتها على ردع ومواجهة كافة أعدائها في المنطقة، واشترط الالتزام والاعتراف المسبق بالحدود الآمنة وباستقرار وأمن إسرائيل والاعتراف بها كطرف أصيل وفاعل في النظام الإقليمي.. العربي(!).

إيـــــــران

الخطر الداهم الذي يهدد وجود وبقاء Survival إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هو وجود أيديولوجية قتالية مثل الإسلام الراديكالي تتحول إلى دولة تمتلك سلاحاً نووياً مثل إيران. حيث يرى نتنياهو أن سعي الجمهورية الإسلامية الإيرانية للحصول على السلاح النووي خطر وتهديد لا يمكن لإسرائيل التغاضي عنه أو التعايش معه سلمياً.

يعيب نتنياهو على الغرب عامة وعلى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة هامشية اهتمامها بالتهديدات التي يمثلها سعي إيران للحصول على السلاح النووي في ظل استمرار نظام حكم الملالي الراديكالي الذي يشجع أبناءه ويرسلهم للانتحار في سبيل ما يؤمنون به، ألا وهو تدمير دولة إسرائيل (محوها من على الخريطة). متعجباً من لا مبالاة القوى الغربية بهذه التحديات والتهديدات، بل ورضاها عنها بقبولها تحول إيران إلى قوى نووية.

يرى نتنياهو أن اليهود لن يكونوا شعباً من الخراف يساق للمسلخ طوعاً مثلما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وكما كانوا عبر التاريخ (ص ٤٢٨)، وعليه فإنه يشجع بشدة تحركاً دولياً «عسكرياً» لمواجهة السعي الإيراني للحصول على السلاح النووي؛ مثلما فعلت هي في العراق عام ١٩٨١ عندما دمرت مفاعل تموز العراقي بضربة جوية استباقية، ودون أن تحصل على كلمة شكر واحدة من العرب لتخليصهم من الخطر العراقي (ص ١٨٣).

يروج نتنياهو - وهو في ذلك محق - بأن السعي الإيراني للحصول على السلاح النووي بالتأكيد سيقلب توازن القوى الإقليمي في الشرق الأوسط، وسيغذي سباق التسلح التقليدي في المنطقة؛ والذي قد يتطور لاندلاع حرب إقليمية بين العرب وإسرائيل - في ظل تواجد المظلة النووية الإيرانية الحليفة(!) للعرب. وهو الأمر الكفيل بتدمير إسرائيل للأبد. فإسرائيل وعلى العكس من جميع الوحدات الدولية في النظام الدولي فإن هزيمتها مرة واحدة في الحرب يعني «نهاية دولة إسرائيل للأبد» (ص ٣٢٧).

من أجل الحيلولة دون وقوع ذلك؛ يرى نتنياهو أن على القوى العظمى الوحيدة في النظام الدولي Unipolar انتهاج سياسة تغيير النظام Regime Change في إيران، وممارسة سياسة الحصار Sanction والمقاطعة Boycott والاحتواء Containment الدبلوماسي والاقتصادي على إيران بغرض إحداث تغيير هيكلي في بنية النظام السياسي الإيراني، الذي يراه نتنياهو نظاماً «مجنوناً»، ويعاني من وجود تشوهات نفسية وثقافية عميقة، تكره الغرب وتحتقره وتريد تدميره تماماً. وهو ما يعني أن إيران والسلام الراديكالي خطر وتهديد ليس فقط على إسرائيل، ولكن على البشرية كلها (ص ٤٢٥) وهو ما يحتم مواجهة مثل هذا «الورم السرطاني» بجميع السبل.

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية

في تطرقه لموضوع العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية يظهر نتنياهو كثيرا من الوقاحة وعدم الاعتراف بالجميل. فالقوى العظمى - التي لولاها ما قامت دولة إسرائيل، وبفضل التبرعات والإسهامات المالية الرسمية والشعبية الأمريكية ما ضمنت إسرائيل مستوى رفاهية مثل الذي تنعم به هذه الدولة الطفيلية - لقيت جزاء سنمار من إسرائيل ومن بنيامين نتنياهو الذي حصل هو بنفسه على «منحة» تعليمية لاستكمال تعليمه من جامعة MIT في بوسطن.

نتنياهو في كتابه هذا لا ينكر الجميل الأمريكي الذي قدمته لإسرائيل، وإنما يلومها على بعض المواقف «المتخاذلة» - من وجهة نظره - التي اتخذتها بعض الإدارات الأمريكية مثل إدارة أيزنهاور في موقفها من عدوان ١٩٥٦ وموقف جورج بوش الأب عقب حرب الخليج الثانية من المستوطنات. لكنه لا يلبث أن يعود لرشده ويعترف بالدور الحيوي لإدارات أمريكية مثل إدارات جونسون وريجان وكلينتون في إنشاء وتدعيم وحماية ودعم أمن وبقاء دولة إسرائيل. ولكن نكرانه للجميل (كصفة شخصية ملازمة له) يتسيد رؤيته تجاه الولايات المتحدة التي يرى «حتمية» فك الارتباط معها، وانتهاج سياسة إسرائيلية مستقلة (داخلياً وخارجياً) (ص ٤٥٤ - ٤٥٦).

فنتنياهو يروج بأن الولايات المتحدة هي التي تحتاج إسرائيل وليس العكس كما يروج البعض. (ص ٤٥٦ - ٤٥٩)، حيث يرى نتنياهو أن الأهمية الاستراتيجية Strategic Asset لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة قد ازدادت أهمية وليس العكس. فهو يرى - عكس الرؤية الواقعية التي طرحها عالما السياسة الأمريكية Mearsheimer and Walt في دراستهما الحدث عن دور اللوبي الإسرائيلي في السياسة الخارجية الأمريكية عام ٢٠٠٦ أن زوال الخطر والتهديد السوفيتي وتحول بنية النظام الدولي من نظام ثنائي القطبية Bipolarity إلى نظام احادي القطبية Unipolarity قد تبعه الاتحاد السوفيتي السابق على المصالح والقيم الأمريكية. فنتنياهو يروج الآن لاعتبار سعي إيران لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وسعي بعض النظم المتطرفة في الشرق الأوسط (ليبيا وسوريا) إلى الحصول على أسلحة دمار شامل من الجمهوريات السوفيتية السابقة، والسباق المحموم للتسلح التقليدي في الشرق الأوسط. والأهم من هذا كله صعود التهديد الذي يمثله الإسلام الراديكالي على المصالح والقيم - ليس فقط الأمريكية - الإنسانية والغربية. كل هذه المخاطر تجعل إسرائيل أكثر أهمية للولايات المتحدة عما كانت عليه أثناء الحرب الباردة.. فالحرب الأمريكية على الإرهاب ومكافحة انتشار الأسلحة النووية بالتأكيد مازالت ساخنة.. لم يبرد لهيبها بعد.

يحدد نتنياهو مستقبل العلاقات مع الولايات المتحدة على أساس «الندية»، بمعنى أن على إسرائيل أن تزيح من على كاهلها العبء والقيد الأمريكي الذي يقيد حركتها الدولية والخارجية. ويعيق تقدمها الاقتصادي والتنموي، بصورة يمنعها من تكرار نموذج هونج كونج أو سنغافورة في الشرق الأوسط (ص ٤٥٦). ويطالب نتنياهو بتحويل المعونة الأمريكية لإسرائيل (حوالي ٣ بلايين دولار سنوياً) إلى استثمار مباشر، بصورة تفيد إسرائيل وتدفع عجلة التحول الاقتصادي والتنموي فيها قدماً بصورة أفضل. ويشترط نتنياهو أن تحافظ إسرائيل على حالة «اختلال Imbalance» توازن القوى لصالحها



والسائدة الآن بينها وبين جيرانها العرب؛ لأنها متأكدة - كما يقول نتنياهو - بأنه «إذا لم تكن إسرائيل قوية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لن تدافع عنها، ففى ظل عالم تحكمه ميكانيزم احم نفسك Self- Help فإنك «إذا لم تقدر أن تدافع عن نفسك، فلن يدافع عنك أحد» (ص ٤٥٨). وإسرائيل لو أصبحت ضعيفة، وقام العرب - مجازيًا - بهجوم مفاجئ على إسرائيل «الضعيفة» فإن الولايات المتحدة - وبالطبع الغرب - عندما يهبون لنجدتها والدفاع عنها «لن يجدوا ما ينقذونه» كما ذكرت جولدا مائير قبيل حرب ١٩٧٣ (ص ٤٠٠). وهو ما يوجب - عند نتنياهو - أن تكون قوة إسرائيل - حتى فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية - مسألة لا مناص منها.

خـــــاتمـــــة

لا مكان للعرب تحت شمس نتنياهو

إذا كان الأستاذ محمد حسنين هيكل يفضل من دون جميع قادة إسرائيل «آرائيل شارون» لأنه يعكس لدى الأستاذ الأجندة الحقيقية لليمين الصهيونى، فإننى من ناحيتى أفضل «بنيامين نتنياهو» وأرى فيه المنظر الرئيسى للفكر اليمينى الصهيونى على حقيقته. ويتشابه شارون ونتنياهو فى أن كليهما يتحدث بصراحة - بل وبوقاحة - على الأجندة التى يريدون تحقيقها وفى رؤيتهم للعرب والفلسطينيين.

على الشاطئ الآخر من النهر هناك الجناح اليمينى الذى يمثله شمعون بيريز (الذى يدعوه نتنياهو باليسارى). والذى ينتهج أسلوب المهادنة والتحذلق وادعاء الصداقة والمنفعة المتبادلة بين العرب وإسرائيل لترويج أجندة إسرائيل فى المنطقة. كما يتضح بفجاجة فى كتابه الصادر عام ١٩٩٣ «الشرق الأوسط الجديد». إن المرء قد يخدع فى رجال من نوعية بيريز ويصدق ادعاءاتهم الكاذبة، وبالتالى تكون لدغته أكثر إيلامًا «جسديًا ونفسيًا». أما رجال من نوعية شارون ونتنياهو، فإن المرء لا يجب أن يكرههم أو ينفر منهم (فكراهية عدوك تؤثر على حكمك)، والعربى كما يجب ألا يحب عدوه(!) يجب عليه أكثر ألا يكرهه، لأن هذه الكراهية تعيقه عن اتخاذ قرارات صائبة وعقلانية فى تعامله معه، وبالتالى يعطى الفرصة لعدوه للتفوق عليه. ولكن يجب على المرا العربى أن يفهم شخصية وسلوك عدوه ويحدد بعد ذلك أفضل الأماكن المؤثرة عليه والكفيلة بقتله.

إن العرب والفلسطينيين فى ظل الظروف الدولية والإقليمية والمحلية التى تحيط بهم كان آخر شىء يريدون التعامل معه هو حكومة إسرائيلية بقيادة نتنياهو، ولكن «هذا ما حدث» ولا مفر. فإذا لم يتكتل العرب ويحاولوا إيجاد استراتيجية موحدة - أو منفردة - لمواجهة أجندة نتنياهو التى عرضناها كما جاءت فى كتابه، فإن المرء بكل واقعية يستطيع أن يقول: «بأن العرب والفلسطينيين سيواجهون عواقب وخيمة وتداعيات خطيرة إذا لم يقوموا بردع حكومة نتنياهو عما تزمع القيام به وإحداثه فى المنطقة خلال السنوات الأربع القادمة».

إننى أرى.. أن نتنياهو سينتهج سياسات عدائية ضد الفلسطينيين، ولن يكون هناك دولة فلسطينية فى المستقبل القريب، وقد يكون هناك عدوان جديد على الضفة الغربية والقطاع. وبالتأكيد سوف تعمل حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة على زيادة وتيرة تهويد القدس الشريف وطرد المقدسيين العرب منها. وبالنسبة لسوريا، لن ينسحب نتنياهو من هضبة الجولان. مهما راقت ونعمت تصريحاته ووعوده بقرب عقد سلام مع سوريا. سوف يقوم نتنياهو بعمل عسكرى ضد إيران (منفردًا أو بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية). وستتدهور العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية خلال إدارة نتنياهو - ولكنها لن تصل أبدًا لحد العداء أو القطيعة. فلنتنياهو نفوذه الخطير داخل أروقة المنظمات الإسرائيلية - الأمريكية وداخل الكونجرس، بل وداخل البيت الأبيض ذاته. وعلى العكس مما هو متوقع تمامًا سوف تشهد العلاقات المصرية - الإسرائيلية تحسنًا شديدًا للغاية فى العلاقات بين البلدين، والتى كانت توصف دائمًا بأنها «باردة».. والمستقبل خير اختبار. ■

كتـــاب الـزاويـــة

الحكماء يتكلمون

يقول المثل: «إذا نبح كلب عجوز، فإنه يقدم نصيحة».

المسنون الذين يسيرون على طرقات أكثر، ويأكلون أطعمة أكثر، ويقرأون كتبًا أكثر، لديهم خبرة أكثر، ويتمتعون بسعادة أكثر، ويعانون من مشقات أكثر، ويكونون ذوى خبرة ومعرفة مع تجربة حياة أكثر ثراء. إن هؤلاء العمالقة المثقفين الذين بزغوا فى التاريخ الصينى تركوا وراءهم مقالاتهم المشهورة الخالدة، وهى التراث الحضارى المشترك للبشرية كلها.

سلسلة «الحكماء يتكلمون» الصادرة فى بيروت عن «الدار العربية للعلوم» جمعت أقوال هؤلاء العمالقة.

كانت فترة الربيع والخريف (٧٢٢ - ٤٨١ ق. م) وفترة الممالك المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ ق. م) من تاريخ الصين، فترتين ذهبيتين للفكر الصينى القديم، بزغت خلالهما مدارس فكرية عديدة وتيارات. شملت تلك المدارس: المدرسة الطاوية، والمدرسة الكونفوشيوسية، والمدرسة الموهية، والمدرسة المنطقية، والمدرسة الشرائعية، والمدرسة العسكرية، ومدرسة ين ويانغ، وغيرها من المدارس التى لا يحصى عددها.

احتشد ممثلو تلك المدارس الفكرية فيما بعد فى أكاديمية جيشيا لمملكة تشى. كان العلماء يتجادلون فى ندوات، ويكتبون الكتب لشرح وتفسير مبادئهم ومذاهبهم: دعا بعضهم إلى الخير، فيما دعا بعضهم الآخر إلى الاستقامة، ودعا آخرون إلى اللافعل، وغيرهم إلى الحرية المطلقة.. وقال البعض إن طبيعة الإنسان هى الخير، فيما قال آخرون إن طبيعة الإنسان هى الشر، كما قال البعض إن الأقارب ليسوا أقارب، وقال آخرون إن الخيل ليست خيلاً، وحث البعض على أهمية معرفة الذات وعدو الذات، وجميعهم تركوا خلفهم أعمالاً ثقافية كلاسيكية رائعة وكثيرة.

لسوء الحظ، لم يستمر ذلك الوضع طويلاً. إذ عندما وحّد تشين شى هوانغ (على العرش ٢٢١ - ٢٠٦ ق. م) الممالك المتحاربة، وحكم كأول إمبراطور للصين، أصدر رئيس وزرائه، لى سى، أمرًا بحرق جميع الكتب باستثناء كتب الطب، والتنجيم، وزراعة الأشجار. بذلك دُمرت كل كلاسيكيات المدارس الفكرية المتعددة. اتخذ الإمبراطور وو (١٤٠ - ٨٨ ق. م) لأسرة هان الغربية، الكونفوشيوسية مذهبًا رسميًا للدولة، واعتُبرت المدارس الأخرى - مثل الطاوية والشرائعية - مذاهب منشقة ومهرطقة.

هل يفعلها أوباما حقا؟!

حسين أغا . روبرت مالاى

Hussein Agha, Robert Malley

التحدى المتمثل فى إنهاء الصراع الإسرائيلى الفلسطينى كلية حول ترقيع تفاصيل «حل الدولتين»

[١]

■■ وفقا لكل القياسات الواقعية - الاسم والعرق والأصول والتنشئة - يعد باراك حسين أوباما حقا مرشحا رئاسيا ثوريا. فبالنسبة لسياسة الشرق الأوسط فعلى الأقل يتوافرلدينا مبرر ولو كان ضئيلا يجعلنا نتخيل أنه سوف يكون رئيسا ثوريا. كان الانتهاك المتطرف للسياسة الأمريكية التقليدية التى اتبعتها إدارة بوش والتى من خلالها قامت الولايات المتحدة الأمريكية بغزو واحتلال العراق واستبعاد ونبذ سوريا وتورطها فى الحرب بشغف شديد وغير مسئول لإعادة تشكيل المنطقة. سببا فى اعتبار الفترة الرئاسية لبوش بمثابة بركان ثائر حيث كانت الولايات المتحدة منقادة انقيادا أعمى لنظرة ايديولوجية جامدة فضلا عن ميلها الشاذ والبغيض لاختيار وتفضيل الوسائل العسكرية على الدبلوماسية. سوف تكون الخطوة الأولى لأوباما هى وضع نهاية لتلك الفترة العاصفة وهذا فى حد ذاته يعد انجازا لا يستهان به.

تحتل أجندة أوباما الخاصة بالشرق الأوسط مركز التكهنات الأعظم ويعد قلب هذه التكهنات هو السؤال حول قضية الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. تتوفر بعض المؤشرات الدالة على أن الرئيس وفريقه ملتزمون تماما بالإطار العملى الواقعى والمتأنى فالحقيقة البادية عليهم انهم يأخذون وقتهم بالكامل فى مراجعة السياسات والتشاور على نطاق واسع. ومن النقاط التى كانت موضعا لدراسة فريق أوباما تلك المحاولة المتهورة لفرض نظام جديد فى الشرق الأوسط والتى قامت بها إدارة بوش وأيضا جهود بل كلينتون المتعجلة للوصول إلى تسوية شاملة. تعد بؤرة اهتمام إدارة أوباما هى على الأقل الشروع فى تحسين الأوضاع على الأرض ويشمل ذلك الوضع الاقتصادى فى الضفة الغربية. كذلك فإن لم يتم الوقف الكامل لعملية بناء المستوطنات الإسرائيلية فعلى الأقل كبح هذه العملية ومتابعة إعادة هيكلة وتشكيل قوات الأمن الفلسطينية وتحسين العلاقات بين إسرائيل والدول العربية.

ولكن يلاحظ أن ثمة طموحا كبيرا يفرض تواجده. لم يراهن أوباما بولايته الرئاسية على حل النزاع ولكنه لم يخجل من التحدى. الحكم على ما تم التوصل إليه من اقتراحات من قبل أوباما ورفاقه بشأن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى يعتبر قضية ترتبط بالمصالح القومية الأمريكية. يبدو أن ادارة أوباما تستعد لتكريس عاصمة يعتد بها دبلوماسيا واقتصاديا وربما سياسيا لتحقيق هدفها وعندما تتم تسوية قضية الأرض فسوف يكون الهدف هو الوصول إلى حل الدولتين الشامل.

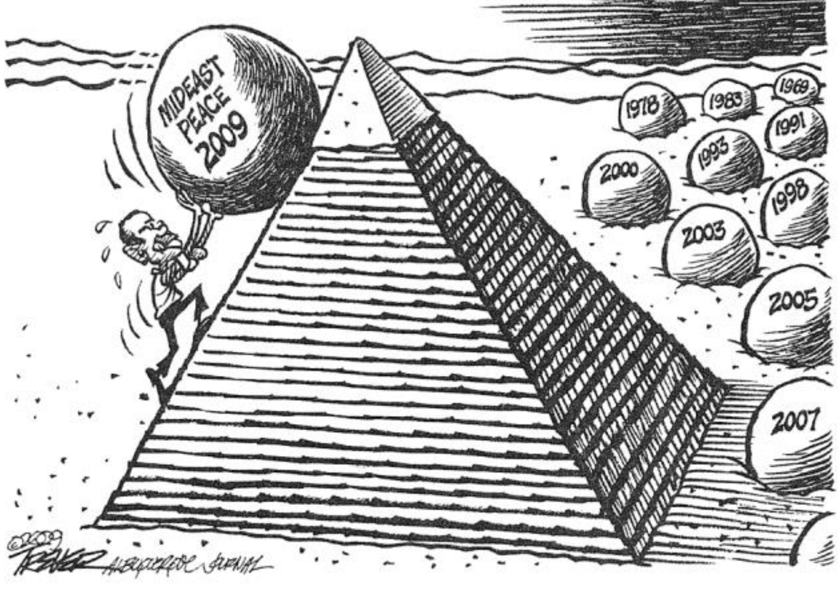
من الوهلة الأولى يتوافر أكثر من مبرر لجعل الحيرة والشك يتفوقان على الثبات واليقين فإذا كان هذا هو هدف الرئيس أوباما فإن هذا الهدف سوف يكون محاطا بظروف مشئومة غير مواتية. فى اسرائيل فقد تم استبدال رئيس الوزراء ايهود أولمرت - الذى لم يمل من تكرار تأكيده التزامه بالدولة الفلسطينية - بأخر وهو بيتيامين نيتنياهو الذى يسمح لنفسه بشكل ظاهر للعيان أن يروج للكلام الزائف. يتسبب شركاؤه فى الائتلاف - وهم خليط من اليمينيين والاحزاب الدينية والذين يكنون كراهية شديدة للأجانب - فى جعل الأمور أكثر سوءا. حتى المشاركة من جانب إيهود باراك وحزبه العمل فى الائتلاف لا تعطى الا إحساسا ضئيلا بالراحة. كان باراك رئيسا للوزراء عندما تم تقويض المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية فى كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ حيث كان الدرس الأساسى الذى لاح لديه هو الشك فى كل ما هو فلسطينى فى حين كان وزير الدفاع الذى ينتمى لأولمرت يضمر بشكل ظاهر ازدرائه لكافة المحادثات التى أقامها الفلسطينيون مع حكومته وقام بطردهم واصفا تلك المحادثات بالحلقة الدراسية. فيما يبدو أنه من الصعب أن يذهب هذا التحالف الجديد لأبعد مما فعل سلفه وهذا من وجهة النظر الفلسطينية يعد غير كاف.

على الجانب الفلسطينى فقد باءت محادثات المصالحة التى تبنتها الوساطة المصرية المكثفة بالفشل فى التقريب بين الحركتين الوطنيتين فتح وحماس وتحت أى ظروف فإن الثمن الباهظ الذى دفعوه مقابلا للفرقة بينهم كان هو تفجير الأوضاع فى غزة واشتعال الحرب فى شهرى ديسمبر ويناير بين اسرائيل وفلسطين. وإذا كانت لا تزال هناك حاجة إلى إثبات فإن هذا الصراع قد أثبت أن الرئيس محمود عباس لن يستطيع الحديث حول السلام ما دامت إسرائيل مستمرة فى الحرب ضد الفلسطينيين وأن الفلسطينيين لن يستطيعوا أن يقيموا سلاما مع إسرائيل طالما أنهم فى حرب مع أنفسهم. تمتلك حماس القوة لإفساد أى تطور وسوف تستخدمها، تستطيع أن تتصرف كخصم عنيد ضد أى محاولة فلسطينية قيمة للتسوية. المفاوضات الثنائية التى فشلت عندما كان أولمرت رئيسا للوزراء وكانت حماس مجرد زمرة فلسطينية من المستبعد أن تنجح بعد انتقال الدفة إلى نيتانياهو وتحول حماس إلى حقيقة إقليمية.

ويرغم هذه الصورة الكئيبة فإن إدارة أوباما مصممة على الضغط من أجل

بترتيب مع:
New York Review of books

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى



التوصل إلى اتفاق نهائى قد يكون السبب فى ذلك توافر اعتبارات أخرى لدى أوباما. من ناحية ما هو ينوى الالتفاف حول المفاوضات بين الأطراف معتمدا على تضافر الدعم العالمى واسع النطاق والذى يشمل الدول العربية وروسيا والاتحاد الأوروبى عارضا حل الدولتين بكل تفاصيله، وبذلك يكون قد وضعهم تحت ضغط شديد يمنعهم من الرفض. ينبع هذا المفهوم من نظرية مؤداها أن كلا من القيادتين الإسرائيلية والفلسطينية- طبقا لخلفية من التحايلات والمكائد -غير قادرتين على التوصل إلى اتفاق وذلك يحتم حشدا عالميا من أجل الضغط والإقناع للتوصل إلى آخر الخطوات الحاسمة.

إنه خيار واحد ولكن قبل القفز تجاهه فهناك قضايا جوهرية لابد من استكشافها. دفع الزعماء لتأييد اتفاق السلام لن يكون عاديا ولكن ذلك ربما لا يكون التحدى الأكبر. السؤال الآخر هو كيف سيرحب كل من الشعبين الاسرائيلى والفلسطينى فى ظل المناخ الحالى بحل الدولتين؟ وهل ستكون النظرة إليه كحل شرعى أم غير شرعى؟ هل سينظرون إليه كنهاية للصراع أم مجرد بداية لجولة جديدة؟ هل سيكون ذا فعالية أكبر فى حشد المؤيدين أم تحفيز المعارضين؟ خلاصة القول ما الحل الذى سيقدمه بالفعل «حل الدولتين»؟

[٢]

فى الأونة الأخيرة يدور التحدى المتمثل فى إنهاء الصراع الاسرائيلى الفلسطينى كلية حول ترقيع تفاصيل «حل الدولتين»، كما أن الجهود المبذولة للتسوية سواء كانت رسمية أم غير رسمية تركز على عملية تعديل نسب ضم الأراضى وتبادل الأراضى والتعريف بالحدود وبأشكال السيادة على القدس أخذا فى الاعتبار ما يخص الدولة الفلسطينية ووصف سماتها ويتوجه الاهتمام الأعظم إلى إيجاد التقنية لإعادة توطين وتعويض اللاجئين. إن الفشل والعجز المتكررين فى تلبية تطلعات الجانبين الاسرائيلى والفلسطينى بالقطع يثير الحيرة ولكن هذه الصعوبات لا تشكك فى الافتراض بأن توازن المصالح أمر حتمى ولابد من توافره فى «الحل القائم على الدولتين» بشكل جاد.

لم يتمكن الرئيس عباس ورئيس الوزراء أولمرت من التوصل إلى تسوية عام ٢٠٠٨ انطلاقا من الأهداف التى كانت محددة لمؤتمر أنابوليس ولكن ذلك لا يدعو للشك فى الفرضية القائلة بأن المزيد من المحاولات قد يعطى نتائج مختلفة . يعرف عباس بأنه أكثر الزعماء الفلسطينيين واقعية ، وأولمرت سلك طريقا غير مباشرا لمعسكر السلام وهو يبدى إيمانا بحتمية التغيير ولو كان ذلك آجلا. بعد شهور من المحادثات رفض عباس اقتراحا اسرائيليا بالتنازل متعلقا بحجم الأرض المحتلة التى تخص الفلسطينيين والذى كان موضع رفض ياسر عرفات قبل ثمانى سنوات وتعرض للشجب بصفته خصما عنيدا للسلام . ليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن المزيد من التغيير والتبديل فى الاتفاق قد يحدث اختلافا.

اتفاقية الدولتين لكى يتم تفعيلها فلابد أن تخاطب إلى حد كبير تطلعات الجانبين فتحفظ لاسرائيل هويتها اليهودية وتمنحها الحدود النهائية المعترف بها وتظل بذلك محتفظة بالأماكن المقدسة اليهودية، ويعيش الفلسطينيون فى الضفة الغربية وغزة متحررين من الاحتلال الاسرائيلى ويحكمون الاماكن المقدسة الإسلامية فى القدس ويحصل اللاجئون على فرصتهم فى اختيار حياة طبيعية من خلال إعادة توطينهم وتعويضهم. إذا كان بالإمكان تحقيق هذه الاهداف فلماذا تثبت الاطراف عدم القدرة على تسوية النزاع؟

إن التطلعات تعكس التجربة التاريخية وبالنسبة إلى يهود اسرائيل فإن هذه التجربة تشتمل على التشريد والاضطهاد وحياة الجيتو وفظائع المحرقة والبحث الطويل المحبط عن وطن طبيعى مقبول ومعترف به. ثمة توق شديد لمستقبل لا يسمع فيه صدى الماضى ويتوفر فيه الامن لليهود. والقبول بالتواجد اليهودى فى المنطقة بدون إبداء أية تساؤلات حول هذا التواجد ولكن هذا غير مضمون حتى بالتفوق العسكرى الخارق.

بالنسبة للفلسطينيين فإن مطالبهم الاولية تتعلق بتجربتهم التاريخية المتمثلة فى انتزاع الملكيات والطرد والتشتيت والتشريد والمذابح والاحتلال والتعصب وامتهان الكرامة والاصرار على قتل زعمائهم وتمزيق السياسة الوطنية لهم بلا هوادة. انهم يريدون الانصاف والتعويض.

إن توق الجانبين الاسرائيلى والفلسطينى لتحقيق تطلعاتهم من خلال اتفاقية الدولتين سوف يرتبط بصعوبة وفاء هذه الاتفاقية بكافة الوعود. لقد تطور الهدف على مر السنين من الرغبة فى الوصول إلى سلام إلى الحل القائم على الدولتين. قد تعطى هذه الاهداف الانطباع باشتراكها فى المغزى ولكن ليست هذه هى الحقيقة فالسلام قد يكون ممكنا من دون اتفاق من هذا القبيل كما أن مثل هذا الاتفاق لا يلزم بالضرورة أن يؤدى إلى سلام، يمكن ان يكون تقسيم الارض وسيلة هامة لتحقيق دولة قابلة للحياة ودائمة وتعايش سلمى بين الاسرائيليين والفلسطينيين ولكن ذلك ليس نهاية المطاف.

[٣]

إن فكرة إنشاء دولة فلسطينية إلى جانب اسرائيل طالما كانت مثيرة للاضطراب والقلق منذ خطة بريطانيا لعام ١٩٣٠ وحتى خطة التقسيم من قبل الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ ، ان التقسيم يعنى القبول بمساحة اقل من المساحة الكلية التى كانت متاحة وقت الانتداب البريطانى، يتم تقليص حقوق اللاجئين الفلسطينيين الذين اعتقلوا أو طردوا أو فروا فى عام ١٩٤٨. وطبقا لتاريخها فان حركة التحرير الفلسطينية لن تجد ما تفعله. ولن يلين الاسرائيلين الذين لا يبدون حماسا لفكرة إقامة الدولة الفلسطينية ويرونه حلا مصطنعا وبعيد التطبيق لما ينطوى عليه من مخاطرة خاصة أن الكثير من العرب والفلسطينيين ينكرون على الاسرائيليين تبادل الحق فى دولة يهودية.

فى أواخر الثمانينيات قبل الفلسطينيون بحل الدولتين ولكنه كان قبولا على مضض إلى حد ما، فقد كان الحل يقود إلى القضية الوطنية ولكنه لم يكن يتطابق كلية مع التطلعات الوطنية الفلسطينية، إنه حل يخاطب العقل ولكن لا يرتقى إلى الوصول للقلب. خلافا للصهاينة الذين تتضح أهدافهم امام أعينهم فى إقامة الدولة اليهودية فإن الفلسطينيين لديهم مبدئيا أهداف إضافية على إقامة الدولة الفلسطينية واذا كان غياب الدولة الفلسطينية ليس هو المصدر الوحيد لسوء الحظ فإن إقامتها لن تكون الحل الشامل الذى يحقق أهداف الفلسطينيين.

تبنى فكرة إقامة الدولة كان بشكل أساسى من صنع يدى رجل متفرد، بتقدير عال لقيمة الوقت وبدهاء وبراعة سياسية وبجسارة مشهودة وتحد غير ياسر عرفات من موقف حركته ولم تكن جهوده خالية من الغموض ، لقد تداخل فى اللعبة السياسية بين الفلسطينيين والاسرائيليين على نحو أقلق الاسرائيليين من خلال تقديم حل الدولة كحل ومحطة على طريق المفاوضات . فقد توصل إلى حل وسط بين القبول بالدولة الاسرائيلية بحدود ١٩٦٧ ويعد ذلك مكسبا كما ربط بين الاثباتات التاريخية النابعة من الدفاع عن الكرامة والشرف وبين مسألة التقسيم، واستطاع أن يقنع الغرب واسرائيل بصدقه فى الاعتقاد بحل الدولتين مستندا إلى سجل حافل من النضال وتحمل المسئولية وكان هذا السجل هو الكنز الثمين الذى ساعده فى الترويج لفكرة الدولتين لدى شعبه.

لا يمتد مفهوم الدولة بين الفلسطينيين إلى زمن بعيد حيث عانى هذا المفهوم من محاولات دحضه خاصة على أيدى البعض من اللذين يحاولون تجريده من مغزاه الحقيقى. ولكن جوهر ومضمون هذا المفهوم كان مستهدفا للكثير من المفاوضات الاسرائيلية - الفلسطينية الرسمية وغير الرسمية وهو يعكس بوضوح ما يريده الفلسطينيون ويوضح المؤيدون له أسبابهم وطريقة تنفيذه وسياقه المحلى والاقليمى، لايحكم الفلسطينيون على فكرة الدولة من حيث الجدارة فقط ولكن من حيث الشراكة أيضا.

من الصعب أن تثير اهتمام الفلسطينيين بمشروع يستهدف بوضوح حماية مصالح العدو التاريخى، إسرائيل،

[٤]

بدأت الألفية الجديدة بقبول شبه عالمى لفكرة إقامة الدولة الفلسطينية فى وقت كان فيه تأييد هذه الفكرة بين الفلسطينيين آخذا فى الانخفاض، الرئيس بوش يعد أول رئيس أمريكى يؤيد هذه الفكرة ويضعها فى إطار الرد على الصراع الإسرائيلى الفلسطينى محاولا التسارع فى تضييق التحدى للحد الادنى لمهمة بناء مؤسسات الدولة، لقد تاهت فكرة النضال والهالة الثورية التى ظللت فكر عرفات ، لم يعد محور النضال هو الحرية وإنهاء الاحتلال بل أصبحت إقامة الهياكل الحكومية هى المحور الأهم.

واحدة فقط من أكثر موروثات بوش خبثا وعمقا وغموضا قد تتسبب فى تحويل فكرة الدولة الفلسطينية من بين الأفكار الأكثر ثورية وحيوية إلى حيز الأفكار الرتيبة التقليدية، جزء صغير من الفلسطينيين معظمهم من النخبة التابعة للسلطة الفلسطينية رأوا أن بناء مؤسسات الدولة يحقق مصالحهم وهم بالفعل بدأوا العمل، بالنسبة للأغلبية فإن هذا المشروع قد لا يلبى مصالحهم السياسية الأصلية.

اليوم فكرة الدولة الفلسطينية ما تزال على قيد الحياة ولكنها خارج فلسطين. أصبح إرساء دولة أمر ذو أولوية قصوى بالنسبة للأوروبيين اللذين يرون أنه جوهرى لتحقيق الإستقرار فى المنطقة والحد من التطرف. وبالنسبة للأمريكيين فهم يرحبون بهذا الأمر باعتباره محور الجهود المبذولة لإحتواء إيران والإسلاميين المتشددين وتشكيل ائتلاف بين ما يطلق عليها الدول العربية المعتدلة واسرائيل. حتى بالنسبة لعدد كبير من الاسرائيليين الذين صاروا يعتقدون أنه الحل الوحيد الفعال للرد على تهديد وجود اسرائيل الذى تمثله الديوجرافية العربية .قد تكون كل هذه الاسباب وجيهة على الرغم من عدم تميز أيا منها بأهمية خاصة لدى الفلسطينيين، حيث يستبعد كل منها فى رؤيته للدولة الفلسطينية الهدف الأساسى الذى يكمن وراء النضال الفلسطينى.

إن التأييد العالمى لفكرة الدولتين له سلبياته فكلما زاد توجه أمريكا والغرب لهذه الفكرة ناهيك عن اسرائيل وما تحصل عليه من فوائد كلما قل التخاطب مع الفلسطينيين. ومن الصعب أن تثير اهتمام الفلسطينيين بمشروع يستهدف بوضوح حماية مصالح العدو التاريخى،اسرائيل، ويهزم واحدة من منظماتهم السياسية،حماس، ويسعى لإنقاذ الأنظمة العربية الموالية للغرب لما تبديه من التعاطف والولاء. يشعر العديد من الفلسطينيين أن مفهوم الدولة قد تعرض للقرصنة التاريخية من قبل الذين قللوا من قيمته وعارضوه عندما كان فكرة فلسطينية ليؤيدوه بعد أن حولوه لفكرة خاصة بهم. إن عملية إضفاء الشرعية على الدولة أمام العيون على المستوى الدولى قد ساعد فى تشويه تلك الشرعية أمام أعين المستفيدين المستهدفين منها.

لقد تعرض مفهوم الدولة للتشويه بما صدر عن مروجيه الفلسطينيين فاليوم لم يعد العديد من الفلسطينيين يرون زعماءهم بأنهم ينفذون مشروعا وطنيا ولكنهم يرونهم كأدوات تم تصميمها خارجيا تستهدف خدمة ودعم فصيلة فلسطينية ضد أخرى. عندما تسعى السلطة الفلسطينية إلى التوجيه فلابد ان ننظر إلى الخارج: إلى الولايات المتحدة للحكم على ما إذا كان من المفترض لبرنامج حكومة وحدة وطنية سوف يكون وافيا للغرض أم للمساعدة فى وضع خطة أمنية لإسرائيل تساعدها على مواجهة التحدى الاسلامى لمصر وباقى العالم لكيفية التعامل مع قطاع غزة.

وفى كل ذلك فإن خيارات السياسة العامة للسلطة الفلسطينية لا تعطى تفضيلا للمشكلة الفلسطينية نفسها ولا تركز على المصلحة الوطنية للفلسطينيين بل تعطى الأولوية لما يجب أن تكون عليه الأمور طبقا للمفهوم الأجنبى. وعلى جانب القادة الفلسطينيين فإنهم قد يختارون مواجهة حماس من أجل الوحدة أو ربما لسبب آخر. والقرار الذى سيتم العمل به قد يأتى بنتائج عكسية على الأقل سوف يكون قرارهم، انهم يتصرفون ويتحدثون فى الوقت الحاضر وكأنهم على رأس الفلسطينيين -الاكثر احتراما- بينما هم فى واقع الامر يتركون مهمة اصلاح الاوضاع المضطربة لآخرين. كل هذه العوامل تقلل من مكانة السلطة الفلسطينية حتى فى نظر الكثيرين ممن يدعمون برنامجها وتضخم من معارضتها حتى من جانب الكثيرين ممن لا يشتركون أصلا فى شئ مع الاسلاميين.

لم يكن أيا من ذلك متعمدا فعندما وصل عباس إلى السلطةعام٢٠٠٥ كانت له مصداقية ورؤية حول حل الدولتين طالما شكلت له جوهر معتقداته. لم تكن للسلطة وكلا من فتح وحماس قدرة على التحدى، كان يمكن استخدام هذا الوضع بشكل جيد لتحقيق خطة عباس الاصلية والتى كانت تعدل من سياسات حماس عن طريق اكتساب تعاون من جانب الحركة الاسلامية وتحول الرئيس الفلسطينى ليأخذ دور الوساطة بين الفلسطينيين جميعا والمجتمع الدولى من أجل التوصل إلى اتفاق سلام مع اسرائيل وان لم يتحقق.

لقد تسبب اعتناق عباس للفكر الغربى الخانق -عناق الدب - فى تآكل شرعيته وتنبع سوءات هذا الفكر من كونه أمريكيا وتتعاظم سوءا من كون مصدرها الرئيس بوش. لقد فرضت حالة من التبلد ظلالها على سلطته بعد تعرضه للتدخلات الامريكية مما دفع الفلسطينيين للتساؤل حول ما إذا كانت القرارات يصفها رئيسهم أم الآخرين. وأصبحت رؤيته مشوشة بعد مسخ «حل الدولتين، وتحويله من الفكرة الوطنية إلى واحدة أخرى اجنبية.

ينبع مأزق عباس من رفضه لبعض المساعدات وأيضا الدعم الذى يقدمه له الذين يدعون أنهم يتمنون له الأفضل خاصة أمريكا وأوروبا. فقد دفعوه مرارا وتكرارا فى اتجاهات كانت ترفضها فطرته ولتجرده من فريق للدعم ولأدوات القوة اللازمة للصمود وخضوعه متباعدا عن الوحدة الوطنية متوجها إلى الاعتماد على المنتفعين الاجانب. وكانت الولايات المتحدة وأمريكا سببا فى جعله يبدو فى صورة من يتنازل ويبرر تنازله بالعجز، يبدو أن عباس هو الفرصة التى يجب ألا تفوت.

[٥]

لقد كانت إقامة الدولة فى مرحلة ما انجازا فلسطينيا ولكنها الآن أصبحت مكافأة لشخص آخر. يمتلك أوباما ما لم يمتلكه أى رئيس أمريكى قبله، فلديه مشروع يستطيع من خلاله مخاطبة الجمهور الاجنبى بدون التقليل من الكرامة الامريكية أو المساس بشكلها. فى مسعاه لتوسيع نطاق المحادثات الاسرائيلية الفلسطينية بشكل أو بآخرلتشمل عشرات الدول العربية والاسلامية فسيؤدى ذلك إلى منح الدبلوماسية الامريكية فعالية ملحوظة. بالمثابرة ومرور الوقت فإن الاستراتيجية - القائمة على بناء تحالف دولى للضغط على الطرفين لتقديم التنازلات اللازمة وعرضها نهائيا لحل الدولتين - يمكن أن تنجح. حل الدولة عندما يعرضه بوش يكون شيئا ولكنه يصير شيئا آخرا تماما عندما يقدمه أوباما.

ان التكرار مرة اخرى قد يعنى المقامرة. فوجود الكثيرين من الاسرائيليين والفلسطينيين اللذين يفسرون هذا الحل كحل يروجه أناس خطأ لأسباب خاطئة وفى وقت خاطئ سوف يجعلهم لا ينظرون اليه كحل على الاطلاق وسوف يعارضونه ويحاولون حشد الدعم من اجل الوصول إلى اتفاق لا يقوم على اسباب واهية على الاقل لبعض الوقت حيث تقل فوائد الصفقة بالمقارنة بالتنازلات التى تتطلبها، بالنسبة للمعارضين فان هذا الوقت القليل سوف يكون ثمينا فاتفاقية بهذا الشكل غير القابل للتنفيذ وكذلك غير القابل للانهاء سوف تؤدى إلى نتائج متطرفة مفادها الوصول إلى اتفاق يفتقد لصلاحية التطبيق ولايمكن تحقيقه.

قد تكون هناك وسيلة اخرى، نقطة البداية فيها هى بذل قليل من المجهود السريع لتحقيق الحل القائم على الدولتين او عرض اقتراح الولايات المتحدة بهذا الشأن وسوف يكون ذلك محاولة لتغيير المناخ السياسى وإعادة صياغة العملية الدبلوماسية يستتبع ذلك اولا تحديد والاعتراف بالاهتمامات والتطلعات الاسرائيلية والفلسطينية الاساسية ثم وضعهم فى صلب هذه العملية. هذا بدوره ينطوى على تغيير الطريقة التى تقدم بها الولايات المتحدة حلها الذى تؤمن بملاءمته للطرفين بحيث يرى الفلسطينيين هذا الحل كثمرة لنضالهم الوطنى كما يراه الاسرائيليون تتويجا لمساعيهم التاريخية بدلا من أن يكون منتجا جانبيا تابعا لاستراتيجيات الآخرين. قد تكون النتيجة النهائية واحدة بالنسبة لدولتين تعيشان جنبا إلى جنب ولكن رحلة الوصول إلى هذه النتيجة لابد ان تكون اكثر صدقا وقبولا.

بعبارة أخرى لن تكون المهمة هى صقل وتلميع الأجوبة حول مسائل الحدود والأمن والقدس أو كيفية تعويض اللاجئين فذلك النهج قد أصبح جانبيا بشكل متزايد واحتلت مصالح المفاوضين الرسمية مكان الصدارة، وكذلك الحديث عن انشاء مركز المؤسسات الفلسطينية أو تمجيد حل الدولتين واعلاء قيمته فى مجال مكافحة التطرف واعادة تشكيل المنطقة. عندما دعا أفيجدور ليبرمان وزير الخارجية الاسرائيلى إلى اسقاط الشعارات القديمة التى تنادى بالارض مقابل السلام وحل الدولتين كان لديه غرضا سياسيا ووجهة نظر. ان التكرار اللانهائى لم يؤد إلى تحقيق الاهداف او حتى الاقتراب منها ولكنه أثر على مصداقيتها. إن إعادة الخطاب الامريكى مع كلا الجانبين قد يعيد التواصل أخذا فى الاعتبار آمال واحتياجات الطرفين وعودة إلى الاساسيات وهى تحديد الاعتراف ومعالجة المظالم التى عانى منها الفلسطينيون والاسرائيليون والاعتراف بحقهم فى حياة طبيعية.

استخدام لغة جديدة من شأنه أن يساعد على الوصول إلى جمهور أوسع. معسكرات السلام على كلا الجانبين لمدة طويلة عملت على بيع فكرة الدولتين ولكنهم الآن لايستطيعون بيعها فكلما زاد التوجه نحو تحديد الاقتراح كلما قلت جاذبيته. يتعين على الولايات المتحدة الوصول إلى دوائر المتشككين التى قد تحدث اختلافا فيما يتعلق بالحديث عن الدولتين ومن الامثلة على ذلك المستوطنين وهم يمثلون مجموعة ناشطة اسرائيلية يعاملهم العالم الخارجى كمجموعة من مرضى الجذام. اكثر من عملية سياسية شاملة يمكن ان تعترف بوجهات نظرهم وأرائهم وتعبر عن اهتماماتهم وتدعوهم للمشاركة فى المناقشات.

حالة اخرى بالتأكيد هى حالة الفلسطينيين فى الشتات والذين تمثل آراؤهم التطلعات الوطنية منذ البداية وستشكل الاستجابة الجماعية للمستقبل. فى مقال نشر مؤخرا للكاتب والتر راسل ميد بعنوان:أى اتفاق،كتب عن ضرورة معالجة القضايا التى تهم اللاجئين المحرومين بشكل أساسى وضرورة تجسيد القومية الفلسطينية وهذا الاتفاق لابد فى نهاية الامر ان يكون مصدرا للشرعية السياسية فى الحياة السياسية الفلسطينية.

سوف يتعين التصدى لمسألة الصراع الاسرائيلى الفلسطينى طبقا لحدود ١٩٦٧ ولكن لا يمكن حل هذا الصراع إلا اذا تم التعامل مع الوضع منذ نشأته عام ١٩٤٨، فى الواقع فإن مع المزيد من الاعتراف العلنى للولايات المتحدة بمحنة اللاجئين سيكون من الايسر انهاء المعاناة الحالية وطويلة المدى لهؤلاء اللاجئين، مع الاخذ فى الاعتبار ألا تكون الرغبة فى إنهاء معاناتهم حجة مريبة للقضاء على قضيتهم وطمس حقوقهم.

سوف يكون من الاهمية بمكان بالنسبة للولايات المتحدة تعديل تعاملها السياسى مع السياسة الداخلية الفلسطينية وخصوصا الرئيس الفلسطينى. عباس هو رجل فى حاجة ماسة لأن يترك وحده،إذا كانت تصرفاته يمكن النظر اليها على انها شرعية وتأييده للاتفاقية يعطى لها وزنا فإنه لايمكن أن يبدو كرئيس لبعض الفلسطينيين فقط ولكنه يجب ان يكون رئيسا للجميع. انه لا يمكن ان يسلم مهمة اتخاذ قرارات حاسمة - تحت الضغط - لأطراف خارجية بل يجب ان يضطلع بهذه المهمة بنفسه. يجب أن يسمح له بعمل ما يرى أنه حق. لا تحتاج واشنطن فقط للاعلان عن تعزيزها للوحدة الوطنية الفلسطينية ولكنها تستطيع البدء فى التحرك من خلال إشارتها إلى قبولها لأى اتفاق تسوية بين فتح وحماس يقدمه عباس باسمه. يتعين على الولايات المتحدة مواصلة دعم عباس ولابد ان تتوقف عن وضعه فى هذا الموقف السياسى المهمش والمدمر حيث يتوقف مصير شعبه على قرار الأخرين. إذا كان الهدف هو تعزيز عباس فليس هناك ما هو أفضل.

الكيفية التى سيتم بها قبول مبادرة السلام سوف توظف لخدمة المناخ الاقليمى. كلما زادت حالة الاستقطاب بين من يسمون بالمعتدلين والمتطرفين وكلما زاد التوجه نحو تعزيز المجموعة الاولى والإضرار بالثانية سوف تتولد المعارضة، وسيجد المتشددون آذانا صاغية. فى صفوف الفلسطينيين سوف ينمو شعور بأن الولايات المتحدة تخوض معركة باسمهم ولكن ليس من أجلهم.

[٦]

منذ اليوم الاول لرئاسته - التى تزامنت مع حرب غزة وما سببته من صدمة فى

كتاب الزاوية

الحكماء يتكلمون

أقوال كونفوشيوس

إن اسم عائلة كونفوشيوس هو كونغ، أما اسمه الأصلى فهو تشيو، ولقبه تشونغ نى. إنه من أبناء مملكة لو فى أواخر فترة الربيع والخريف. كان جده الأول نبيلاً فى سونغ وكان من الجيل السادس كونفغو جيا (لقبه كونغ فو، واسمه جيا) وتولى منصب وزير الدفاع.

ولد كونفوشيوس فى كهف بجبل نيتشيو فى مدينة تشيويفو عام ٥٥١ ق. م (فى العام ٢٢ من عهد الملك لو شيانغ)، وسُمى تشيو (معناه تلة) لأن شكل رأسه كان مثل تلة. قام كونفوشيوس بالتعليم وتنوير الجماهير فى مملكة لو، وشجع بناء الكتاتيب للتعليم. قيل إن عدد تلاميذه كان ثلاثة آلاف تلميذ، وإن اثنين وسبعين منهم يمتلكون كفاءة عالية، وقد أسس تلامذته المدرسة الكونفوشيوسية. كان كونفوشيوس قد تولى منصب رئيس إدارة شئون السجون وأعمال النيابة العامة فى مملكة لو، ثم استقال من المنصب وجال مع طلابه فى مختلف الممالك، وعاد إلى مملكة لو فى السنوات الأخيرة من حياته، حيث زاول التعليم والتأليف لشرح نظريته.

يدعو كونفوشيوس إلى الرحمة والفضيلة، ومن أقواله المشهورة: «الذى يقيد تصرفاته بالآداب العامة، يعترف الآخرون بأنه شخص ذو أخلاق سامية»، «والعاقل لا يخدع أبدًا والفاضل لا يقلق أبدًا والشجاع لا يخاف أبدًا»، «ولا تفرض على الآخرين ما لا ترغب فيه لنفسك».

المنطقة وتزايد التطرف وصولا للنهاية - كان الشرق الأوسط تحديا واضحا لأوباما. لابد له من الفوز بولاء مجموعة ضخمة من العرب والمسلمين الساخطين الذين أصبحوا لا يعتقدون فى الولايات المتحدة بل يكفرون بها.

الصعود سوف يكون حادا. كان انتخابه بداية لإثارة تساؤلات تحيث لم يمض وقت طويل للحكم عليه شخصيا ولكن ثمة إدانة ومشاعر سلبية تلحق بالولايات المتحدة. ولكن الرئيس الجديد يستطيع أن يعتمد على مزيد من إلقاء الخطب الرنانة وهو يتمتع بقبول جماهيرى واسع وسوف ينظر إليه فى ضوء جديد. هذا ما سوف يقوده الآن. سوف يحظى بميزة محاطة بالشك ولكن الشك سوف يبقى هائلا.

بالنسبة للرئيس الجديد سوف تكون نقطة الانطلاق هى الاعتراف ببعض الوقائع الوحشية المزعجة وهى تشمل عمق الموروث المناهض للروح الامريكية، السخرية من الخطط القديمة والصيغ المجهدة والنفور الشعبى من جانب زعماء المنطقة الذين تعتمد عليهم واشنطن، والجذب الشعبى للناشطين المسلحين ذوى السلوك المتشدد والتطرف على مستوى العالم.

والنتيجة هى أن بعض الوصفات الجاهزة لايمكن ان تنجح كما ان شحذ الاهتمام لإنهاء الصراع العربى الاسرائيلى اوالتوصل إلى حل قائم على الدولتين قد أصبح قديما بفضل التكرار العقيم. لقد فعل الرئيس بوش ذلك بحماس ربما اكثر من اى رئيس امريكى سابق ومع ذلك فقد أصغى له القليل لأن قليل فقط هم اللذين كانوا يعتقدون فيما يقول على الاقل حدث ذلك بالنسبة للفلسطينيين الذين كانوا من المفترض الجمهور المستهدف لبوش. الاعتماد على منح المساعدات إلى الدول العربية الحليفة التقليدية او السعى لتحسين العلاقات مع اسرائيل لن تنفع كثيرا أيضا، سوف يكون ذلك عديم الفائدة وفيه إثقالا لكاهل إدارة أوباما بوزن من الشخصيات غير المرغوبة لا طائل منه كما يعد ترسيخا لفكرة مؤداها على الاقل ان امريكا تعد من حيث المحتوى امتدادا للماضى.

سوف يأتى الوقت للولايات المتحدة للدعوة لمبادرة دبلوماسية كبرى - ليس الأن - المهمة الكثر الحاحا الآن هى تمهيد الطريق لذلك بمواجهة الشكوك التى تقابل بها كل الافكار الامريكية سواء كانت هذه الافكار جيدة ام رديئة، بدءا من خطة وزير الدولة وليم روجر لعام ١٩٦٩ ووصولا إلى خطة خارطة الطريق. لقد حان الوقت لوضع حد فاصل فى الكلمات والاسلوب والنهج.

بالنسبة للكثيرين فى الولايات المتحدة لقد تقلصت فكرة التغيير الجذرى إلى سؤال حول ما اذا كان سيتم الحديث مع حماس أم لا. ولكن ثمة تحول. فالتحدى الآن هو ما إذا كان أوباما سوف يتحدث إلى هؤلاء الذين تتحدث عنهم حماس إنهم الشعب الذى فقد الثقة فى أمريكا ودوافعها وكل اقتراح تقدمه.

النقطة الاوسع هى: النافذة موجودة ولكن ما سيتم هو إغلاق للموضوع بشكل مفاجئ وقصير المدى وفى أثناء ذلك يقوم أوباما جذريا بقلب فلسطين والعرب والمسلمين والتصورات المسبقة وجعلها مناسبة لخطته المستقبلية أيا وحيثما كانت هذه الخطة للحصول على محاكمة عادلة لأمريكا تؤخذ بمأخذ الجدية. لن يتم ذلك بإعادة تغليف عملية سلام منتجة من سنوات ولت. ولن يتم ذلك من خلال السعى لتدعيم قادة تراهم شعوبهم فى أحسن الاحوال ضعفاء وغير أكفاء وغير مسئولين وغيرفعالين يتسمون بالإهمال والتهور. لن يتم ذلك من خلال استدامة التمييز الوهمى وغير المفيد بين المتطرفين والمعتدلين من خلال عزل السابق والوصول إلى اللاحق وانهاء حالة الانفصام عن معظم الجهات الفاعلة فى المنطقة.

لن يتم ذلك بمحاولة اداء أفضل على نفس النهج الذى كان من قبل، فإن ميراث بوش فى هذا السياق كان مضاعف الاضرار لقد أخطأ فى فعل أشياء سيئة تسببت فى مخاطر التوقعات الكاذبة. ما الذى يمكن القيام به حيال ذلك. ■



هـل أثـرت كلمـاتـه فعـلا..؟

■ ■ لم تكد تمر سوى أيام ثلاثة على خطاب الرئيس أوباما إلى العالم العربى والإسلامى حتى كان الناخبون فى لبنان يتوجهون إلى صناديق الاقتراع لانتخاب برلمان جديد. ووفقا لمجلة «تايمز Times» فإن «معظم المحللين» توقعوا بشدة فوز الائتلاف الانتخابى بقيادة «حزب الله» الموالى لسوريا وإيران، والذى كان مسئولا عن معظم العنف على الحدود الشمالية لإسرائيل. وقد تبين أن معظم المحللين كانوا على خطأ. فقد حصد الائتلاف المعتدل - المشهور دائما بموالاته لأميركا والغرب - واحدا وسبعين مقعدا مقابل سبعة وخمسين فقط لحزب الله وحلفائه.

إن السياسة فى لبنان، والتى تتكون من حساء ملتهب من الجماعات العرقية التى تسلح البعض منها وأصبح يشكل خطورة، تجعل السياسة فى شيكاغو تبدو وكأنها «مونتبليه» (عاصمة ولاية فيرمونت الأمريكية وتشتهر بالهدوء). إن كلمات رئيس أمريكى - حتى لو كان من شيكاغو - لم تحتل بالضرورة المقام الأول فى عقول الشيعة والسنة والدروز والمسيحيين من طوائف لاهوتية ومذاهب سياسية عديدة مختلفة، والذين اصطفوا للإدلاء بأصواتهم وغمس أصابعهم فى الحبر. ولكن معظم المحللين (الذين لا يكلون) اتفقوا على أن خطاب أوباما والزخم الهائل المرتب بعناية للدبلوماسية العامة التى كانت حجر الزاوية للخطاب، كانا ضمن العناصر التى أثرت على نتيجة الانتخابات.

فى الوقت نفسه، وأثناء كتابة هذا المقال، كان هناك جمهور ناخبين ممتلئ بالبهجة فى انتظار نتائج منافسة حامية لانتخاب رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وبغض النظر عمن يفوز - سواء كان محمود أحمدى نجاد المحافظ شديد الوطنية والجالس فى مقعد الرئاسة بالفعل، أو مير حسين موسوى منافسه الرئيسى المعتدل نسبيا - فإن السلطة النهائية سوف تبقى فى يد «القائد الأعلى» آية الله على خامئنى ومجلسه من ا لحكام الدينيين الذين أقصوا المنافسين الليبراليين عن الترشيح. ولكن إيران ليست مجتمعا مغلقا تماما. فالتغيير موجود فى هواء طهران، وشفافية الرئيس الأمريكى جزء من ذلك.

لقد تحدث أوباما فى القاهرة لأكثر قليلا من خمسين دقيقة، وهو ما يعادل زمن محاضرة جامعية أو جلسة تحليل نفسى. لقد تضمن خطابه عناصر من كليهما، كما قدم أوباما لجمهوره ليس فقط معلومات وحجة وسياق فى تنظيم دقيق، بل تخلص أيضا من عقدة قديمة، فعلا صوته بأشياء لم تذكر لوقت طويل. لقد ذكر أنه كان يأمل فى أن يتحدث بوضوح وصدق، وهذا هو ما فعله. عندما أعرب عن الأسف لأن الخوف والغضب الناشئين عن «الصدمة الرهيبة» للحادى عشر من سبتمبر قد «أديا بنا لأن نتصرف بعكس تقاليدنا ومثلنا»، فقد سمى أبشع أعمالنا المشينة باسمه وهو «التعذيب». وعندما استعرض التاريخ التعس لعلاقاتنا مع إيران، قال «أثناء الحرب الباردة، لعبت الولايات المتحدة دورا فى الإطاحة بحكومة إيرانية منتخبة ديمقراطيا»، وهو إقرار رئاسى واضح غير مسبوق. لقد أطلق على الوجود الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة احتلالا، ووصف الوضع هناك بأنه لا يطاق. وقد سمى فلسطين باسمها. تلك أشياء لم يعتد الجمهور المسلم أن يسمعها من رئيس أمريكى. وللسبب نفسه، فقد وصف معاداة السامية بالخسة، وأطلق على إنكار المحرقة جهلا مقيتا. ومن قلب العالم العربى، نادى بالديمقراطية وحقوق المرأة، ومن مقرأة مصرية نادى بالتسامح مع المسيحيين الأقباط. تلك أشياء لم يعتد الجمهور المصرى سماعها على الإطلاق.

لقد احتوى خطاب القاهرة على خصائص أصبحنا نتوقعها من خطابات أوباما: التعاطف والصراحة واحترام ذكاء مستمعيه. وكان لديه هذه المرة ميزة موروثة. إن الكثير من الكلمات والعبارات التى استخدمها كان يمكن أن تبدو مصطنعة ومستترة لو أنها جاءت من أى زعيم غربى آخر على الإطلاق. ولكن التاريخ الشخصى لـ «باراك حسين أوباما» مكنه من أن يستشهد - بتواضع - بإسهامات الإسلام فى الحضارة الإنسانية وإسهامات المسلمين فى الحياة الأمريكية. لقد بث إشارات تنم عن الاحترام: الإسلام كان «وحيا»؛ الإشارة إلى موسى وعيسى ومحمد كان يتبعها «عليهم السلام» كما فى العرف الإسلامى؛ القرآن كان «القرآن الكريم» بنفس تقديس الكتاب المقدس.

كانت هناك لحظات من المبالغة وأخطاء غير مقصودة. فالمباهاة بأن «حكومة الولايات المتحدة قد لجأت للقضاء لحماية حق النساء والفتيات فى ارتداء الحجاب ومعاقبة من يمنع ذلك» كانت فقرة مبالغة جدا: فالجمهورية الفرنسية العلمانية لها تقاليدها المقدسة أيضا، وأحد تلك التقاليد يحرم عرض الرموز الدينية فى المدارس الحكومية. ربما كان ذكر الثمانمائة ألف لاجئ يهودى من الأراضى العربية فى سياقه. وارتباط اليهود بأرض - إن لم يكن بدولة - إسرائيل يعود إلى ما قبل المحرقة.

لكن أوباما كان يسعى لخلق مناخ نفسى جديد وهو شرط مسبق للتقدم. وهو لم يتحدث عن «الإرهاب» أو «عملية السلام». وبدلا من ذلك، قال لأحد الأطراف:

«يجب أن يتخلى الفلسطينيون عن العنف. إن المقاومة من خلال العنف والقتل خطأ ولن تفلح. لقد عانى السود فى أمريكا لعدة قرون من ضرب السياط كعبيد وإذلال الفصل العنصرى. ولكن لم يكن العنف هو الذى حقق الحصول على الحقوق الكاملة المتساوية. إن إطلاق الصواريخ على أطفال نائمين أو تفجير حافلة مليئة بالنساء العجائز ليس من مؤشرات الشجاعة أو القوة».

وقال للطرف الآخر:

«إن الولايات المتحدة لا تقبل شرعية استمرار المستوطنات الإسرائيلية. إن إقامة تلك المستوطنات ينتهك الاتفاقيات السابقة ويقوض جهود تحقيق السلام. لقد حان وقت إيقاف تلك المستوطنات».

إن تذكير أوباما للفلسطينيين بمحنة الأمريكيين الأفارقة لم يلق استحسانا من المحافظين الجدد فى أمريكا، والذين روجوا استعارة مفضلة لديهم «المكافئ الأخلاقى» للهجوم على المقارنة. ولكن إذا كان من المبالغة مساواة المعاناة الفلسطينية بمعاناة السود الأمريكيين فى ظل قرنين ونصف من عبودية الرق (والذى لم يلغ بدون عنف)، ومقارنتها بقرن لاحق من الفصل العنصرى والحرمان من الحقوق السياسية، فإن ذلك كان مفيدا وعادلا.

كانت وجهة النظر الأمريكية الرسمية منذ وقت طويل أن المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية يجب - على الأقل - أن تتوقف عن التوسع. وإبان حكم «جورج دبليو بوش» كان «النشاط الاستيطانى» محل انتقاد باعتباره - حرفيا - «غير مفيد»، وهى معادلة تتفق تماما مع «غير ضار». ولكن أوباما يبدو جادا. إن النمو الاستيطانى - والذى كان أمرا واقعا مستمرا فى ظل الحكومات الإسرائيلية من كافة الاتجاهات، والذى يبدو التحالف اليمينى الحاكم الحالى متمسكا به - هو ضار بالفعل. إنه ضار بأى فرصة للسلام، وضار باقتصاد الجانبين، وضار بالسمة اليهودية والديمقراطية لإسرائيل، ونافع فقط للمتعصبين على الجانبين والذين يحتفظون بالأغلبية كرهائن.

قال أوباما فى القاهرة: «لقد حان الأوان لأن نتحرك بناء على ما يعرف الجميع أنه الحقيقة». وما يعرف الجميع أنه الحقيقة - سواء اعترفنا بذلك أم لا - هو أن الحل الوحيد الذى يقدم نزرا يسيرا من السلام والعدل لشعبى إسرائيل وفلسطين هو دولة لكل منهما؛ وأن كلا الجانبين عاجز عن تلمس طريقه بمفرده إلى هذا الحل؛ وأن الحزم والمثابرة الأمريكيين هما وحدهما القادران على إنقاذ الطرفين معا. إن الطريق أمامنا محفوف بالمخاطر، ليس أقلها قتال الأشقاء داخل القيادة الفلسطينية، المنقسمة بين الضعف والعناد، وحكومة إسرائيلية متمرسة بأساليب واشنطون ويهيمن عليها ساسة معادون لأى تفكير فى وجود دولة فلسطينية. لقد كانت كلمات الرئيس فى القاهرة ملهمة وضرورية. وسواء تذكرناها بعد سنوات من الآن بالفخر أم بالحسرة، بالإعجاب أم بالسخرية، فذلك شىء لا يستطيع أى شخص - ولا حتى أكثر المحللين مهارة - أن يتنبأ به. ■

هندريك هيرتزبيرج

بترتيب مع The New Yorker

ترجمة: عادل فتحى

في البلدان الإسلامية لماذا تغيب الديموقراطية؟

جون سبوزيتو
و
داليا مجاهد

إن الحدود الاعتباطية، والحكام الذين لا يمثلون شعوبهم، أنتجوا دولاً من الأمم الضعيفة، مع حكومات غير ديمقراطية؛ شجعت على ثقافة الاستبداد

■■ عندما كنت أنهى إجراءات الجوازات للسفر من لندن إلى إدنبرة، سألنى أحد موظفى الجوازات: يا جون «ما الذى ستعمله فى إدنبرة؟» ولما سمع إجابتى: «سألقى محاضرة رئيسة فى مؤتمر عن الإسلام والديمقراطية».. ابتسم وقال: «ستكون تلك محاضرة وجيزة!».

صادفت تعليقاته قناعة لدى الكثيرين فى الحكومة، ومراكز الفكر، ووسائل الإعلام: بأن الإسلام أو المسلمين لا يتوافقون بحكم طبيعتهم مع الديمقراطية. وقد دعم هذه النظرة النقاد الأكاديميون وموظفو الحكومة فى أنحاء أوروبا والولايات المتحدة.

كتب «فرانسيس فوكوياما» بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر؛ وهو من المنظرين المحافظين الجدد السابقين:

«للحداثة أساس ثقافى. ولا تنجح الديمقراطية الليبرالية والأسواق الحرة فى كل مكان. فهى أنجح ما تكون فى المجتمعات التى تملك قيماً معينة، ربما لا تكون أصولها منطقية تماماً. وليس من المصادفة أن الديمقراطية الليبرالية الحديثة قد نشأت أولاً فى الغرب المسيحى؛ حيث إن العالمية فى الحقوق الديمقراطية يمكن اعتبارها صورة علمانية من المسيحية العالمية. ولكن يبدو حقا أن هناك شيئاً عن الإسلام، أو على الأقل فيما يخص الصور الأصولية للإسلام، التى ظلت سائدة فى السنوات الحديثة، مما يجعل المجتمعات الإسلامية مقاومة للحداثة بصفة خاصة».

لقد استخدم «تونى بلير» (Tony Blair) الحجة التالية لتبرير غزو العراق:

«يواجه هذا العالم الجديد تهديداً جديداً من الفوضى والاضطراب نتيجة للدول القاسية مثل العراق، المسلحة بأسلحة الدمار الشامل، أو الجماعات الإرهابية المتطرفة. وهم جميعاً يكرهون طريقتنا فى الحياة وحريتنا وديمقراطيتنا».

إن جماعة متنوعة من موظفى الحكومة وأعضاء الكونجرس والنقاد تردد آراء الخبراء الأكاديميين من أمثال «صمويل هانتنجتون» (Samual Huntington) و«برنارد لويس» (Bernard Lewis): التى تحذر من أخطار «صدام الحضارات» ولهذا الاعتقاد جذور عميقة بين صناع القرار والخبراء، وهو استجابة - بصفة جزئية - لبعض الحقائق السياسية فى العالم الإسلامى:

■ من كل أربع دول أغلب سكانها مسلمون، توجد دولة واحدة تنتخب حكوماتها بطريقة ديمقراطية.

■ الحكام فى عدد من الدول الإسلامية التى تدعى إجراء انتخابات ديمقراطية يفوزون فى انتخابات الرئاسة بصورة روتينية بنسب تقريبية تتراوح بين ٩٠٪ و٩٩.٠٪. وقد فاز رئيس تونس «بن على» بنسبة ٩٩.٤٪ من الأصوات فى انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٩٩، وبنسبة ٩٤,٥٪ فى عام ٢٠٠٤. وفى مصر فاز الرئيس حسنى مبارك بنسبة ٩٤٪ فى عام ١٩٩٩، وبنسبة ٨٨.٦٪ فى عام ٢٠٠٥ من أصوات الناخبين.

■ إن أغلب الحكومات الإسلامية تسيطر على الأحزاب السياسية المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، وتحدد نشاطها بصورة قاسية. ولها سلطة الترخيص لها أو منعها وحلها، وكذلك تتحكم فى قدرتها على عقد الاجتماعات العامة والاتصال بوسائل الإعلام.

فى عام ٢٠٠١ على سبيل المثال، وبعد عامين من اعتلاء الملك عبد الله عرش الأردن، قام بحل البرلمان عند نهاية مدته؛ واستخدم «الأمن» تبريراً لتأخير الانتخابات طوال عامين آخرين. وقد ألغى الرئيس المصرى حسنى مبارك الانتخابات البلدية المقررة فى ربيع ٢٠٠٦ فجأة؛ خوفاً من تنامى شعبية الإخوان المسلمين، بعد أن فازوا بخمس المقاعد فى الانتخابات التشريعية فى عام ٢٠٠٥. ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين لا تزال محظورة بصفة قانونية فى مصر، فلا بد أن يتقدم مرشحوها باعتبارهم مستقلين. وإذا كانت الانتخابات قد أجريت فى المملكة العربية السعودية فى عام ٢٠٠٥ لانتخاب أعضاء المجالس البلدية، فإن المجالس قليلة السلطة، أو لا سلطة لها، ولم تتحقق إصلاحات كثيرة وعد بها كبار الأمراء.

فى مقابل هذه الخلفية، أشار الرئيس جورج بوش إلى الاهتمام بنقص الديمقراطية فى العالم الإسلامى، واعتبر التحول الديمقراطى هدفاً رئيساً للسياسة الخارجية الأمريكية، بناء على أسباب جيدة. فالديمقراطيات أكثر استقراراً من الدكتاتوريات، والديمقراطيات المستقرة تقلل الظروف التى تفرخ الصراع السياسى والراديكالية والعنف والإرهاب.

إن سياسة الولايات المتحدة نحو الديمقراطية فى الشرق الأوسط تتفق فعلاً مع عواطف الأغلبية الهائلة من أولئك المشاركين فى الاستفتاء؛ الذين يقولون إنهم معجبون بالحريات السياسية فى الغرب، ويقدرون حق تقرير المصير، ويرغبون فى المزيد منه. ولكن إذا كانت الرغبة فى الديمقراطية لا جدال فيها؛ فلماذا لم يكن الطريق إليها إذاً أيسر وأسرع؟ إن استفتاء «جالوب» العالمى عن آراء المشاركين فى الديمقراطية والسياسة الخارجية الأمريكية يقدم اتجاهات مهمة عن الآراء المشتركة والفوارق المميزة فى التوقعات والأهداف والطرق الواصلة إلى هناك.

إذا كان نشر الديمقراطية هو الهدف المقرر للحكومة الأمريكية، فإن الأغلبية فى الأردن ومصر وإيران وباكستان وتركيا والمغرب لا توافق على جدية الولايات المتحدة فى نشر الديمقراطية فى مناطقها من العالم.

إن التغير الحديث فى كلام إدارة بوش عن نشر الديمقراطية فى العالم العربى يبدو أنه يدعم هذه الاتجاهات، وخاصة عند اعتبار زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية «كوندوليزا رايس» (Condoleeza Rice) للشرق الأوسط فى يناير ٢٠٠٧. وقد ألغت رايس قبل سنتين زيارة مقررة إلى مصر، احتجاجاً على اعتقال أيمن نور؛ وهو من الزعماء

للاستزادة
من يتحدث باسم الإسلام
جون سبوزيتو، داليا مجاهد
ترجمة: عزت شعلان
تقديم فهمى هويدى
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٩

السياسيين الديمقراطيين الليبراليين. وبعثت رايس برسالة: «إن إدارة بوش جادة فى دفع الإصلاح الديمقراطى فى العالم العربى». وعندما زارت مصر فعلاً فى أوائل عام ٢٠٠٦، فإنها أنفقت أغلب الوقت فى مناقشة حاجة مصر إلى دفع الديمقراطية والإصلاح. ولما عادت رايس إلى تلك الدولة بعد عام، فإنها ـ على كل حال ـ لم تذكر علنًا تراجع مصر عن الديمقراطية والإصلاح. كان نور أقرب المتحدين للرئيس فى انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٥، ولكنه سُجن مرة أخرى، وتراجعت البلاد عن التقدم الذى أحرزته فى حرية المعارضة والتعبير، وقد وصفت رايس نظام التسلط فى مصر ـ بدلا من ذلك ـ بأنه جزء من «علاقة إستراتيجية مهمة، نقدرها تقديراً عظيماً».

إن اتجاه إدارة بوش فى إستراتيجيتها الجديدة فى الشرق الأوسط هو تدعيم التحالفات التاريخية للولايات المتحدة مع الأنظمة العربية السنية الاستبدادية: التى كانت سياستها القمعية مدعاة للوم فى التشجيع على التطرف، وأمثال القاعدة. والآن تصف رايس حكام مصر والأردن والإمارات الست الخليجية ـ وهم من أصحاب الحكم المطلق ـ بأنهم «زعماء مسئولون»؛ لأنهم ينشئون القوة الدافعة فى التحالف ضد إيران فى المنطقة.

ينعكس الغضب من سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة فى الصحافة العربية.

يقول الصحفى اللبنانى «ميشيل يونج» (Michael Young):

«إن جدول الأعمال الأمريكى قد تغيّر تماماً، فالذى كان مفروضاً للعراق أن تتحول إليه قد حلّ محله جدول أعمال جديد كليًا، يحتوى على إيران وحلفاء إيران... لقد انتهت المناقشة حول الديمقراطية اليوم... وإنى أسف لذلك».

فى أعقاب الصراع بين إسرائيل وحزب الله فى لبنان فى عام ٢٠٠٦؛ وبعد قرار الولايات المتحدة قطع المساعدة لحكومة فلسطين بعد انتخاب حماس زاد اعتراض الصحافة العربية فى الإشارة إلى «المقاييس المزدوجة» للولايات المتحدة فى دعمها للديمقراطية. وقالت افتتاحية فى صحيفة سورية باللغة الإنجليزية هى «سيريان تايمز» (Syrian Times): «إن بوش ومساعديه المحافظين الجدد مازالوا مصممين على حرب العالم كله باستخدام الشعارات الكاذبة والنفاق. وهم فى الممارسة العملية، يقفون بعيدا عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية».

وكتب عز الدين درويش فى «تشرين» السورية:



«تريد الإدارة الأمريكية فى لبنان أن تستأصل المقاومة من خلال التدخل فى النسيج اللبنانى وإحياء الصراع بين الطوائف والمتعصبين. إنها تريد دفع تجار السياسة والحروب إلى المقدمة، واستخدام الضغط على المستوى العربى والدولى لفرضهم حكاماً على لبنان».

اتهم تعليق درويش كذلك الولايات المتحدة بالتدخل فى السياسة الفلسطينية حتى تضمن انتصار فتح على الرغم من دعم الناخبين لحماس:

«فى المناطق الفلسطينية تريد هذه الإدارة أن توقف التفاعل بين الزعماء والجذور الشعبية، وتحاصر المقاومة، وتدق إسفينًا بين الحكومة المنتخبة والناس،على توافق مع خطط الاحتلال الإسرائيلى. كانت النتيجة هذه الحرب بين الإخوة».

ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الكثيرين لا يؤمنون بأن الولايات المتحدة جادة فى الديمقراطية فى هذه المناطق، فإن كثيرين فى العالم الإسلامى يقولون إن الحرية السياسية والتحرر، وحرية التعبير هى أكبر ما يدعو إلى إعجابهم بالغرب، وتربط نسبة كبيرة بين «النظام القضائى العادل» و«المواطنين الذين يتمتعون بحريات عديدة» وبين المجتمعات الغربية.

إن نقص الوحدة والفساد السياسى والاقتصادى والتطرف هو أقل ما يدعو إلى إعجاب الكثيرين بالعالم العربى والإسلامى، فى الوقت نفسه.

الديمقراطية والإسلام

يختلف الكثيرون فى العالم الإسلامى والغرب حول الطرق للوصول إلى الحكم الديمقراطى. ومازالت هناك أسئلة مهمة: كيف يمكن أن تزدهر الديمقراطية فى بلاد تكون ثقافتها استبدادية؟ هل يمكن أن توجد الديمقراطية حيث يتشابك الدين والسياسة؟ إن الانتصارات الانتخابية للشيعة فى العراق، وحماس فى فلسطين تبدو مخالفة للديمقراطية الغربية فى الفصل بين الدين والدولة. هل يمكن أن نحصل على الديمقراطية والشريعة؟

وعلى الرغم من أن كثيراً من المسلمين والحكومات الغربية يتحدثون عن الديمقراطية، فإن حق تقرير المصير لا يستدعى الفصل بين الدين والدولة، كما يفهمه أغلب أولئك المشاركين فى الاستفتاء. وتبين بيانات الاستفتاء أن أغلبية كبيرة من المشاركين فى بلاد الاستفتاء تذكر الأهمية المتساوية للإسلام

والديمقراطية باعتبارهما من الأمور الأساسية من أجل رفعة حياتها ومستقبل التقدم فى العالم الإسلامى. كان الإسلام والسياسة مختلطين فى مصر والمغرب وتركيا والأردن إلى باكستان والملايو وإندونيسيا، حيث نجح المرشحون الإسلاميون والأحزاب الإسلامية فى الانتخابات القومية والمحلية.

أظهرت الاستجابات فى الاستفتاء كذلك دعماً شائعاً للشريعة، بالإضافة إلى الدعم القوى للإسلام والديمقراطية. وتمثل الشريعة شيئاً مختلفاً جداً عند كثير من المسلمين، وتعتبر - عادة فى الغرب - قانوناً قاسياً بدائياً. تعنى الشريعة حرفياً «الطريق إلى الماء»، ولكنها تعنى «السبيل إلى الله» عند استخدامها فى نطاق دينى، وهى تمثل سبيلاً إلى الهداية الروحية والاجتماعية معاً. إن الشريعة تمثل البوصلة الأخلاقية للحياة الشخصية والحياة العامة للمسلم. ما الذى يطلبه المسلمون على ذلك حين يقولون إنهم يريدون الشريعة مصدرا للتشريع؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبلغ من التنوع مثل ما يبلغه المجتمع الإسلامى.

إن مبادئ الشريعة يمكن استخدامها تاريخياً لتحديد قوة السلطان. كتبت الشيخة ساجدة - وهى من الكاتبات المسلمات - فى صحيفة الجزيرة ما يلى فى أكتوبر من عام ٢٠٠٦:

«من المنطقى تطبيق قانون الشريعة فى الدول العربية والإسلامية؛ حيث تكون أغلبية السكان من المسلمين. إنها الطريقة الوحيدة للمسلمين حتى يهربوا من الدكتاتورية والقمع عند بعض الحكام العرب؛ الذين يفضلون المصالح الشخصية على ما هو أفضل لشعوبهم».

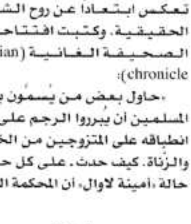
تستمر ساجدة فى الإجابة على سؤال مرسل إلى قسم «دعونا نتحدث»:

«يدعو الإسلام إلى العدالة، ولا أرى تعارضا بين الشريعة الإسلامية والحقوق الإنسانية. إن تطبيق الشريعة الإسلامية فى الدول الإسلامية يؤدى - على النقيض - إلى ضمان الحقوق الإنسانية ضد قمع بعض الحكام العرب، الذين يركزون اهتمامهم على كيفية استغلال نفوذهم إلى أقصى حد، قبل فقدان العرش».

عندما أعلنت ولاية «كانو» فى نيجيريا لأول مرة أنها ستطبق الشريعة فى عام ٢٠٠٠ مثلا، فقد تجمع الكثيرون من النيجيريين للاحتفال بالقرار فى الأماكن الرئيسة للصلاة فى العاصمة. وقال حسن دامبابا، وهو مدرس كان حاضراً فى حفلة الإعلان: «إنه تحقيق أحلامنا. نستطيع الآن أن نمارس دياناتنا كما يجب علينا».

اتجه انتباه العالم إلى نيجيريا فى عام ٢٠٠٢ عندما حُكم على سيدة نيجيرية فى الثلاثين من عمرها تسمى «أمينة لاوال» بالموت رجماً بالأحجار. وحكمت عليها المحكمة الإسلامية بالزنى نتيجة حملها خارج الزواج، وعقوبته الرجم، بينما أطلق سراح الرجل المتهم بالاتصال الجنسى معها، نظرا لغياب أربعة شهود. وإذا كانت مثل هذه الحالات تمثل فى الغرب الشريعة، فإن كثيرين من المسلمين يعتقدون أن هذه الحالات تعكس ابتعاداً عن روح الشريعة الحقيقية. وكتبت افتتاحية فى الصحيفة الغانية (Ghanaian chronicle):

«حاول بعض من يسمون بعلماء المسلمين أن يبرروا الرجم على أساس انطباقه على المتزوجين من الخائنين والزناة. كيف حدث - على كل حال - فى حالة «أمينة لاوال» أن المحكمة الشرعية فى «كاتسينا» لم تُصدر حكماً على الرجل الذى كان سبباً فى حمل «أمينة لاوال»؟ لماذا تخلق انطباعاً بألا عدالة للنساء فى الإسلام؟ لقد كان هناك بصورة واضحة عوامل مجتمعة من ممارسات ما قبل الإسلام، والتحيز الرجالى، والجهل المجرد والتعصب».



هزمت الأحزاب الإسلامية - فى خلال السنوات الماضية - خصومها العلمانيين هزيمة قاطعة

حكمت محكمة الاستئناف الشرعية بنقض إدانتها فى عام ٢٠٠٣. وتبعا لأربعة قضاة من خمسة، فإن الحكم الأصلى قد خرق بعض مبادئ الشريعة الإسلامية؛ لأنه لم يحقق شرطاً فى وجود ثلاثة قضاة محليين للاستماع إلى قضيتها؛ حيث حضر واحد فقط عند إدانتها، ولم يتيسر للمتهمة الحق فى الدفاع القانونى السليم، كما أن دليل القرائن، وهو فى هذه الحالة حملها، لا يعتبر دليلاً كافياً حسب الشريعة الإسلامية.

إن اتهامات العلماء بأن المحكمة الإسلامية فى نيجيريا قد أخذت فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى حالة «لاوال» إنما تعكس التفسيرات المتعددة فى نطاق تقاليد الشريعة الإسلامية.

من المحتمل أن يستمر المسلمون فى نيجيريا فى استكشاف المرونة الكامنة فى الشريعة، بينما يطورون نظامهم القضائى. وتبعا لبيانات «جالوب» فإن الشريعة بوصفها مصدرا للتشريع تكسب اليوم دعماً قوياً من أكثر من سبعة فى كل عشرة مسلمين نيجيريين، الذين يقولون إنهم يريدون أن تكون الشريعة أحد مصادر التشريع على الأقل، ويريد واحد فى كل خمسة أن تكون المصدر الوحيد. وفى الوقت نفسه، لا يريد واحد فى كل خمسة أن تكون مصدرا للتشريع على الإطلاق.

لو كان الغرب وكثيرون من المسلمين يريدون الديمقراطية للعالم الإسلامى، إذ يعتبرونها قوة للاستقرار ومفتاحا للتقدم فى المستقبل، فإن أسئلة حرجة لا بد من تناولها:

- لماذا تغيب الديمقراطية فى كثير جداً من بلاد العالم الإسلامى؟ هل يكون الإسلام هو المشكلة؟
- كيف ينظر ١,٣ مليار مسلم إلى الديمقراطية؟
- هل يكون دعم أغلبية المسلمين للشريعة سبباً فى هلع الغرب؟
- عندما يعبر الرجال والنساء من المسلمين عن رغبتهم فى الشريعة: ما الذى يقصدونه؟
- ما هو التفكير الديمقراطى عند المسلمين؟
- إذا كانت الديمقراطية هدفا منشودا عند الكثيرين من المسلمين وفى السياسة الخارجية للولايات المتحدة: هل يعتقد المسلمون أن للغرب أى دور يلعبه؟

لماذا تغيب الديمقراطية عن كثير جداً من بلاد العالم الإسلامى؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال فى التاريخ والسياسة أكثر من الدين. كان أمامنا - نحن فى الغرب - قرون حتى نتقدم من الملكيات إلى الدول الديمقراطية الحديثة: من ملكيات الحق الإلهى إلى دول الأمم الحديثة العلمانية، وقد عانينا أثناء العملية من هروب الثورات والحروب الأهلية. أما الحكومات فى العالم الإسلامى التى تم خلقها - فى المقابل - بعد الحرب العالمية الثانية، فيبلغ عمرها عقودا من السنين فقط.

من المهم على قدم المساواة أن كثيرين من المسلمين عاشوا قروناً عديدة تحت حكم الاستعمار الأوربى. وفى منتصف القرن العشرين، عندما أصبحت دول كثيرة تتكون من الأمم، فقد أصبحت القوى الاستعمارية هى التى تحدد فى الغالب حدودها وتوافق على حكامها. قسم البريطانيون شبه القارة الهندية فى جنوب آسيا إلى الهند، وإلى باكستان الغربية والشرقية قبيل منحهما الاستقلال، وأصبحت ولاية كشمير - التى يغلب المسلمون على سكانها - جزءاً من الهند. وشهد العالم بعد الفصل حربا شاملة بين الهندوس والمسلمين، وهجرة الملايين، ثم الحرب الأهلية فيما بعد بين باكستان الشرقية والغربية؛ أدت إلى خلق بنجلاديش، والصراعات على حكم الهند التى ظلت حتى اليوم.

لقد خلق الفرنسيون فى الشرق الأوسط حدود ما يعرف الآن بلبنان الحديث، كما وضع البريطانيون الحدود للكويت والعراق، وقسموا فلسطين وشرق الأردن (الأردن فيما بعد). وأصبح أخوان هاشميان من شبه الجزيرة العربية: هما عبد الله وفيصل ملكين على الأردن وسوريا. ثم فيصل ملكا على العراق فيما بعد. وقد ضم الأردن فى عام ١٩٥٠ الضفة الغربية بصفة رسمية، وضاعف عدد سكانه ثلاث مرات، وخلق وضعا تحكم فيه حكومة الأقلية الأردنية أغلبية من السكان الفلسطينيين، يتفوقون على الأردنيين بنسبة ٢ إلى ١.

ثم خلع بعض الملوك فى الخمسينيات والستينيات، وحل محلهم حكام عسكريون أو مجالس عسكرية فى مصر وسوريا وليبيا والعراق. وعلى ذلك، تميز الشرق الأوسط بانعدام الاستقرار السياسى طوال القرن الماضى على الأقل. ومازالت دول إسلامية عديدة تحكمها

ملكيات ودكتاتوريات أو كانت عسكرية فيما سبق.

إن الحدود الاعتباطية والحكام الذين لا يمثلون شعوبهم أنتجوا دولاً من الشعوب الضعيفة، مع حكومات غير ديمقراطية شجعت على ثقافة الاستبداد. وخضعت للدولة - أو غابت - المنظمات غير الحكومية؛ وهي مفتاح الدعم للديمقراطية (مثل الأحزاب السياسية، والاتحادات التجارية، والخدمات التعليمية والاجتماعية، والنقابات المهنية، ومنظمات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام). كما عانت دول كثيرة من الفشل الاقتصادي والفساد السياسي. ويجادل كثير من النقاد بأن أوربا وأمريكا أغمضت عيونها عن مثل هذه الأحوال، تدعيماً للحكام المستبدين في العالم الإسلامي والأماكن الأخرى لكسب ولائهم أثناء الحرب الباردة، وفي الشرق الأوسط لضمان الحصول على النفط.

إن إيران مَثَل على التأثيرات المعقدة للاستعمار الأوربي. وإذا كانت إيران لم تتعرض أبدا للاستعمار بصورة رسمية، فقد تنافست روسيا وبريطانيا كلتاهما على التأثير في تلك الدولة. وضع البريطانيون والسوفييت شاباً صغيراً جداً هو محمد رضا بهلوي على العرش، كي يحل محل والده، ويصبح الشاه. وفي عام ١٩٥١ قام البرلمان الإيراني ورئيس الوزراء المحبوب والمنتخب ديمقراطيا محمد مصدق بتأميم صناعة النفط الإيراني. ونجحت وكالات الاستخبارات البريطانية والأمريكية في خلع مصدق من السلطة في انقلاب عسكري عام ١٩٥٣، وتحولت البلاد إلى الاستبداد تحت حكم الشاه. إن انعكاسات الانقلاب وإسهامه في الاتجاه المعادي لأمريكا أمكن الإحساس به أثناء الثورة الإسلامية الإيرانية في عام ١٩٧٩، واحتلال السفارة الأمريكية.

نظرت إيران - مثل أغلب الحكومات المسلمة - إلى الغرب لخبرته ونماذجه في التطور. وعلى ذلك تبنى الخبراء الغربيون والنخبة المسلمة الساعية إلى التحديث النموذج الغربي السائد؛ «ينبغي أن تصبح الأمور أقرب إلى الغرب أو العلمانية في كل يوم وبكل طريقة». وأدت هذه المعادلة إلى تبني أساليب الحياة الغربية، والمؤسسات الغربية العلمانية السياسية والاقتصادية والتعليمية. وليست الحداثة هي نقل التكنية ببساطة. وإنما هي أن تتغرب؛ أن تلبس الملابس الحديثة (أي الغربية)، وأن تتحدث لغة حديثة (غربية)، وأن تذهب إلى مدرسة أو جامعة علمانية، فيها منهج دراسي حديث (قائم على المنهج الغربي)، وأن تبني مدننا وضواحي حديثة؛ يخططها في الغالب مهندسون معماريون غربيون. إن افتراضات نظرية التحديث يطويها عنوان كتاب «دانيل ليرنر» (Daniel Lerner): ذهاب المجتمع التقليدي (The Passing of Traditional Society) واعتقد الكثيرون أن على المسلمين أن يختاروا «مكة أو الميكنة» (mechanization).

في استفتاء أجرته الجامعة الأمريكية في عام ٢٠٠٦ قال طالب مسلم من كينيا عمره واحد وعشرون عاماً: «مازال أعظم تغيير في مجتمعي هو التغريب على نطاق واسع...؛ أمركة المجتمع. وهو أشد تأثيراً على الشباب، بدءاً من طريقة تفكيرهم حتى طريقة زيهم وتصرفهم». واستمر يصف التغيرات بين جيله وجيل آبائه:

«أصبح من الأندر الآن أن تجد شخصاً يجيد لغته الخاصة كما يجيد اللغة الإنجليزية. وتتعرض القيم الاجتماعية للضياع، إذ يسارع الناس إلى ما يرونه أفضل، حيث تتزايد اللا اخلاقية وإدمان الخمر وأمثال هذه الرذائل. وأصبح من أصعب الأمور أن تجد إنساناً يحسن دينه في مجتمع أخرج ذات مرة علماء عظماء... تغريب تدريجي، ولكنه أكيد لأناس؛ بعيداً عما ينتمي حقاً إليهم».

لقد أدهشت الثورة الإيرانية الخبراء وصدمت العالم الغربي في عام١٩٧٩. من يستطيع تفسير سقوط الشاه؛ القوي الذي يرتدي الملابس الغربية، ويتحدث اللغة الإنجليزية، وهو أبو الثورة البيضاء لتحديث إيران؟ كانت في إيران حملة طموحة للتحديث، موفورة التمويل، ونخبة تعلمت تعليماً حديثاً، وجيش قوي، وعلاقات متينة مع أمريكا وأوربا، وقوة رئيسة في إنتاج النفط. أما خصوم الشاه، الذين خلوا من الأسلحة المهمة، فقد اعتمدوا على الخطاب الديني وشبكة من المساجد للتنظيم والتحريك، وكان يتزعمهم رجل عجوز ملتح هو آية الله الذي يعيش في المنفى في إحدى ضواحي باريس. وقد حققوا مع ذلك نصراً في ثورة إسلامية بغير دماء نسبياً.

من الأمور التي تكاد تخفى، أن وجود الإسلام في السياسة قد أعيد تأكيده بصورة حادة في ليبيا والسودان، وامتداداً إلى باكستان والملايو. إن فشل الحكومات المتعدد في النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية قد أدى إلى نفور شائع من اعتمادها المفرط على الغرب. وقد كان هذا التسمم بالغرب متهماً مسئولاً عن سلب المسلمين من مصدر هويتهم وقيمهم، ومن وحدتهم وقوتهم بناء على ذلك. ونادت الحركات الإسلامية كما نادى الزعماء المسلمون - وكثيرون منهم تعلموا تعليماً حديثاً - نادوا بالعودة إلى صراط الإسلام المستقيم؛ وهو البديل من الرأسمالية الغربية، والماركسية والاشتراكية السوفيتية.

قررت «ليس ماركوس» (Lies Marcoes) التي عملت مع المنظمات الإسلامية للمؤسسة الآسيوية في جاكارتا حسب ما كتبته في مقالة في صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» (Christian Science Monitor)، حيث ذكرت تحولاً واضحاً بين الإندونيسيين نحو الإسلام كاستجابة لفشل حكومتهم. «يرى كثيرون من الناس فشل الحكومة في تطهير نفسها والقضاء على الرذيلة ومساعدة الفقراء ولذلك سوف يتحول البعض إلى الشريعة باعتبارها الحل». كما قالت.

«على أحمد» الذي يبلغ عمره ٢٦ عاما وهو يعمل مدرسا في مدرسة الكمال في جاكارتا، أخبر «كريستيان ساينس مونيتور» أنه صوت للعلمانية المتعصبة ميجاواتي سوكارنو بوتري في انتخابات عام ١٩٩٩؛ لأنه تصور أنها سوف تنهي الفساد الحكومي الشائن والحكومة المحتقرة. لكن أحمد قال على كل حال إنه أصبح خائب الأمل للغاية في حكومة إندونيسيا العلمانية:



إذا كانت الشريعة تُصور بصورة عامة على أنها نظام قانوني جامد قمعي فإن النساء المسلمات لهن نظرة أدق للشريعة؛ إذ يرونها متفقة مع تطلعاتهن إلى اكتساب القوة

«إن هذه الحكومة فاشلة تماما، فهم لم يتبنوا الإصلاح، أو يحموا حقوقنا. القمار والبغاء في كل مكان. إني خائب الأمل جدا». قال أحمد إنه ينوي أن يصوت إلى جانب حزب العدالة المزدهر، الذي يفضل الشريعة الإسلامية الصارمة لإندونيسيا على التنظيمات العلمانية في البلاد في الانتخاب عام ٢٠٠٤. وقال: «إن الشريعة الإسلامية سوف تمحو الفساد. ويبدو أنها الحل الوحيد لمشكلاتنا».

قال طالب من كينيا عمره ٢١ عاما في تركيا:

«لقد نجح الإسلام، وهزم مصاعب عظيمة، وأثبت مرة بعد مرة أننا سمعنا الحق عندما قالوا إن الدين هو الإسلام. لقد هيأ الأساس في كل إنجاز بشري عظيم، والحل لكل مشكلة إنسانية لا حل لها. لكننا فقدنا هذا كله في وقت معين. إن الشيء الثمين مثل الذهب إذا أنت لم تضعه أبدا في النار، وسخنته، فلن يكتسب أبدا ذلك اللمعان الذي يجعله ذهبا. وكذلك الإسلام؛ شيء طيب ولذلك ينبغي أن يدخل النار، إذا كان له أن يكتشف روحه».

جادل الكثيرون بأن الإخلاص لرسالة الله وبعثته قد أنشأ امبراطوريات وحضارات هائلة؛ بدءاً بالمجتمع الإسلامي في القرن السابع الذي امتد على مدى أكثر بلاد العالم حتى فجر الاستعمار الأوروبي في القرن الثامن عشر. وقد استخدمت الدول النفطية الغنية الإسلام وثروتها النفطية لنشر نفوذها العالمي. إن المخاوف من «الأصولية الإسلامية الراديكالية»؛ كما تبدو في تصدير إيران للإسلام الثوري، والجماعات المتطرفة مثل جماعة الجهاد الإسلامي في مصر، والذين اغتالوا رئيس مصر أنور السادات، ونهوض الجهاد الإسلامي الفلسطيني؛ كل أولئك سيطر على الثمانينيات. لكن الذي فات المراقبين هو «الثورة الهادئة»؛ أي وجود تيار رئيس من الحركات الإسلامية الاجتماعية والسياسية غير العنيفة، التي سعت إلى القوة والإصلاح من خلال صناديق الاقتراع لا طلقات الرصاص.

في أواخر الثمانينيات والتسعينيات وسط ضغط هائل من الاحتجاجات العامة على الاقتصاديات الفاشلة، عقدت الحكومات

المسلمة انتخابات محدودة تحت سيطرة الدولة. وذهب الناخبون إلى الاقتراع، ولأول مرة فى بعض البلاد، وأدهشوا كل إنسان عندما خرج المرشحون الإسلاميون والأحزاب الإسلامية فى مقدمة المعارضين. أثبت الإسلاميون أنهم لاعبون سياسيون ناجحون، وانتخبوا رؤساء ورؤساء وزراء ومحامين وبرلمانيين ووزراء، ورؤساء للمجالس القومية فى بلاد متنوعة: مثل مصر ومراكش وتركيا وباكستان والكويت والبحرين والعربية السعودية والعراق وأفغانستان والملايو وإندونيسيا.

لقد هزمت الأحزاب الدينية فى العالم العربى معارضيها العلمانيين هزيمة قاطعة فى غضون السنوات العديدة الأخيرة، حيث أثبت المرشحون الإسلاميون نجاحهم فى الاقتراع. وفى الانتخابات العامة فى العراق عند أواخر عام ٢٠٠٥، كسب التحالف الشيعى ١٢٨ مقعداً من ٢٧٥ مقعداً. وفى أول انتخابات فى الأراضى الفلسطينية على مدى عشر سنين هزمت حماس بصورة بالغة الحزب العلمانى الحاكم وهو «فتح». وكسبت جماعة الإخوان المسلمين المحظورة فى مصر نسبة غير مسبوقة: هى خمس مقاعد البرلمان. كما كسب حزب التنمية والعدالة فى تركيا نصراً كاسحاً فى الانتخابات البرلمانية فى نوفمبر عام ٢٠٠٢، وهو أمر نادر فى الجمهورية العلمانية. وكسب حزب التنمية والعدالة أغلبية من ٣٦٣ مقعدا، كانت أقل بنسبة أربعة مقاعد من الأغلبية المطلوبة لإعادة كتابة الدستور الذى أصدره الزعماء العلمانيون من قواد الجيش بعد الانقلاب العسكرى فى عام ١٩٨٠. كما تقدم الإسلاميون بصورة قوية فى العربية السعودية فى انتخابات ٢٠٠٥، حيث كسب الإسلاميون المعتدلون جميع المقاعد فى المجالس البلدية فى مدينتى مكة والمدينة.

تغير الموقف فى الفترة الأخيرة على كل حال. إن الحكام بعد الحادى عشر من سبتمبر فى بلاد تمتد من مصر إلى أوزبكستان يستخدمون التهديد من القاعدة والإرهاب الدولى، ويصفون كل معارضة بالتطرف من أجل التحكم فى الانتخابات وتبرير حكوماتهم الاستبدادية. وعلى سبيل المثال: فقد وعد الرئيس المصرى حسنى مبارك بإلغاء قوانين الطوارئ سيئة السمعة، عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه فى أول انتخابات تتعرض فيه الرئاسة للتحدى أول مرة فى انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٥، ولكنه رجع عن وعده: نظرا للمسائل «الأمنية». قال الرئيس مبارك إن على المصريين أن يتذكروا أنهم يعيشون فى منطقة ملتهبة. «علينا أن نقدر تعرض مصر بين حين وآخر للاستهداف». وتسمح قوانين الطوارئ التى ظلت قائمة منذ جاء الرئيس مبارك إلى السلطة فى عام ١٩٨١ بالاعتقالات والاحتجازات.

هل الإسلام هو المشكلة؟

الصور المتنافسة فى الغرب والعالم الإسلامى؟

إن فشل الحكومات واختطاف الحكام والإرهابيين للإسلام، وكذلك الاغتيالات، والهجمات الانتحارية، وإيذاء النساء والأقليات قد استوفى ضريبته على المجتمعات الإسلامية، وصورة الإسلام فى الغرب.

أظهر استفتاء أجرته صحيفة «واشنطن بوست» بالاشتراك مع قناة التليفزيون «إيه بى سى» (A.B.C) فى عام ٢٠٠٦ أن نصف الأمريكيين تقريباً ٤٦٪ لديهم فكرة سلبية عن الإسلام، بنسبة تزيد ٧٪ عن النسبة الملحوظة بعد بضعة أشهر من الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. وتبعاً للاستفتاء، فإن نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون أن الإسلام يشجع العنف ضد غير المسلمين قد زادت على ضعف النسبة منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر: فارتفعت من ١٤٪ فى يناير عام ٢٠٠٢ إلى ٣٣٪. وأظهر استفتاء مركز «پيو» (PEW) للاستفتاءات بالمثل أن ثلث الأمريكيين تقريباً (٣٦٪) يقولون إن الإسلام أدعى إلى تشجيع العنف بين أتباعه من الأديان الأخرى.



الحكام بعد الحادى عشر من سبتمبر يصفون كل معارضة بالتطرف من أجل التحكم فى الانتخابات وتبرير حكوماتهم الاستبدادية

ترى أغلبية المسلمين الإسلام بأعين مختلفة على النقيض: باعتباره ديناً معتدلاً مسالماً، مركزياً فى فهم أنفسهم ونجاحهم. وما زالت أعداد غالبة من المسلمين - كما رأينا فى الفصل الأخير - تميز الدين بوصفه مؤشراً أولياً على هويتها، ومصدراً لهدايتها وقوتها وعاملاً حاسماً فى تقدمها.

إن أغلب أولئك المشاركين فى استفتاءات «جالوب» من البلاد التى تكون غالبية سكانها مسلمين (٩٨٪ فى مصر، و٩٦٪ فى إندونيسيا و٨٦٪ فى تركيا) يقولون إن الدين عنصر مهم فى حياتهم اليومية، فيما عدا كازاخستان. هذا يقابل نسبة ٦٨٪ من المشاركين فى الولايات المتحدة، ونسبة ٢٨٪ فقط من المشاركين فى المملكة المتحدة، حيث يكون الدين لديهم عنصراً مهماً فى حياتهم اليومية.

لكن الديمقراطية مع ذلك من أكثر الاستجابات المقدمة بوصفها مفتاحاً لمجتمع أكثر عدالة، وللتقدم. ولما سئل المشاركون - نتيجة لذلك - أن يعلقوا على جوانب الحياة المهمة عندهم، فقد ذكرت أعداد كثيرة منهم حياة دينية روحية ثرية، وحكومة منتخبة بطريقة ديمقراطية: على أنها مهمة جداً على الأقل.

كيف ينظر ١,٣ مليار مسلم إلى الديمقراطية؟

إن الإجابات على أسئلتنا تكشف واقعاً معقداً مدهشاً: إذ هى تعكس قطاعاً متنوعاً من البلاد الإسلامية والطبقات الاجتماعية والفوارق بين الجنسين. والأغلبية الكبرى تقريباً فى جميع الأمم التى جرى فيها مسح الاستفتاء (٩٥٪ فى بوركينا فاسو، ٩٤٪ فى مصر، ٩٣٪ فى إيران، ٩٠٪ فى إندونيسيا) تقول إنها لو كانت تصدر دستوراً لدولة جديدة فإنها تضمن حرية التعبير: وتعريفها «السماح لجميع المواطنين بالتعبير عن آرائهم فى الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية الراهنة».

على الرغم من أن أولئك المشاركين فى الاستفتاء يعترفون ويعجبون بجوانب عديدة فى الديمقراطية الغربية، إلا أنهم لا يحبذون تبنى النماذج الديمقراطية الغربية بالجملة. يبدو أن كثيرين يريدون نموذجهم الديمقراطى الخاص: الذى يشمل الشريعة، لا واحدا يعتمد على القيم الغربية ببساطة. والواقع أن قليلين من المشاركين يربطون بين «تبنى القيم الغربية» وبين التقدم السياسى والاقتصادى للمسلمين. إن التجاوزات السيئة باسم الشريعة لم تنته إلى رفضها بالجملة.

تؤكد بياناتنا على أولئك المشاركين فى بلاد أغلبها من المسلمين إذ يقدمون نموذجا جديدا للحكومة: يكون ديمقراطياً، ويحتضن القيم الدينية، وهو يساعد فى تفسير السبب فى رغبة الأغلبية فى أكثر البلاد فى الشريعة بوصفها مصدراً للتشريع: فيما عدا حفنة من الأمم (٤٠).

■ قالت الأغلبية فعلا فى بضعة بلاد فقط إن الشريعة لا يجب أن يكون لها دور فى المجتمع: ومع ذلك فالأقلية فقط فى أغلب البلاد تريد الشريعة باعتبارها «المصدر الوحيد» للقانون. وتريد الأغلبية فى الأردن ومصر وباكستان وأفغانستان وبنجلاديش أن تكون الشريعة «المصدر الوحيد» للتشريع.

■ أدعى الأمور إلى الدهشة غياب الفوارق المنظمة فى دول عديدة بين الذكور والإناث فى دعمهم الشريعة بوصفها المصدر الوحيد للتشريع. ففى الأردن مثلا يريد ٥٤٪ من الرجال، و٥٥٪ من النساء أن تكون الشريعة مصدرا وحيدا للتشريع: وفى مصر تبلغ النسبة ٧٠٪ من الرجال و ٦٢٪ من النساء: وفى إيران ١٢٪ من الرجال و١٤٪ من النساء: وفى إندونيسيا ١٤٪ من الرجال و١٤٪ من النساء.

من دواعى العجب أننا لا نحتاج إلى التطلع بعيداً عن بلادنا حتى نجد عدداً كبيراً من الناس الذين يريدون الدين مصدراً للقانون. فإن استفتاء «جالوب» فى عام ٢٠٠٦ فى الولايات المتحدة يدل على أن أغلبية الأمريكيين تريد الإنجيل مصدراً للتشريع.

■ ٤٦٪ من الأمريكيين يقولون إن الإنجيل يجب أن يكون «أحد» المصادر، و٩٪ يعتقدون أنه يجب أن يكون المصدر «الوحيد» للتشريع.

■ ربما كان الأدعى إلى مزيد من الدهشة أن ٤٢٪ من الأمريكيين يريدون

من الزعماء الدينيين أن يكون لهم دور مباشر فى صياغة الدستور، بينما يريد ٥٥٪ ألا يلعبوا أى دور على الإطلاق. هذه الأرقام توشك أن تكون متماثلة مع تلك الأرقام فى إيران.

هل يجب أن يؤدى دعم الأغلبية للشريعة إلى هلع الغرب؟

مازالت الشريعة قرينة الرجم للزُناة، وقطع الأيدى للسرقة، والسجن أو الموت لحالات الردة والزندقة، والقيود على حقوق النساء والأقليات. وقد ظهر مدى التصورات المختلفة عن الشريعة فى العراق، عندما دعا زعماء الشيعة مثل الزعيم الشيعى الكبير آية الله على السيستانى إلى ديمقراطية إسلامية تشمل الشريعة باعتبارها أساس القانون فى الدستور الجديد للعراق.

قال «يونا دام كانّا»، العضو العراقى المسيحى فى لجنة صياغة الدستور العراقى فى صيف عام ٢٠٠٥: إن عواقب جعل الشريعة من المصادر الرئيسة للقانون ستكون خطيرة. «وستكون كارثة بالنسبة للنساء». ومع ذلك، تظاهرت أكثر من ألف سيدة عراقية دعماً للشريعة فى مدينة البصرة الجنوبية فى أغسطس عام ٢٠٠٥، وذلك استجابة لمظاهرة أخرى معارضة للشريعة فى بغداد منذ أسبوع سابق.

قال «ل.بول بريمر» (Paul .L Bremer) وكان عندئذ حاكما للعراق، وهو يتخذ موقفا من الخلاف الذى يتعلق بدور الشريعة فى الدستور الجديد للعراق، فيما يتصل بالدستور المؤقت فى عام ٢٠٠٤: «موقفنا واضح. لا يمكن أن يصبح قانونا حتى أوقع عليه». أما «دونالد رامسفيلد» (Donald Rumsfeld) الذى كان عندئذ وزيرا للدفاع، فقد حذر فى عام ٢٠٠٣ أن الولايات المتحدة لن تسمح للعراق أن يصبح دولة ثيوقراطية مثل إيران، وخلط بين فكرة إدخال الشريعة فى الدستور الجديد للعراق وبين خلق دولة ثيوقراطية، أو حكم رجال الدين.

على الرغم من أن الشريعة فى أماكن عديدة أصبحت توحى إلى الخاطر بالحكم الدينى، فإن الاستجابات لاستفتاء «جالوب» تدل على أن الرغبة فى الشريعة لا تُترجم تلقائياً إلى الرغبة فى الثيوقراطية. إن أغلبية كبيرة فى بلاد عديدة تقول إن الزعماء الدينيين لا ينبغى أن يلعبوا دوراً مباشراً فى صياغة دستور البلاد، أوصياغة تشريع قومى، أو كتابة قوانين جديدة، أو تحديد السياسة الخارجية والعلاقات الدولية، أو تحديد زى النساء فى الأماكن العامة، أو ما يذاع على قنوات التليفزيون أو يُنشر فى الصحف. بينما يختار آخرون دوراً مباشراً يميل إلى خدمة الزعماء الدينيين فى نطاق المشورة لموظفى الحكومة.

توحى الشريعة فى الغرب بصورة التقييد الاجتماعى: حيث تتعرض النساء للقمع والحرمان من الحقوق الإنسانية. والواقع أن النساء عانين من تعاليم الشريعة التى تفرضها الحكومة فى بلاد مثل باكستان والسودان وأفغانستان، والطالبان، والعربية السعودية وإيران. وعلى كل حال، فإن أولئك الراغبين فى الشريعة غالباً ما يتهمون هذه التعاليم بأنها تفسيرات غير إسلامية. وتدلنا بيانات استفتاء «جالوب» على أن أغلب المشاركين يريدون الاستقلال والحقوق المتساوية للنساء، ويعتقد أغلب المشاركين فى أغلب البلاد التى جرى فيها الاستفتاء أن النساء يجب أن يكون لهن:

■ الحقوق القانونية نفسها مثل الرجال (٨٥٪ فى إيران؛ ٩٠٪ فى إندونيسيا، وبنجلاديش وتركيا ولبنان؛ ٧٧٪ فى باكستان؛ ٦١٪ فى العربية السعودية). ومن المدهش أن تكون النسبة ٥٧٪ فى مصر؛ ٥٧٪ فى الأردن، وهما يعتبران بصفة عامة أكثر تحررا، فهما يأتيان بعد إيران وإندونيسيا والبلاد الأخرى.

■ حق التصويت: ٨٠٪ فى إندونيسيا؛ ٨٩٪ فى إيران؛ ٦٧٪ فى باكستان؛ ٩٠٪ فى بنجلاديش؛ ٩٣٪ فى تركيا؛ ٥٦٪ فى العربية السعودية؛ ٧٦٪ فى الأردن يقولون يجب أن تستطيع النساء التصويت من دون أى تأثير أو تدخل من أعضاء العائلة.

■ حق تولى أية وظيفة يتأهلن لها خارج البيت. كانت أعلى نسبة (٩٠٪) فى الملايو وموريتانيا ولبنان. كانت النسبة فى مصر (٨٥٪)؛ وتركيا (٨٦٪) والمغرب (٨٢٪)؛ أى أن النسبة كانت فى مدى الثمانينيات. جاءت بعدها إيران (٧٩٪)؛ وبنجلاديش (٧٥٪)؛ العربية السعودية (٦٩٪)؛ باكستان (٦٢٪)؛ الأردن (٦١٪).

■ حق تولى الوظائف القيادية على مستويات الوزارة والمجالس القومية. بينما تؤيد الأغلبية فى البلاد التى تم فيها الاستفتاء هذا المبدأ، فإن بلاد الاستثناء هى العربية السعودية (٤٠٪) ومصر (٥٠٪).

بينما تُصور الشريعة بصفة خاصة على أنها نظام قانونى جامد قمعى، فإن النساء المسلمات يتجهن إلى نظرة أدق للشريعة، ويعتبرن أنها متفقة مع تطلعاتهن إلى اكتساب القوة. إن «جنان العُبيدى»؛ وهى واحدة من تسعين سيدة فى المؤتمر القومى العراقى فى أوائل عام ٢٠٠٥، أخبرت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» أنها تدعم تطبيق الشريعة. لكنها قالت على كل حال إنها بوصفها عضوة فى المؤتمر سوف تكافح فى سبيل حقوق النساء من أجل الرواتب المتساوية، وإجازة الأمومة مدفوعة الأجر، وتخفيض ساعات العمل للحوامل. وقالت إنها خططت لتشجيع النساء على ارتداء الحجاب والتركيز على دعم عائلاتهن. وعند «جنان العبيدى»، أن اكتساب النساء للقوة يتفق مع القيم الإسلامية.

عندما يُعبر الرجال والنساء عن رغبة فى الشريعة؛ فماذا يقصدون؟

إن فكرة خاطئة شائعة عن الشريعة ومعناها تفسر جمود المجاهدين



يجادل المسلمون الإصلاحيون اليوم بأن الفقه الإسلامى يجب أن يراجع على ضوء الأحوال الاجتماعية المتغيرة

المتدينين، بالإضافة إلى مخاوف الكثيرين من غير المسلمين. وقد خلط المسلمون وغير المسلمين عبر التاريخ بين تعبيرات الشريعة والقانون الإسلامى على سبيل التبادل. ولما كان القرآن ليس كتاب قانون، فقد استخدم القضاة الوحى والعقل كذلك لإنشاء عدد من القوانين تحكم مجتمعاتهم، وأصبحت هذه القوانين الإنسانية مع مرور الزمن أموراً مقدسة لا يمكن تغييرها.

إن المسلمين الذين يريدون الشريعة مصدراً للقانون فى الدساتير لهم من أجل ذلك رؤى مختلفة جداً عن كيفية مظهر ذلك. وإذا كان تعريف الشريعة يشير إلى المبادئ فى القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن البعض يتوقعون التطبيق الكامل للقانون الإسلامى الكلاسيكى أو القانون فى العصور الوسطى، بينما يريد آخرون موقفا أشد تقييدا، مثل منع الخمر، واشتراط الإسلام فى رئيس الدولة، أو إنشاء محاكم للشريعة للقضاء فى الحالات المتعلقة بقانون العائلة المسلمة (الزواج والطلاق والميراث).

يريد آخرون مع ذلك أن يضمنوا ألاّ يتعارض أى قانون دستورى مع المبادئ والقيم الإسلامية كما توجد فى القرآن.

من أجل توضيح الفارق بين الشريعة «والقانون الإسلامى»: تصور الشريعة كأنها بوصلة (وحى الله، المبادئ الخالدة التى لا يمكن أن تتغير)، وتصور القانون الإسلامى (الفقه) كأنه خارطة. ويجب أن تتوافق هذه الخارطة مع البوصلة، ولكنها تعكس أوقاتا وأماكن وجغرافيا مختلفة. والبوصلة ثابتة، أما الخارطة فهى تتعرض للتغيير.

يزعم كثيرون من المصلحين أن التحدى اليوم هو التمييز بين ما يأتى مباشرة من القرآن (شعائر الصلاة والصيام والحج)، وهو ملزم بصورة عالمية، وبين التفسيرات الدراسية للوحى (التعليمات المعينة المتعلقة بالزواج أو الطلاق وهلم جرا)، وهى تتغير فى نطاق مفاهيم اجتماعية معينة.

يجادل المسلمون الإصلاحيون اليوم بأن الفقه الإسلامى يجب أن يراجع على ضوء الأحوال الاجتماعية المتغيرة. إن جمعية الأخوات المسلمات مثلا - وهى تدافع عن حقوق النساء فى الملايو - تفاوضت مع الحكومة الملاوية لفرض قيود على تعدد الزوجات. واستشهدت بالأيات القرآنية والأحاديث النبوية للنص على شروط تعدد الزوجات فى عقود الزواج. فإذا قرر الزوج الزواج بامرأة ثانية، فسيكون ملزما بحكم القانون

بتطليق زوجته الأولى، وإعطائها مؤخر الزواج والنفقة.

عندما اتهم بعض المُفتين الجمعية بالخروج على الفقه الإسلامى، ردت الجمعية بآيات من القرآن والأحاديث النبوية التى تجعل الزواج بزوجة واحدة هو الأمر الطبيعى. وذكرت أن حفيدة النبى (عليه السلام) السيدة سكينة بنت الحسين نفسها قد وضعت شروطا مختلفة فى عقد زواجها، ومنها ألاَّ يستطيع زوجها الزواج بامرأة أخرى إذا أراد أن يظل زوجها. نشرت الجمعية فى تصريح صحفى:

«من الواضح إذاً أن منح الزوجة خيار الحصول على الطلاق من خلال عقد الزواج لا يعارض تعاليم الإسلام. وليس تفسيراً جديداً نشأ فى هذه الأزمنة الحديثة فقط. وإنما هو على النقيض مدعوم بالممارسات التقليدية منذ الأيام الباكرة للإسلام».

يقدم هذا المثل لمحة عن المدى الواسع المتنوع للتفسيرات التى تميز الفقه الإسلامى. وعلى ذلك، عندما يقول المسلمون إنهم يدعمون تطبيق الشريعة فإن معنى هذا يمكن أن يتغير تغيّراً هائلاً من إنسان إلى آخر.

إن موضوع الدين والتغير ليس خاصاً بالإسلام؛ فالناس يواجهونه فى كل الأديان. ولا تحتوى النصوص المقدسة أو الصياغات الكلاسيكية للفقه حلولاً معينة لكثير من المشكلات الحديثة. هل يكون الاستنساخ والتلقيح فى الأنابيب من الأمور المقبولة إسلامياً؟ هل يمكن للمرأة أن تكون رئيسة جمهورية فى دولة حديثة؟ كيف يمكن أن تتناول البنوك وبيوت التمويل الفائدة والقروض؟ ما هى الرخص المتاحة للمسلمين الذين يعيشون باعتبارهم أقليات؟ هل تكون الهجمات الاستباقية مبررة على الإطلاق؟

إذ لا يكون فى القرآن نص واضح، ولا توجد سلطة دينية مركزية فإن فتاوى المفتين يمكن أن تختلف اختلافاً بيناً، وذلك اعتماداً على مدى تفكيرهم المحافظ أو المُجدد، ومدى تأثرهم بالسياسة أو تخليهم عنها أفراداً. وتعتمد الفتاوى فى النهاية على من يكون مُفتيك، كما تعتمد النصيحة التى تتلقاها من قسيسك أو الربانى الذى تلجأ إليه على هويته أو هويتها. والفتوى - على كل حال - رأى فقهى غير مُلزم. ويختار المسلمون أية فتوى يطبقونها أو لا يطبقونها فى حياتهم. ويشارك المسلمون فى هذا المجال فى سوق حرة من الفكر الدينى؛ وهى مرونة لعلها تفسر الصمود والتنوع للإسلام عبر الجغرافيا والزمان.

ما هو الفكر الإسلامى الديمقراطى؟

هناك مدارس فكرية مختلفة بين المسلمين، فيما يتعلق بالديمقراطية والإسلام. هناك فكرة للأقلية فى المراجع الإسلامية؛ وهى أن الديمقراطية مفهوم أجنبى. والذين يؤمنون بهذه النظرة - ويشملون المتطرفين والمسلمين فى التيار الرئيس - يريدون استعادة الإمبراطورية الإسلامية؛ لأنهم يقولون إن السيادة الشعبية وثنية؛ تنكر السيادة العليا لله.

إن نتائج استفتاء «جالوب» بين المشاركين تبين على كل حال سعة الانتشار لدعم الحريات الديمقراطية وحقوق النساء فى العالم الإسلامى. وهناك عدد من المبادئ فى التقاليد الإسلامية تدعم هذه الحريات.

يجادل المفكر السودانى والدبلوماسى السابق عبد الوهاب الأفندى بأن تأكيد الإسلام للوحدانية



إن موضوع الدين والتغير ليس خاصاً بالإسلام؛ فالناس يواجهونه فى كل الأديان

وحكم الله المطلق يتطلب نظاماً ديمقراطياً: «إن سيادة رجل واحد تتعارض مع سيادة الله، لأن الناس جميعاً متساوون أمام الله... والطاعة العمياء لحكم إنسان واحد تناقض الإسلام، وتشمل الوحدانية فى الإسلام الإيمان بأن الحياة لايمكن أن تتجزأ؛ فلا يمكن أن ينفصل الدين عن جوانب الحياة جميعا، كما يحدث فى استبعاد الدين من دائرة الحياة العامة».

إن رئيس إيران السابق محمد خاتمى، وهو من دعاة الديمقراطية الإسلامية، ذكر فى مقابلة تليفزيونية فى يونيو عام ٢٠٠١: «إن الديمقراطيات العالمية تعانى اليوم من فراغ رئيس، وهو فراغ الروحانية»؛ وأن الإسلام يمكن أن يقدم الإطار الذى يجمع الديمقراطية والروحانية والحكومة الدينية.

يعيد المسلمون - مثل اليهود والمسيحيين - تفسير تقاليدهم من أجل دعم الصور الحديثة للديمقراطية، ويمكن أن تختلف إلى حد كبير. إن صور الديقراطية الغربية تشمل التمثيل الرئاسى والبرلمانى والنسبى، والانتخابات المباشرة وغير المباشرة للرؤساء، وصور الحكومة التوافقية أو المتعارضة. وعلى الرغم من إصرار الولايات المتحدة على الفصل بين الدولة والكنيسة؛ فإن ديمقراطيات أوروبية عديدة لها دين للدولة، أو تقدم تمويلاً أو دعماً من الدولة للمؤسسات الدينية المعترف بها رسميا؛ مثل بريطانيا العظمى وألمانيا والنرويج.

وعلى الرغم من الفصل الصارم فى فرنسا بين الدولة والكنيسة، وهو قائم على أساس قانون عام ١٩٠٥ فى الفصل، فإن الحكومة تقدم تمويلاً للكنائس والمعابد والكنيس، التى بُنيت قبل عام ١٩٠٥، باسم المحافظة على الثقافة.

وعلى الرغم من أن هذه المبانى تُعتبر ملكا للدولة، وتتم صيانتها بواسطة الحكومات القومية والمحلية، فإن فى استطاعة رجال الدين استخدامها دون مقابل.

وقد قدمت الحكومة الفرنسية - فضلا عن ذلك - منذ عام ١٩٥٩ إعانات مباشرة إلى المدارس الخاصة. وكثير منها كاثوليكية - وغالبا ما تدفع رواتب المدرسين فى تلك المدارس.

إن مفهوم الاجتهاد فى الإسلام أساسى فى عملية التكيف للظروف الجديدة، وهو ممارسة الحكم الفقهى العالم المستقل. وكما قال خورشيد أحمد وهو زعيم إسلامى بارز فى بريطانيا ومن رجال البرلمان الباكستانيين:

«إن الله أوحى بالمبادئ العامة فقط... ويحاول الناس من خلال الاجتهاد فى كل عصر أن يحاولوا تنفيذ وتطبيق التوجيه الإلهى على مشكلات أزمانهم».

من المفاهيم الإسلامية الأخرى فى الصور الإسلامية المشروعة فكرة الشورى بين الشعب والحكومة فى اختيار أوانتخاب الحكام. هذه الفكرة بالإضافة إلى الإجماع من المجتمع؛ وهو من مصادر الفقه الإسلامى تستخدمان الآن لدعم البرلمانات والمجالس القومية النيابية باعتبارهما سبيلا يعكس الرأى الجماعى فى المجتمع.

بينما تستمر المجادلات العنيفة حول الديمقراطية، فإن التغيير يحدث فى الواقع. وتستجيب الحكومات - مهما كانت الاستجابة متعثرة بطيئة - للضغوط من أجل المزيد من المشاركة السياسية، والانتخابات مع درجات متفاوتة من الانفتاح والحرية والشفافية.

إذا كانت الديمقراطية هدفاً مرغوباً لدى الكثيرين من المسلمين وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة؛ فهل يعتقد المسلمون أن للغرب أى دور يلعبه؟

نحتاج للإجابة عن هذا السؤال أن نبحث بعض الحقائق الواقعية. هناك عدد من التحديات فى الخطة المطلوبة لكسب عقول المسلمين وقلوبهم؛ فإن «الإرجاع» (Feedback) للإجابات عن الأسئلة المتعددة فى استفتاء «جالوب» يعكس انتقادات وشكوكاً فى السياسة الخارجية والتصرفات للولايات المتحدة.

وعلى الرغم من الانتشار الواسع للرغبة فى الديمقراطية، التى يعتبرها كثيرون من المسلمين ضرورة لتقدمهم، فيما عدا عشرة بلاد فى الاستفتاء، فإن الأغلبية لا توافق على مبدأ «أن الولايات المتحدة جادة فى التشجيع على النظم الديمقراطية للحكومة فى هذه المنطقة».

إن مواقف المسلمين تجاه الولايات المتحدة مازالت متأثرة بما هو متصور عن أمريكا - وأوربا إلى حد كبير - من المقياس المزدوج فى تشجيع الديمقراطية، وسجلها الطويل فى دعم النظم الاستبدادية وفشلها فى نشر الديمقراطية فى العالم الإسلامى؛ كما فعلت فى المناطق والبلاد الأخرى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى.

فى محاضرة رئيسة عن السياسة فى عام ٢٠٠٢، لاحظ السفير «ريتشارد هاس» (Richard Haas) وهو من كبار الموظفين السابقين فى وزارة الخارجية فى إدارة جورج بوش، أن الإدارتين الديمقراطية

والجمهورية كلتيهما قد مارستا «الاستثناء الديمقراطي» في العالم الإسلامي، ووضعتا الديمقراطية في مكانة أدنى من المصالح القومية الأخرى: مثل الحصول على النفط واحتواء الاتحاد السوفيتي، ومعالجة الصراع العربي الإسرائيلي.

في الأزمنة الأقرب، زاد ارتياب المسلمين في تشجيع الولايات المتحدة للديمقراطية بناء على عدد من الأسباب: استخدام «خلق الديمقراطية» بمنطق رجعي لغزو العراق، بعد أن فشلت مسألة أسلحة الدمار الشامل في تلك البلاد، والانطباع بأن الولايات المتحدة كانت تنسق نمطًا أمريكيًا «مقبولاً» من الديمقراطية في العراق، مع اختيارها الخاص لجورج وشنطن في العراق: وهو أحمد شلبي، وكذلك طابور الإساءات إلى الحقوق الإنسانية بدءاً من جوانتانامو إلى «أبي غريب». يزيد في دعم مثل هذه الانطباعات رفض الولايات المتحدة وأوروبا الاعتراف بحكومة حماس المنتخبة بصورة ديمقراطية.

قال «كينيث روث» (Kenneth Roth) رئيس منظمة مراقبة حقوق الإنسان في حديث لصحيفة «فاينانشيال تايمز» (Financial Times): «إن المسئولين الأمريكيين كلهم يؤيدون الديمقراطية ماداموا يحبون النتائج». ويعتقد روث أن رسالة أمريكا في نشر الديمقراطية أصبحت تساوي «تغيير النظام»، وقد فقدت مصداقيتها في العالم الإسلامي. وقال: «إن دفعها للديمقراطية قد انتهى الآن».

لقد ردّد «سلامة نعمات» صدى تشاؤم «روث»: وذلك في جريدة واشنطن بوست، وكان محللاً أردنيًا ورئيس مكتب الصحيفة العربية «الحياة» في واشنطن: «إنها قصة نجاح للقاعدة، وقصة نجاح للأنظمة العربية الاستبدادية، التي جعلت الديمقراطية تبدو قبيحة في أعين شعوبهم. ويمكن أن يقولوا لشعوبهم: انظروا إلى الديمقراطية التي يريد الأمريكيون جلبها إليكم. الديمقراطية هي المتاعب، لعلكم تنسون تمامًا ما وعدكم به الأمريكيون - إنهم يعدونكم الموت».

تأثرت أفكار المسلمين في أنحاء العالم بالانفجار في وسائل الاتصال الجماهيرية التي اكتسحت أغلب العالم الإسلامي، وتغلبت على سيطرة الحكومات. إن صحفًا مثل «الشرق الأوسط» و«الحياة» اتصلت بشبكات تليفزيونية مثل الجزيرة والعربية و«إم .بي. سي» (MBC) وقنوات أخرى، حتى تكون بدائل لقنوات «سي. إن. إن» (CNN) و«بي.بي.سي» (BBC). ويمكن رؤية أثر ثورة المعلومات في العربية السعودية، حيث تعتبر أعداد كبيرة أن التليفزيون العالمي (٨٢٪)، والصحف (٦٥٪)، والراديو العالمي (٤٢٪) والإنترنت (٣٢٪) هي مصادر مهمة جداً حتى يكون الإنسان على علم جيد بالشئون العالمية. وعند سؤال السعوديين عما إذا كانوا قد شاهدوا قناة الجزيرة في غضون الأيام السبعة الماضية، أجاب ثلاثة أرباعهم أنهم شاهدوا قناة الأخبار بالقمر الصناعي، وجذبهم أسلوبها في نقل الأخبار «من مواقعها» بطريقة «موضوعية» و«جريئة».

ما الذي يعتقده المسلمون عن فرص تحسين العلاقات مع الغرب؟

إن اهتمام الغرب بعلاقات أفضل مع العالمين العربي والإسلامي أدعى أن يكون أشد إيجابية في الدول الأفريقية المشاركة في الاستفتاء. كان سكان سيراليون (بنسبة ٦٤٪) أدعى الشعوب المدروسة جميعًا في الاعتراف بأن الغرب يبدي اهتماماً. وتختلف الصورة اختلافاً حاداً في أغلب البلاد الأسيوية وبلاد الشرق الأوسط، التي يكون أكثر سكانها من المسلمين: حيث يزداد الاحتمال جداً في تصور الشعوب أن الغرب أدعى ألا يبدي الاهتمام من إبداء الاهتمام. تبلغ العاطفة السلبية أقصاها في تركيا: حيث يقول ٦٤٪ إن الغرب لا يبدي اهتماماً بعلاقات أفضل، ويقول ٥٧٪ من المصريين، و٥٣٪ من الكويتيين إن الغرب لا يبدي الاهتمام.

هل يريد المسلمون علاقات أفضل مع الغرب، على الرغم من إجاباتهم القاسية الراجعة؟ إن نسبة الذين يقولون بأهمية التفاهم الأفضل بين الثقافتين الغربية والإسلامية بالنسبة لهم إلى حد كبير تفوق نسبة الذين يقولون بانعدام الأهمية لهم. إن أولئك المهتمين يتفوقون على غير المهتمين بنسبة ٢:١ في بعض الحالات: مثل العربية السعودية ومراكش ولبنان.

لكن ما الذي يعتقده المشاركون في الاستفتاء أن في استطاعة الغرب أن يفعله لتحسين العلاقات مع العالم الإسلامي؟ إن أغلب الاستجابات لهذا السؤال المفتوح من مراكش إلى إندونيسيا هي:

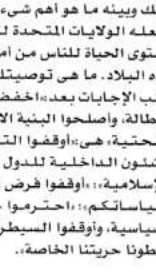
■ إبداء المزيد من الاحترام والاهتمام.

■ لا تنقصوا من مكانة البلاد العربية والإسلامية.

■ أظهروا مزيدا من فهم الإسلام كدين، ولا تحطوا من قدر مايدعو إليه الإسلام.

من الأمور الكاشفة بالمثل، أنّ على قمة الإجابات للسؤال: ما هو أقل ما يستدعي إعجابك بالغرب؟ كانت الكراهية أو الحط من شأن الإسلام والمسلمين. ولكن كيف تتعلق هذه الإجابات بمسائل الحرية والديمقراطية؟

سئل المشاركون: «افرض أن واحداً من حكومة الولايات المتحدة سألك فيما بينك وبينه ما هو أهم شيء يمكن أن تفعله الولايات المتحدة لتحسين مستوى الحياة للناس من أمثالك في هذه البلاد. ما هي توصيتك؟». كانت أغلب الإجابات بعد: «اخفضوا نسبة البطالة، وأصلحوا البنية الاقتصادية التحتية»، هي: «أوقفوا التدخل في الشئون الداخلية للدول العربية والإسلامية»، «أوقفوا فرض عقائدكم وسياساتكم»، «احترموا حقوقنا السياسية، وأوقفوا السيطرة علينا»، «أعطونا حريتنا الخاصة».



يرى المسلمون تعارضًا بصفة عامة بين القيم الديمقراطية والمبادئ الإسلامية

إذا نظرنا نظرة أقرب إلى من سوف نسميهم «بالديمقراطيين المسلمين»: أولئك الذين يعتقدون أن الديمقراطية مهمة لمستقبلهم وتقدمهم، فذلك يزيد في فهمنا للموضوع. لعل أهم صفة تميز هذه الجماعة هي تأكيدها القوى على الدين وحقوق النساء.

■ يقول أغلب الديمقراطيين المسلمين إن الحياة الروحية للإنسان أساسية: فهي شيء لايستطيع الحياة من دونه، ويقول أكثر من ٦٠٪ إنهم حضروا مناسبة دينية في الأيام السبعة الماضية.

■ تدعم الأغلبية النساء في الحصول على: الحقوق القانونية نفسها مثل الرجال (٧٨٪): حق التصويت من دون تدخل عائلي (٨٨٪): وظيفة تناسب مؤهلاتهن (٨٢٪): مناصب القيادة في الوزارات والمجالس النيابية (٧٢٪): قيادة السيارة (٦٧٪).

من الطريف أن الديمقراطيين المسلمين أكثر اهتمامًا بتحسين العلاقات مع الغرب، ولكنهم أدعى ألا ينظروا نظرة تفضيل إلى الولايات المتحدة، وأحرى أن يقولوا إن المجتمعات الغربية لا تبدي اهتماماً بالتعايش مع العالم العربي والإسلامي. تنعكس هذه المفاهيم في النسب الصغيرة (٥٪ إلى ١٠٪) التي تؤمن بأن الولايات المتحدة محل ثقة، أو هي صديقة، أو تعامل البلاد الأخرى باحترام.

إذا اعتبرنا هذه المفاهيم، وكذلك ما يعتقده الكثيرون، وهو أن الغرب معاد للإسلام والمسلمين، فلعل أحد الدروس أن الأمر حين يتعلق بالديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان، فإن المعايير التي يطبقها الغرب على نفسه يجب أن تعتبر متسقة مع تلك التي يطلبها ويتوقعها الآخرون.

عناصر رئيسة

- كثيرون من المسلمين يقدرون عدداً من المبادئ الديمقراطية على الرغم من ندرة الديمقراطيات في البلاد الإسلامية.
- لا يرى المسلمون تعارضاً بصفة عامة بين القيم الديمقراطية والمبادئ الإسلامية.
- لا يريد المسلمون على وجه العموم الثيوقراطية ولا الديمقراطية العلمانية، ويفضلون نموذجاً ثالثاً: تتعايش فيه المبادئ الدينية والقيم الديمقراطية.
- يدعم الرجال والنساء دوراً للشريعة باعتبارها مصدرا للتشريع، ولا يريد أغلبهم - في الوقت نفسه - أن يتولى الزعماء الدينيون مسئولية مباشرة في صياغة التشريع. ■



الرئيس والشركة!

إلى أى مدى يؤثر غياب رئيس الشركة مريضًا (ستيف جوبز / أبل)، أو وراء القضبان (هشام طلعت مصطفى) فى مصير الشركة ذاته؟
هذا مقال كتبه كاتب اقتصادى متخصص فى الموضوع

هاريس كولنجوود
Harris Collingwood

من المتوقع عودة «ستيف جوبز Steve Jobs»، الرئيس التنفيذى لشركة «أبل Apple»، إلى عمله هذا الشهر بعد غياب دام ستة أشهر بسبب وعكة صحية، ومع ذلك، فإن المستثمرين بالشركة لا يشعرون بالارتياح. فكلما عطس «جوبز» أصيبت أسهم «أبل» بالبرد. هل يمكن حقا لمدير تنفيذى - حتى لو كان قديرا وذا رؤية ثاقبة مثل «جوبز» - أن يبنى شركة أو يهدمها؟ لقد طرح كثير من خبراء الأعمال شكوكا متزايدة حول الاعتقاد بأن الرئيس التنفيذى هو بطل خارق، وتكشف الأبحاث الحديثة عن أنه بينما هناك بعض الرؤساء التنفيذيين ممن يشكلون فارقا جوهريا، فإن الكثير منهم هم مجرد التروس الأكثر بروزا فى الات معقدة.

علينا أن نمعن الفكر فى تجربة حملة الأسهم فى شركة «أبل». فمثل والدين مكروبين بجوار سرير طفلهما المريض، كان المستثمرون بالشركة فى أعلى درجات القلق على صحة «ستيف جوبز» لمدة عام تقريبا أو يزيد. لقد خضع الرئيس التنفيذى لمؤسسة «أبل» عام ٢٠٠٤ للجراحة بسبب نوع نادر قابل للشفاء من سرطان البنكرياس. ومنذ ذلك الوقت، كانت الحالة الصحية لـ «جوبز» مصدر قلق عميق لحملة الأسهم والمحللين والمريدين. وبالنسبة لبعض المراقبين، فإن مصير «أبل» و«جوبز» مرتبطان بصورة لا يمكن الفكاك منها. فقد توقع أحد المحللين فى العام الماضى أن تخسر «أبل» ربع قيمتها السوقية فى حالة رحيل «جوبز»، سواء على قدميه أو محمولا فى نعشه. وربما يرفق أطباء «جوبز» أيضا بملفه الطبى مخططا بيانيا بأسعار أسهم الشركة، حيث إن تقلب أسعارها صعودا وهبوطا يحاكى عن كثب الجدل حول حالته الصحية.

وقد زادت حدة القلق المستمر للمستثمرين حول الرئيس التنفيذى لـ«أبل» فى يونيو الماضى عندما خاطب «جوبز» - وهو يبدو ناحلا - جمعا من مطورى برمجيات «أبل». لقد جدد ظهوره بتلك الصورة المخاوف من عودة السرطان إليه. ولعدم اقتناعهم بتأكيدات الشركة أن «جوبز» لم يكن يعانى سوى من «عدوى شائعة»، سارع المستثمرون إلى بيع أسهمهم، مما هوى بسعر سهم «أبل» لأكثر من أربعة دولارات فى خلال يوم واحد.

بترتيب مع
The Atlantic.

ترجمة: عادل فتحى

وبعد ستة أسابيع، نشرت جريدة «نيويورك تايمز New York Times» تقريرا عن مصادر مجهولة مقربة من «جوبز» تفيد بأنه أبلغ مجلس إدارة «أبل» أنه خال تماما من السرطان وأنه أجرى جراحة - لم يسمها - لمعالجة مشكلة فقدان الوزن. وإزاء تلك الأنباء، ارتفعت أسهم «أبل» بنسبة ٦, ٢٪. ولكن الارتياح انقلب مرة ثانية إلى ذعر فى شهر أغسطس عندما بث شخص سيئ الطالع بطريق الخطأ على موقع Bloomberg.com نعيا معدا مسبقا لـ «جوبز»، مما أصاب المتعاملين بالأسهم بهياج شديد، إلى أن نشر الموقع تراجعا خفيا عن القصة «غير المكتملة».

كانت ردة الفعل سريعة لدى الأوغاد والانتهازيين على شبكة الإنترنت لاستغلال التفاعل بين أسعار أسهم «أبل» والحالة الصحية لمديرها التنفيذى. ففى أكتوبر بث أحد المراسلين المتطوعين لموقع CNN.com - حيث تستحدث الشبكة تجربة ما يسمى بصحافة المواطنين - تقريرا زائفا تماما بأن «جوبز» قد هرع به إلى أحد المستشفيات إثر إصابته بنوبة قلبية خطيرة. وقد شك المتعاملون بالأسهم فى أن تكون تلك حيلة للمراسل للإفادة من انهيار أسعار أسهم «أبل»، رغم أن تحقيقا لاحقا لـ «لجنة السندات والبورصة Securities and Exchange Commission»، توصل إلى أن الأمر لا يعدو كونه مزحة لأحد المراهقين. وعلى أية حال، فقد هبطت أسهم «أبل» بنسبة ٤, ٥٪ قبل أن تصحح CNN التقرير.

ومع ذلك، فمن العسير التفوق على مجرد الإزعاج غير الأخلاقى لقراصنة الإنترنت الذين اقتحموا فى يناير بث الموقع الرسمى للمؤتمر السنوى لمطورى «ماكوورلد Macworld». وقد قاطعوا البث الحى لوقائع المؤتمر برسالة كبيرة الحروف «ستيف جوبز مات لتوه». وسرعان ما تخلص القائمون على الموقع من الرسالة، ولكن لم تمض سوى دقائق ثلاث حتى عاد القراصنة: «انتظروا، للأسف. لقد مات «ستيف» فعلا. تعازينا». وسرعان ما أوقف منظمو المؤتمر البث الحى.

لقد أتاحت سياسة العلاقات العامة المتحفظة لـ «أبل» مجالا واسعا لانتشار الشائعات. وقد سرت عدوى ميل «جوبز» للاحتجاب فى أنحاء الشركة. وقوبلت تساؤلات المراسلين حول كافة أمور الشركة تقريبا بالصد بصورة روتينية. وحتى عندما تصدر «أبل» تعليقا رسميا بشأن الحالة الصحية لـ «جوبز» فإنها تفلح فى تقويض مصداقيتها. فعلى ضوء ما تكشف لاحقا، فإن الملاحظة الحمقاء

ظل السؤال حول استحالة الاستغناء عن الرئيس التنفيذى يشغل بال خبراء الأعمال طوال سبعين عاما

للشركة فى مؤتمر يونيو ٢٠٠٨ بأن «جوبز» إنما كان يعانى «عدوى شائعة» تبدو مراوغة فى أحسن الأحوال.

مع ذلك، لم يقوض هذا التصريح مصداقية «أبل» مثلما فعل إعلان يناير بأن «جوبز» كان يعانى «خللا هرمونيا» أثر على قدرته على امتصاص البروتين. وقد ذكر «جوبز» بلهجة باعثة على الاطمئنان فى خطاب نشرته الشركة أن العلاج كان «بسيطا وحاسما نسبيا». وقد أدى الإعلان الصحفى إلى ارتياح آخر لأسهم «أبل»، ولكن المشاعر الطيبة انتهت فجأة بعد تسعة أيام عندما أذاعت «أبل» تصريحا آخر من «جوبز» اعترف فيه بأن مشاكله الصحية كانت «أكثر تعقيدا» مما كان يعتقد فى البداية وأنه سوف يغادر الشركة فى أجازة لمدة ستة أشهر لمواجهة ذلك.

تعلمون ما حدث بعد ذلك. انخفضت أسعار أسهم «أبل» حوالى خمسة دولارات بمجرد بدء التداول فى اليوم التالى، مما أدى إلى الإطاحة بحوالى أربعة مليارات دولار من القيمة السوقية للشركة، رغم أن الأسهم استعادت جزءا من عافيتها قبل نهاية اليوم. وبعد تلك التجربة المؤلمة، يمكننا أن نغفر لمستثمرى «أبل» حيرتهم بشأن ما يصدقون، الشائعات أم تصريحات «أبل».

أثناء كتابة هذا المقال، تؤكد «أبل» أن «جوبز» سيعود للعمل فى يونيو، رغم تشكك العديد من المراقبين فى ذلك. وفى الوقت نفسه، تعافت أسعار أسهم «أبل» سريعا مرة ثانية من انخفاض يناير، بما يوحى - ربما - بأن المستثمرين يتقبلون فكرة فنائية رئيسهم التنفيذى المفضل.

مهما كانت كيفية تسوية مسألة عودة «جوبز»، فإنها تطرح أسئلة أخرى أكثر إلحاحا: دعك من تقلبات أسعار الأسهم على المدى القصير، هل تمثل عودة «جوبز» إلى «أبل» أهمية حقيقية؟ ما الفرق الذى يمكن أن يحدثه رئيس تنفيذى فى جميع الأحوال؟

لا تبدو الإجابة واضحة اليوم مثلما كانت منذ بضع سنين، قبل أن تقوض فضائح الشركات والكوارث المالية العالمية قواعد عقيدة الرئيس التنفيذى البطل. لقد نمت تلك العقيدة بثبات لأكثر من ربع قرن، بداية من عام ١٩٧٩ عندما تقلد «لى ياكوكا Lee Iacocca» قيادة «كريسلر Chrysler» إبان انتشالها الفيدرالى الأول من مأزقها المالى، إلى صحوة قصيرة المدى. لاحقا، تحولت حفنة من رؤساء الشركات التنفيذيين، بما فيهم «جاك ويلش Jack Welch» من «جنرال إلكتريك General Electric» و«بيل جيتس Bill Gates» من «ميكروسوفت Microsoft» و«وارين بافيت Warren Buffet» من «بيركشاير هاثاواى Berkshire Hathaway» إلى مشاهير ذائعى الصيت يحتفى بهم لنهوضهم بشركاتهم دون مساعدة إلى نجومية سوق الأسهم. إن أسعار أسهم الشركات تشير للوهلة الأولى إلى أن الرؤساء التنفيذيين كانوا يستحقون كل ما كان يستطيع مجلس إدارة ممتن أن يكافئهم به. ووفقا لتلك المدرسة الفكرية، فعندما صرح «شارل دى جول Chares de Gaulle» بأن «المقابر مليئة برجال لا يمكن الاستغناء عنهم» فإنه لم يكن سوى رجل فرنسى شديد العناد.

بالنسبة للمؤمنين بالأهمية العظمى للرؤساء التنفيذيين، فحتى وجود المحتالين والأوغاد فى صفوف الرؤساء التنفيذيين قد قلل من التأثير الهائل للرئيس التنفيذى. باستطاعة الرؤساء التنفيذيين إقامة شركات عظيمة، وباستطاعتهم أيضا أن يهدموها. إن سقوط «دينيس كوزلوسكى Dennis Kozlowski» من القمة ليهوى فى السجن بسبب الاختلاس من «تيكو إنترناشيونال Tyco International» كان مرتبطا تماما بانهيار الشركة. وكان سقوط «إنرون Enron» عاقبة حتمية لإجرام «جيفرى سكيلنج Jeffrey Skilling». وقبل أن يترك «موريس هانك جرينبيرج Maurice Hank Greenberg» شركة «أميركان إنترناشيونال جروب AIG» بعد شبهات قانونية عام ٢٠٠٥، كان قد قادها إلى دوامة من المبادلات الائتمانية «credit-default-swaps» مما أدى إلى سقوط الشركة فى النهاية فى دوامة من المضاربات الحمقاء والخروج من تصنيف الاقتصاد العالمى. حقا، لقد انطبق المثل «أنا وبعدى الطوفان».

تلك هى «نظرية الرجل العظيم التاريخية Great Man theory of history» لـ «كارلايل Carlyle» مرسومة على نسيج شركة، وحتى فى وسط الخراب الاقتصادى الذى نعيشه الآن، فما زال لتلك النظرية غلاة من المؤيدين، ليس فقط من بين الرؤساء التنفيذيين أنفسهم. لقد أشيع عن «جون ثين John Thain» الرئيس التنفيذى الأسبق لـ «ميريل لينش Merrill Lynch» اعتقاده بأن إسهاماته استحقت مكافأة قدرها أربعون مليون دولار، حتى بعد أن ألقت الخسائر المتلاحقة بمؤسسة السمسرة العتيدة إلى براثن «بنك أميركا Bank of America» (كان لبنك أميركا رأى آخر، فلم يأخذ «ثين» مكافأة عن عام ٢٠٠٨، وتم صرفه من الخدمة فى يناير).

إن النظرة المبجلة لرب العمل تدعمها صناعة صغيرة لـ «عرابى» الإدارة ومستشارى مكافأة الرؤساء التنفيذيين. إن لديهم أسبابا وجيهة لبيع مجالس الإدارات والمستثمرين والصحفيين وحتى الرؤساء التنفيذيين أنفسهم مفهوم أن للرئيس التنفيذى قيمة عظيمة. لقد ربح عرابو الإدارة مهاما جديدة من خلال إحالات من عملاء ممتنين، وهم لن يتوقعوا تلقى الشكر إذا ما أخبروا الرئيس التنفيذى أنه مجرد ترس آخر فى الماكينة. إن مستشارى المكافآت يعلمون أنهم لو فازوا بحزم أجور عالية لعملائهم من الرؤساء التنفيذيين، فإنهم سيكافأون بعقود مجزية لإدارة خطط مزايا العاملين وما شابه ذلك.

مع ذلك فإن من عملوا لدى رؤساء تنفيذيين مرموقين لا يتفقون بالضرورة مع الربط الوثيق لدى الرأى العام بين الرئيس التنفيذى وشركته. فى مقال نشر فى شهر مايو عام ٢٠٠٦ بمجلة «ستانفورد بيزنس Stanford Business Magazine» أورد أستاذا الإدارة «روبرت ساتون Robert Sutton» و«جيفرى فيفر Jeffrey Pfeffer» محادثة مع «سبنسر كلارك Spencer Clark» المدير التنفيذى المرموق بشركة «جنرال إلكتريك» أثناء سنوات «ويلش». يقول «كلارك»: «لقد أبلى «ويلش» بلاء حسنا، ولكن يبدو أن الجميع قد نسى أن الشركة كانت موجودة منذ أكثر من مائة عام حتى قبل أن يحصل «ويلش» على الوظيفة، وكان لديه سبعون ألف شخص آخر لمعاونته».

يشارك الكثير من الأكاديميين «كلارك» فى تشككه. لقد ظل السؤال حول استحالة الاستغناء عن الرئيس التنفيذى يشغل بال خبراء الأعمال طوال سبعين عاما. وبينما الجدل الدائر أبعد ما يكون عن الحل، يعتقد الكثير من أبرز وأشهر أساتذة مدارس الأعمال والخبراء الأخرين أن الهاجس الأمريكى بشأن من يجلس على قمة المؤسسة قد تجاوز كل الحدود.

إن النقاش بشأن محورية الرئيس التنفيذى بدأ بصورة جدية فى ثلاثينيات القرن العشرين، فى أعمال «شيستر بارنارد Chester Barnard» أحد رؤساء شركة «نيوجيرسى بل New Jersey Bell». كان «بارنارد» أحد أوائل الخبراء الذين حددوا المؤسسة باعتبارها - أولا وقبل كل شىء - منظمة اجتماعية، وأن الظواهر الاجتماعية مثل التفكير الجماعى وتأجيج صراعات المنافسة قد أثرت على أعمال المؤسسة، على الأقل حسبما تشير التحليلات والدراسات العقلانية الجامدة. ووفقا لـ «بارنارد» لم يكن هناك نظير للرئيس التنفيذى كقوة اجتماعية داخل المنظمة. فهو وحده القادر على شحن روح العمل بالقيم والطموحات التى تدفع الناس إلى ما هو أكثر من مجرد كسب العيش.

كان انشغال «بارنارد» بالرئيس التنفيذى - باعتباره مرادفا/صانعا للنفوذ - نابعا من نفس الاهتمامات الواردة فى أعمال المؤرخ «هنرى آدامز Henry Adams» والمفكر الاجتماعى الرائد «ماكس ويبر Max Weber». عندما أفسح القرن التاسع عشر المجال للقرن العشرين وتضاءل نفوذ الكنيسة والمؤسسات الراسخة الأخرى، أعرب «ويبر» فى كتب مثل «المبادئ الأخلاقية البروتستانتية وروح الرأسمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism» عن قلقه تجاه عجز المؤسسات الأكثر حداثة - وخاصة شركات الأعمال الكبرى - عن شحن الناس بالإحساس بالغاية. وفى كتابه «تعليم هنرى آدامز

إن من عملوا لدى رؤساء تنفيذيين مرموقين لا يتفقون بالضرورة مع الربط الوثيق لدى الرأى العام بين الرئيس التنفيذى وشركته

The Teaching of Henry Adams. تساءل «آدامز» متشائما عما إذا كان لمعارفه التقليدية أية قيمة في قرن جديد يسوده العلم والتجارة. تساءل كلا من «بارنارد» و«آدامز» عن كيفية استحضار عمال العصر الحديث - المسخرين لخدمة الجشع - لنفس الحماس الذي نادت به الأجيال السابقة لبناء القصور والكاتدرائيات العظيمة في أرجاء أوروبا، وقد خشيا أن تنزوي النفس البشرية في مواجهة المطالب العقلانية الجامدة للرأسمالية، والتي لا تهتم بالفرد، وتنبأ بمستقبل يتزايد فيه الاضطراب والتفتت الاجتماعي.

رغم ذلك كان «بارنارد» متفائلا نسبيا بأن تحل الشركة مكان الدين كمستودع للغاية والمغزى. اعتقد «بارنارد» في الواقع أن بقاء الشركة يعتمد على قدرة الرئيس التنفيذي على جعل العمل ذا مغزى. وقد كتب في عمله الكلاسيكي «وظائف التنفيذي» The Functions of the Executive «إن الحوافز المادية - حتى في المنظمات التجارية الصرفة - هي ضعيفة لدرجة أنه يمكن إهمالها تقريبا، إلا عندما تدعمها حوافز أخرى». فبدون الرؤساء التنفيذيين الملهمين سوف تفقد الشركات في النهاية رؤية الحافز الأعلى وتهوي إلى الفشل.

منذ أيام «بارنارد»، أصبح من المألوف الاعتقاد بأن الشركة - سواء كان ذلك أمرا حسنا أو سيئا - تسير على مبادئ رئيسها التنفيذي. لقد حول «جاك ويلش» «جنرال إلكتريك» إلى قبيلة من الكلاب العدوانية الصارمة المتنمرة التي لا تعترف بالمشاعر الإنسانية، كما أمد «جيف سكيلنج» «إنرون» بزمرة من المخربين المتمرسين في المجازفة بالأنظمة. من أهم ورثة فكر «بارنارد» مفكر الإدارة «جيم كولينز» Jim Collins. وفي كتابه الذي حقق أفضل المبيعات عام ٢٠٠١ «من التميز إلى العظمة: لماذا تصل بعض الشركات - دون غيرها - إلى القمة Good to Great: Why Some Companies Make the Leap ... and Others Don't»، اختار «كولينز» أحد عشر رئيسا تنفيذيا لعبوا - كما يقول - دورا حيويا في النجاح المستمر لمنظماتهم. كان القاسم المشترك بينهم هو «التواضع الشديد»، وبدلا من الخيلاء في أروقة الشركة مطلقين الأوامر وساحقين كل من في طريقهم، فإنهم - كما يقول «كولينز» - أخضعوا شخصياتهم للمنظمة في هدوء، ملهمين بقية الشركة بقدوتهم.

ولكن ما هي قوة هذا النفوذ؟ أو ما هي قوة نفوذ أي تنفيذي؟ لقد جادل «ستانلي ليبرسون» Stanley Lieberson، و«جيمس أوكونور» James O'Connor، في كتابهما الرائع «القيادة والأداء في المنظمة: دراسة للشركات العظمى Leadership and Organizational Performance: A Study of Large Corporations»، والذي نشر للمرة الأولى في «المجلة الأمريكية للدراسات الاجتماعية American Sociological Review»، بأن هذا النفوذ ضعيف بالفعل. وقد أكد المؤلفان - ربما تعبيرا عن نزعة مقاومة التسلط السائدة في ذلك الوقت - أن تأثير الرئيس التنفيذي نادرا ما كان عنصرا حاسما في أداء الشركة، وكانت لديهما الأرقام التي تدعم هذا الرأي. فقد استخلصا من قاعدة البيانات التي كانا يعملان عليها - والتي ضمت بيانات ١٦٧ شركة - تأثيرات العوامل المختلفة على ربحية الشركة، بداية من الوضع التنافسي للصناعة، ومرورا بحجم وهيكل شركة منفردة، وحتى القرارات الإدارية للرئيس التنفيذي. كانت «تأثيرات الصناعة» - مثل حجم رأس المال المتاح واستقرار السوق - مسئولة عن ٣٠٪ تقريبا من التفاوت في أرباح الشركة. وكانت «مؤثرات الشركة» - مثل الموقع التاريخي للمؤسسة في التسلسل الهرمي - مسئولة عن حوالي ٢٣٪. أما «مؤثرات الرئيس التنفيذي»، فلم تكن مسئولة عن أكثر من ١٤.٥٪. وحتى ذلك التأثير يجب أن ينظر إليه بتشكك؛ فلا يمكن تجاهل أنه يجمع ما بين تصرفات الرئيس التنفيذي التي تتسم بالذكاء والمهارة الحقيقية، وتلك التي ترجع إلى مجرد الحظ.

حاول علماء آخرون محاكاة وتمديد النتائج التي توصل إليها «ليبرسون» و«أوكونور»، كما استنتج كثيرون أيضا أن القوى الخارجية تؤثر على أداء الشركة أكثر كثيرا مما يفعل الرئيس التنفيذي. بالفعل فإن الدراسات الأكثر حداثة تميل إلى وجود تأثير للرئيس التنفيذي أقل مما توصل إليه «ليبرسون» و«أوكونور»، يتراوح ما بين ٤.٥٪ إلى ١٢.٨٪ من تفاوت الأرباح. الخبيرة في هذا المجال «أليسون مكاي» Allison Mackay، من جامعة ولاية أوهايو هي أحد أبرز الرافضين لما توصل إليه «ليبرسون» و«أوكونور». وقد انتقدت في دراسة حديثة لها طرق حساب الأرقام التي اتبعاها، وتوصلت باستخدام أسلوب مختلف إلى أن للرؤساء التنفيذيين تأثير هائل على الأداء ربما يبرر بشدة أجورهم المرتفعة).

وقد ذهب «جيمس مارش James March»، أستاذ الإدارة بجامعة «ستانفورد Stanford»، إلى مدى أبعد، حيث ذكر أنه في أي شركة ذات إدارة جيدة وتهتم بإعداد مديريها، فإن المرشحين للوظائف العليا يتشابهون كثيرا في تعليمهم ومهاراتهم ونفسيتهم بحيث يمكن بالفعل التبديل بينهم. وكل ما يهم هو أن هناك شخص ما سيتولى المسئولية. كتب «مارش»: «ربما كانت الإدارة أمرا شديد الصعوبة والأهمية، على الرغم من أن المديرين يتعذر تمييزهم. من الصعب أيضا معرفة الفرق بين مصابيح ضوء مختلفين، ولكن إذا أبعدت جميع مصابيح الضوء سيكون من الصعب القراءة في الظلام».

لقي هذا الرأي قبولا لدى بعض الناس الذين يتوقع منهم أن ينظروا إلى النفوذ التنفيذي بمفاهيم أكثر اتساعا. ففي بداية هذا العام، أخبر «جيفري إيميلت Jeffrey Immelt»، الوريث سيئ الطالع لـ «جاك ويلش» كرئيس تنفيذي لـ «جنرال إلكتريك»، أخبر - بصورة شبه دفاعية - اجتماعا ترعاه جريدة «فاينانشال تايمز Financial Times»، أنه في خلال التسعينيات من القرن الماضي «كان بمقدور أي شخص أن يدير «جنرال إلكتريك» ويبلي بلاء حسنا». وأضاف بحماسة زائدة: «ليس فقط أن أي شخص كان بمقدوره أن يدير «جنرال إلكتريك» في التسعينيات، بل أن كلبا كان باستطاعته أن يديرها. كان بإمكان كلب رعاة ألماني أن يدير الشركة». ويحسب لـ «ويلش» أنه وافق - بصورة أو بأخرى - على هذا التقييم. فقد ذكر لـ «فاينانشال تايمز»: «كان الوقت مواتيا في التسعينيات لأن يكون المرء رئيسا تنفيذيا. كانت الرياح تدفعنا إلى الأمام». وكما يقولون في «وول ستريت Wall Street»، لا تخلط أبدا بين الذكاء وانتعاش السوق.

يشير بعض الخبراء إلى أنه توجد مشكلة واحدة أمام فكرة الرئيس التنفيذي المجدد، القادر على إعادة تشكيل ثقافة المؤسسة أو إلهام العاملين إلى آفاق جديدة، وهي أن الناس ببساطة لا تشعر بالولاء تجاه الكيانات الكبرى مثل الشركات، بغض النظر عمن يمسك بالدفة. إن ولاءاتهم أكثر محلية بكثير. إن إحساسهم بالانتماء يقتصر - مثل المشاة في الحرب - على فصيلتهم الخاصة وليس أبعد من ذلك. وفي هذا العصر الحديث جدا، غالبا ما يسخر العاملون من أي بلاغة متكلفة بشأن الأهداف العليا وسمو غايتهم. ومن هذا المنظور فإن نفوذ الرئيس التنفيذي للتأثير على الأداء، وإن كان قويا ضمن الفريق المباشر من كبار التنفيذيين، فإنه يتلاشى سريعا عندما يمتد وراء هذا الفريق.

أعد «ج. ريتشارد هاكمان J. Richard Hackman»، عالم النفس بجامعة «هارفارد Harvard»، دراسة مكثفة حول القيادة ضمن فرق العمل الصغيرة، وقد توصل إلى أن القادة يمارسون تأثيرا ملموسا على نجاح أو فشل فرقهم. وهو يؤكد في كتابه لعام ٢٠٠٢ «قيادة فرق العمل: إعداد المسرح للعروض العظيمة Leading Teams: Setting the stage for Great Performances»، أن المجموعات الصغيرة تؤدي كأفضل ما يكون الأداء عندما يتعاونون في العمل، وليس فقط كمجرد ذكور نحل خاضعين لقائد. إن مهمة قائد الفريق هي توفير الظروف التي تمكن أعضاء الفريق من التعاون بكفاءة. يجب على القائد أن يوضح بجلاء أين بالضبط يجب أن تصل الفرق، ولكن ليس عليه أن يملي كيفية الوصول إلى هناك خطوة بعد خطوة. يستطيع القادة الذين يعملون بجرأة وذكاء أن يصنعوا فروقا جوهرية في كفاءة الفرق، ولكن بغض النظر عن أداء القادة فإن فرق العمل تصبح أقل كفاءة كلما زاد حجمها. يقول «هاكمان» أن الحجم المثالي للفريق هو حوالي ستة أفراد، حيث تزداد مشاكل الأداء بصورة كبيرة إذا زاد حجم الفريق أكثر من ذلك ويتبدد سريعا تأثير القيادة.

يجادل بعض الخبراء بأن الطبيعة شديدة المحلية للولاء تعني أن النفوذ

أصبح من المألوف الاعتقاد بأن الشركة - سواء كان ذلك أمرا حسنا أو سيئا - تسير على مبادئ رئيسها التنفيذي

الحقيقى للتأثير على أداء الشركة لا يكمن فى الرئيس التنفيذى وإنما فى الإدارة الوسطى. يؤكد «بول أوسترمان Paul Osterman»، الأستاذ بـ «كلية سلون للإدارة Sloan School of Management»، التابعة لـ «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology»، فى كتابه المنشور مؤخرا «حقيقة مدراء الوسط The Truth About Middle Managers»، أن مدراء الوسط ليسو «ضحايا»، انتزعت منهم صلاحيات العمل باستقلالية بواسطة بيروقراطية مجهولة، ولا هم «أوغاد»، مثل الرئيس مفلطح شعر الرأس فى مسلسل «ديلبرت Dilbert»، الكرتونى الكوميدى الشهير، بل أنهم منغلقون لدرجة أنهم لا يفعلون شيئا سوى إعاقة العمل. ويرى «أوسترمان»، أن مدير الوسط هو البطل الخفى وراء وصول الشركة الكبرى إلى الهيمنة الاجتماعية والاقتصادية. يقول «أوسترمان»، أن وصول الشركة إلى تلك المرحلة «يعتمد على مديرى الوسط لأنك لا تستطيع تحقيق المنزلة التى وصلنا إليها دون وجود من يؤدى نوع أعمال التخطيط التى يقومون بها»، ومثل «عمال الحرف اليدوية»، فإن مدراء الوسط يقدرون مهمتهم ويستشعرون أهميتها بالنسبة للهدف الأكبر ويشعرون بولاء عظيم للناس الذين يعملون معهم. ولكن ولائهم للشركة يتلاشى، لأنهم - فى الأساس - يرون أن الإدارة العليا تستحوذ على كافة المكافآت وكل المجد. ويستطرد «أوسترمان»، بأن هناك الآن فى صفوف الإدارة الوسطى «مزيد من الاستخفاف، فهناك استعداد أقل لبذل مزيد من الجهد».

ربما كان السؤال عن الأهمية الحقيقية للرئيس التنفيذى هو السؤال الخطأ. فى دراسة حديثة، يقول ثلاثة من أساتذة «هارفارد»، هم «نوم فاسرمان Noam Wasserman»، و«بارات أناند Bharat Anand»، و«نتن نوريا Nitin Nohria»، ان السؤال الصحيح هو «متى» تكون القيادة هامة؟ وباستخدام أساليب إحصائية متقدمة تحت عنوان مثير (تحليل تفكيك التفاوت variance decomposition analysis) يشبه نمط «تحقيقات مسرح الجريمة»، قام المؤلفون بفحص ٥٣١ شركة فى ٤٢ صناعة مختلفة، وعزلوا تأثيرات القيادة عن العوامل المؤثرة الأخرى لأداء الشركة. وتوصلوا إلى أن القيادة تكون هامة «أحيانا». لا تمثل القيادة أهمية جوهرية فى شركات خدمات الكهرباء التى تقيدها كثيرا اللوائح الحكومية وتكلفة الوقود بحيث لا يكون هناك متسع للرئيس التنفيذى لممارسة أى قدر من حرية التصرف. وقد استخدم الأساتذة مصطلح «الرؤساء الصوريين الشكليين»، لمثل هؤلاء الرؤساء التنفيذيين. وبالإضافة إلى شركات المرافق، فإنك تجدهم فى الصناعات التقليدية المستقرة - مثل مصانع الورق وتجارة اللحوم بالجملة - حيث يكون التغيير بطيئا.

على الطرف الآخر، هناك رؤساء تنفيذيون فى بعض الصناعات لديهم قدر كبير من حرية اتخاذ القرار، وهم يعرفون باسم «المديرون مطلقى اليد». وفى شركة مثل «ريسيرش إن موشان Research in Motion»، أو «موتورولا Motorola»، أو - فيما يخصنا هنا - «أبل»، فإن الرئيس التنفيذى هو الذى يقرر طراز الهاتف الخلوى الجديد الذى سيطرح لجمهور متعطش، وأى من شركات تصنيع الشرائح ستوفر الدوائر المدمجة التى تقوم بتشغيله، وأى من مزودى خدمات الهاتف ستقام معه شراكة. قد تمثل تلك القرارات أهمية عظمى، كما قد تشير النجاحات الهائلة لـ «ريسيرش إن موشان»، التى يتخطف المستهلكون من فوق الأرفف أحدث أجهزة «بلاك بيرى BlackBerry»، التى تصنعها، و«موتورولا»، الذى كان آخر هاتف لها قد حقق نجاحا مدويا هو «رازر Razr»، الذى طرح منذ عام ٢٠٠٤ وبقى على خط التصنيع دهرا طويلا حيث كانت دورات الإنتاج تقاس بالشهور.

يمكن للمدير مطلق اليد أن يكون له تأثير كبير فى الصناعات التنافسية الشرسة، عندما يكون تطوير منتج جديد أمرا شديد الأهمية وتكون الخيارات صعبة بشأن أى الأسواق يتم التركيز عليها، صناعات مثل معدات الاتصالات أو أجهزة الكمبيوتر أو الطائرات. إن المستثمرين قلقون بشأن صحة «ستيف جوبز»، لأنهم يعتقدون أن «أبل»، بحاجة إلى موهبته لاتخاذ خيارات ملهمة. عندما عاد «جوبز» إلى «أبل»، عام ١٩٩٧ بعد أن أطيح به فى تمرد لمجلس الإدارة عام ١٩٨٥، اتخذ قرارا باستثمار موارد الشركة فى طراز الـ «أيماك iMac»، الذى كان يقبع منزويا فى معمل تطوير المنتجات، وقد حول إخفاقات «أبل» إلى نجاحات مبهرة. كما سجل «جوبز» ضربة أخرى أكثر توفيقا عندما قرر أن يكون المنتج التالى من توقيع «أبل» عبارة عن مشغل ملفات «إم بى ثرى MP3». ورغم أن الـ «أيبود iPod»، دخل متأخرا إلى سوق مزدحم إلا أن الجهاز الصغير الأنيق أخذ العالم على حين غرة.

بالطبع ليس كل مدير مطلق اليد هو «ستيف جوبز». وقد كتب «فاسرمان»، و«أناند»، و«نوريا»: «من الجدير بالذكر هنا أن التأثير الكبير للرئيس التنفيذى لا ينطوى بالضرورة على نتيجة إيجابية». فى الواقع أن تأثير الرئيس التنفيذى يكون سلبيا بدرجة كبيرة فى بعض الأحيان - على الأقل - بقدر ما يكون إيجابيا فى أحيان أخرى. بل يرى «دونالد هامبريك Donald Hambrick»، و«سيدنى فنكلشتاين Sydney Finkelstein»، اللذان ابتكرا المصطلح المتناقض «الرئيس الصورى الشكلى / المدير مطلق اليد»، فى مقال نشر عام ١٩٨٧ فى مجلة «أبحاث سلوك المنظمات Research in Organizational Behavior»، أن العالم قد يكون أفضل إذا كانت تأثيرات القيادة دائما غير ذات أهمية. وقد ذكرا فى كتاباتهما: «إذا كان علينا كمجتمع أن نختار بين التخلص من الرؤساء الصوريين أو المدراء مطلقى اليد، فمن الواضح أننا سنحتفظ بالرؤساء الصوريين».

من الجدير بالذكر هنا أن التأثير الكبير للرئيس التنفيذى لا ينطوى بالضرورة على نتيجة إيجابية

ربما كانا يفكران فيما حدث لشركات «بياتريس Beatrice»، عندما تولى زمامها فى أواخر السبعينيات اثنين من المدراء مطلقى اليد كرئيسين تنفيذيين، أولا «والاس راسموسين Wallace Rasmussen»، ثم «جيمس دات James Dutt»، بعد سلسلة من الرؤساء الصوريين. فكما ورد فى دراسة مستفيضة نشرها «جورج بيكر George Baker»، الأستاذ بجامعة «هارفارد»، فى «جريدة المال The Journal of Finance»، فقد اتبع من كان قبلهما تعليمات راسخة لبناء «بياتريس»، من مصنع ألبان صغير فى ولاية «نبراسكا Nebraska»، إلى تكتل لضخ الأموال كان يبيع كل شىء من منتجات ألبان «ميدو جولد Meadow Gold»، إلى حقائب سفر «سامسونايت Samsonite». كانت معظم الإستحواذات عبارة عن شركات مربحة مملوكة لعائلات وبحاجة إلى رأسمال إضافى. كانت تلك الشركات تدار بكفاءة ولكن مديروها كان ينقصهم البريق والمهارات التكنولوجية الحديثة. وقد وفرت «بياتريس» رأس المال والتدريب الإدارى المكثف، ولكنها فيما عدا ذلك تركت الشركات كما هى.

قام «راسموسين» و«دات» بتغيير كل ذلك. فبدلا من ملاحقة المؤسسات المملوكة لعائلات، فقد انزلقا إلى معارك مزايدات مكلفة حول شركات عامة كبرى. وقد ركز «دات» على وجه الخصوص سلطة اتخاذ القرار فى مقر «بياتريس» فى «شيكاغو Chicago». وأرغم الوحدات التى كانت تعمل باستقلالية على الاندماج فى ستة قطاعات كبرى. تقلصت الأرباح وتخلص المساهمون من أسهمهم وبدأت تتردد الشائعات بأن «بياتريس» على وشك السقوط فى براثن أحد قناصى الشركات. وقد رحل «دات» بعد أن هدد خمسة من كبار مديرى الشركة بتقديم استقالة جماعية إذا ما بقى فى منصبه كرئيس تنفيذى. ثم بيعت الشركة إلى مجموعة «كولبرج وكرافيس وروبرتس وشركاه Kohlberg, Kravis & Roberts & Co»، العملاقة المتخصصة فى شراء الشركات بقروض بضمان أصول الشركات، والتى قامت بتفتيت الشركة إلى أجزاء. لقد تمكن رئيسان تنفيذيان فى خلال تسع سنوات من تقويض ما تم بنائه طوال خمسة وثمانين عاما من التوسع الصبور.

ربما كان ذلك هو الدرس الجوهرى هنا: من الممكن أن تكون هناك أهمية للرؤساء التنفيذيين، ولكن ربما كان حالنا جميعا أفضل بغير ذلك. صرح «جيفرى فيفر»، الأستاذ بجامعة «هارفارد»، لمجلة «فورتشن Fortune»، عام ٢٠٠٦ بأن «القادة الناجحين يمكن أن يصنعوا تأثيرا إيجابيا طفيفا، أما القادة الفاشلون فبإمكانهم تحقيق تأثير سلبى هائل». ربما يجد كثير من الأمريكيين إغراء فى قبول هذا الرأى بعد استعراض عواقب ثمانى سنوات من حكم مدير مطلق اليد كرئيس تنفيذى لهم. ■



تجديد الخطاب الدينى!

ليلى إبراهيم أبو المجد

■■ ترددت فى الأونة الأخيرة، فى كافة وسائل الإعلام العربى، سواء المرئى أو المسموع أو المقروء، الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى، ولقد رأى البعض أنها ضرورة نظراً لربط الغرب بين الإرهاب وجمود الخطاب الدينى الإسلامى. لكن مع تزايد الهجوم المحموم على شخص النبى محمد (ص) وعلى صحابته (رض)، ومع تزايد حملات التشكيك فى السنة النبوية، يتبين أن الهدف من وراء الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى أبعد مما يذهب معظمنا.

ويبدو لى، بحكم التخصص فى الشريعة اليهودية والفقه اليهودى، أن الهدف من وراء هذه الدعوة هو: أن نفعل بالكتاب والسنة ما فعله بنو إسرائيل بموسى عليه السلام وبشريعته، وهنا يتبادر السؤال: ماذا فعل بنو إسرائيل بشريعة موسى عليه السلام وبصاحبها؟

لقد دفن بنو إسرائيل موسى عليه السلام ودفنوا شريعته معه. فقد نظروا للتوراة وما فيها على أنها شريعة تناسب مجتمعا قبليا رعويا، ولا تصلح ولا تتناسب مع الحياة المدنية والمستجدات التى طرأت على حياتهم بعد استقرارهم فى أرض كنعان، (وهذا ما يروج الآن بالنسبة للشريعة الإسلامية والسنة النبوية). لكنهم لم يشعروا بالحاجة الماسة إلى تجديد الخطاب الدينى إلا عندما قام الملك نبوخذ نصر ملك بابل فى القرن الخامس (ق.م) بتهجير بنى إسرائيل إلى بابل، وهو ما يعرف فى التاريخ اليهودى بالسبى البابلى، فقد حدثت لهم هناك صدمة حضارية، إذ وجدوا أنفسهم فجأة فى مجتمع بلغ قمة التحضر سياسياً واقتصاديا واجتماعيا ودينياً، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، شعروا أن هذا التهجير عقاب من الرب لهم، لذلك راح علماء الدين يجددون شريعة موسى (ع) واتخذوا من تشريعات بلاد الرافدين نموذجاً وقدوة، وبدأت أولى لبنات الدين الجديد الذى أطلقوا عليه اسم الدين اليهودى (دت يهوديت) على أرض بابل، ووضعت تشريعات هذا الدين فى كتاب يسمى «المشنا»، ومن معانى هذا الاسم: الإعادة أو التكرار أو التثنية!

ويبدو أن فى اختيار هذا الاسم دلالة على أن دينهم الجديد الذى وضعوه هو تثنية لشريعة موسى (ع)، أى أنه بديل لها، وهناك بعض الأدلة على ذلك.

فقد ميز علماء الدين اليهودى فى كتابهم هذا بين شريعتين أو دينين: (دت موشيه) أى دين موسى (ع)، و (دت يهوديت) الديانة اليهودية، وفى حين حصروا «دين موسى» فى أحكام الطهارة والنجاسة وإخراج العشور والوفاء بالنذور، جعلوا الديانة اليهودية تشمل جميع أوجه الحياة والمعاملات وآداب السلوك.[١]

لم يكتف علماء الدين اليهودى، الذين وضعوا المشنا بهذا، بل لقد قسموا أنساب اليهود، وجعلوا نسب الكهنة يأتى على رأس تلك الأنساب العشرة التى وضعوها، ثم يليه نسب لاوى، أى أنهم جعلوا أنفسهم وهم من ينتسبون لهارون (ع) أعلى ممن ينتسب لموسى (ع)،[٢] أى جعلوا أنفسهم وكتابهم فى الصدارة، ثم يليهم موسى وشريعته.

وعندما تأثر علماء اليهود بفكرة الخلاص عند البابليين والفرس، تصوروه خلاصاً مادياً وليس روحياً، كما فى الزرادشتية، وجعلوا المخلص مسيحاً أى ممسوحاً بالزيت المقدس، (إذ كانت عادة مسح الملوك والكهنة بالزيت المقدس شائعة بين شعوب الشرق الأدنى القديم)، ولم يتخيلوه من سبط لاوى، أى لم ينسبوه لموسى عليه السلام، ولكن تصوروه ملكاً من نسل داود وسليمان أى من سبط يهوذا، وتم تأويل بعض فقرات العهد القديم وتفسيرها على أنها تشير إلى المسيح المخلص منها (التكوين: ٤٩/١٠)، (إشعياء: ١١/١-٩).

مع تزايد حملات التشكيك فى السنة النبوية، يتبين أن الهدف من وراء الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى أبعد مما يذهب معظمنا

فعل علماء اليهودية الشىء نفسه عند تحديد مكان العبادة، فلم يتأسوا بموسى (ع) إذ كان الوحى يتنزل عليه فى «خيمة الاجتماع»، بل أرادوا أن تكون لهم دور عبادة مثل معابد بلاد الرافدين ومصر،[٣] لذلك تأسوا بسليمان وبالمعبد الذى بناه للرب، على الرغم من أن بيت الرب الذى بناه سليمان كان نصف مساحة القصر الذى بناه لنفسه (الملوك الأول: ٦/١، ٧/١). ورغم أن سليمان قد بنى بزعمهم دوراً لعبادة الآلهة الوثنية التى كانت تعبدها زوجاته أيضاً، فبنى بيتاً لـ كموش، وثن المؤابيين، ولـ مولك، وثن بنى عمون، وكانت نساؤه الغريبات توقد وتذبح لآلهتهن (الملوك الأول: ١١/ ٧-٨).

ما هو النموذج الذى اقتدوا به عند وضع الشريعة اليهودية؟

لقد ذكرت فيما سبق، أن علماء اليهود اضطروا إلى التجديد أثناء فترة التهجير فى بابل فى القرن الخامس (ق.م)، للرد على أسئلة اليهود واستفساراتهم عن المستجدات التى طرأت على حياتهم واستفساراتهم عن المعتقدات الغريبة التى يؤمن بها سكان بلاد الرافدين، وأسوق - مثلاً - الملائكة.[٤] فلم تتحدث كتب التوراة عن طبيعة الملائكة أو هيئتهم أو وظيفتهم، بينما صور سكان بلاد الرافدين على جدران معابدهم وقصورهم كائنات خرافية تحرس الشجرة المقدسة التى هى مزيج من نخلة ونبات مخروطى، وجعلوها تحف بالشجرة من اليمين ومن الشمال، وجعلوا لها رأس إنسان أو نسر، وجعلوها ذوات أجنحة ضخمة، فبدأ اليهود فى بابل يستفسرون عن الملائكة الوارد ذكرها بالعهد القديم، هل كانت على هذه الهيئة التى عليها الكائنات التى تحرس معابد بابل؟ وما طبيعتهم هل خلقت من نور أم من نار أم من طين؟ ومتى خلقت؟ أى فى أى يوم من أيام الخلق الستة خلقت الملائكة؟ وما وظيفتهم؟ وما علاقتهم ببعضهم البعض؟ وما علاقتهم بالبشر؟ وما علاقتهم بالرب أو بعرش الرب؟ ومن هم الملائكة المقربون؟ وهل للملائكة أسماء ولماذا؟ ومن هو الملك الذى زار إبراهيم (ع) وبشره بإسحق، ومن هو الملك الذى قبض روح موسى عليه السلام؟

يبدو أنه لولا ظهور موسى بن ميمون، والدور الذى اضطلع به، لما قامت لليهودية الربانية (الحاخامية) قائمـة بعد ذلك. فقد ترتب على الصراع والانقسـامات فى صفوف اليهودية أن انهارت المدارس الدينية فى بابل

وغيرها من الأسئلة التى كان على علماء الدين أن يجيبوا عنها، واضطروا فى إجاباتهم للاستعانة بما هو موجود ومصور فى بلاد الرافدين، لكى يستكملوا المعلومات الكثيرة التى سكت النص عنها أو لم يجدوا إجابة مقنعة لها فى نص التوراة.

وذكر التلمود وكتب التفاسير اليهودية (المدراشيم) أن علماء اليهود أخذوا أسماء الملائكة من البابليين، أما المعبد من حيث تصميمه وبنائه وطقوس الخدمة والطهارة والحج فلقد استكملوها من الكهنوت المصرى القديم وشغلت حيزاً كبيراً من كتابهم الدينى الذى وضعوه، أى كتاب «المشنا» الذى بدأت إرهاصاته فى القرن الخامس (ق.م) فى بابل، وتبلور فى ستة أجزاء بالقرن الثالث الميلادى فى فلسطين. فالمشنا عمل جماعى لم يقم به فرد، ولكنه جهد علماء كثر على مدى عدة قرون، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل وجد علماء اليهود الذين جاءوا بعد ذلك، بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين، أن هذا الكتاب صعب وغير مفهوم، فلقد ماتت لغته العبرية إضافة لكونه يعتمد الإيجاز لدرجة الغموض، فراحوا يشرحون هذا الكتاب بلغتهم التى يتحدثونها وهى الآرامية، وجاء الشرح بمثابة تسجيل حى لحلقات الدرس والنقاش التى قامت على أساس الكتاب بمدارس بابل الدينية ومدارس فلسطين. لذلك ظهر تلمودان: أحدهما بابلى نسبة لمدارس بابل وهو الأكبر حجماً والذى استمر العمل فيه فترة أطول، والثانى أورشليمى نسبة لمدارس فلسطين وهو أقل حجماً، وانتهى العمل فيه بعد فترة قصيرة من البداية. لذلك عندما يذكر اسم «تلمود» فقط، يقصد به التلمود البابلى.

لم تتوقف مسيرة تجديد الخطاب الدينى عند وضع كتاب «المشنا» ثم شرحه بعد ذلك، ففى نهاية القرن الثامن الميلادى، تعرضت اليهودية لاختبار صعب، فقد تلقت ضربة فى مقتل، وجاءت الضربة من الداخل، وكانت بمثابة الدافع الحقيقى لتجديد الخطاب الدينى مرة ثانية.

فى القرن الثامن الميلادى، كان الإسلام انتشر من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى، وبدأ تدوين التراث الإسلامى، وخشى علماء المسلمين على القرآن الكريم من اللحن بعد دخول الكثير من أهل الأمصار المفتوحة فى الإسلام، وبدأ الاهتمام بضبط القرآن وعجمه، كما تميز القرن الثامن الميلادى بنشاط علم الكلام عند المسلمين الذى ظهر دفاعاً عن الإسلام ضد هجوم الفلاسفة. وسط هذه الظروف، انشق عنان بن داود وهو من علماء اليهودية، نتيجة خلافات بينه وبين العلماء على الزعامة الدينية فى بابل، أى على منصب «رأس الجالوت» وكان أحق المرشحين له، ورغم ذلك تخطوه وعينوا أخاه الأصغر، فانشق عليهم واتخذ لنفسه مذهباً عرف باسم المذهب «القرائى»، وأعلن أنه يؤمن بأسفار موسى الخمسة وأسفار الأنبياء الذين جاءوا بعده فقط، ويرفض كتابى المشنا والتلمود، ويبدو من موقف عنان هذا تأثره بالمعتزلة وموقفهم من الحديث النبوى الشريف، فأهم ما كان يميز المعتزلة فيما يتصل بأصول الدين، عدم الأخذ بالروايات، والتحرج من اعتبارها مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامى، وكانت حجتهم فى ذلك أن كتاب الله، القرآن، يستغنى بنفسه عن التكملة بشىء آخر فقد جاء فيه «ما فرطنا فى الكتاب من شىء».[*] ووقفوا من المرويات الشفوية الإسلامية موقف الحذر الشديد. ويبدو أن عنان بن داود قد أخذ وجهة نظر المعتزلة، وكان الأمر سهلاً أمام عنان فمرويات التلمود لا ترتفع أبداً بسند متصل إلى موسى أو الأنبياء (ع) من بعده، وتتناقض تناقضاً صارخاً فيما بينها، وفيما بينها وبين التوراة.

ما زاد خطورة الحركة القرائية بالنسبة لليهودية هو تبحر عنان بن داود زعيم القرائية فى التلمود وكثرة رجوعه لنصوصه بقصد تفنيده وهدمه، وأنه اتخذ من الشريعة الإسلامية نموذجاً فى كل الأمور التى سكت عنها نص التوراة، الأمر الذى جعل اليهودية القرائية تبدو، وكأنها فرقة إسلامية أكثر منها فرقة يهودية. فقد اهتم القراءون (القرائيم) بأسفار موسى عليه السلام ووضعوها فى منزلة القرآن، وراحوا يحاكون علماء المسلمين فى رؤيتهم للقرآن (وحياً)، وبدأت محاولات ضبط ونقط العهد القديم ووضع علامات النبر والتنغيم التى تبلورت فى طبرية بفلسطين فى القرن العاشر الميلادى على يد عائلة بن أشر، وهم من القرائين.

ظهور الحاجة إلى تجديد الخطاب الدينى مرة أخرى

وسط هذه الظروف العصيبة، واحتدام الصراع بين القرائين وعلماء اليهودية الذين أصبحوا يعرفون بـ«الربانيين»، ومع تكفير رئيس كل طائفة للأخرى وتحريم التعامل معها، ومع تقرب القرائين من الحكام المسلمين، ومع نظرة المسلمين للربانيين، بتأثير الطائفة القرائية، على أنهم قد حرفوا شريعة موسى (ع)، بل لقد نظروا إليهم على أنهم خارجون على شريعة موسى، كان لزاما على الربانيين الدفاع عن أنفسهم والإتيان بدليل على أن شريعتهم، أى المشنا والتلمود، ترتقى إلى موسى فبدأوا الدفاع عن شريعتهم بوضع سلسلة لرواة الشريعة، ووصلوها بموسى واستهلوها: «تلقى موسى التوراة من سيناء وسلمها ليشوع، ويشوع للشيوخ، والشيوخ للأنبياء، والأنبياء سلموها لرجال المجمع الدينى الكبير»، ونسبوا إلى كل راو منهم من الصفات والأقوال المأثورة والأمثال بحيث يبدو وكأنه راو ثقة، وأطلقوا على هذه السلسلة اسم «الآباء» (آفوت) وأدرجوها ضمن أبواب التلمود، رغم أنها لا تنتمى للتلمود من حيث مادتها أو تأريخها، فلقد وضعت تلك المادة بعد ظهور عنان بن داود أى فى القرن التاسع الميلادى، على الأرجح.

وتختلف فى مضمونها عن نسيج التلمود. فمتن التلمود وهو المشنا عبارة عن تشريعات وأحكام أما فصول الآباء تلك فهى عبارة عن حكم وأقوال مأثورة بعضها فلسفى، كما تتضمن ثناء على الشريعة، والإعلاء من قدر دارسيها.

لم تنجح هذه السلسلة فى تحقيق الهدف المرجو منها، فقد جاءت ضعيفة ومقطوعة، فهناك فترات زمنية شاسعة تفصل بين الرواة تصل إلى عدة قرون، وهناك متهودون من بين الرواة الذين يشكلون حلقات السلسلة، بل قام هؤلاء المتهودون بدور بارز فى صياغة أحكام المشنا وبلورتها وتبويبها. فالربى مينير الذى ينسب إليه هو والربى عقيفا، أول محاولة لتبويب وترتيب المشنا كان متهوداً، وكان عقيفا من أب متهود. ونقل «هليل وشماى»، أشهر فقيهين فى المشنا على الإطلاق، أحكامهما عن «شمعيا وأبطليون»، وهما متهودان يشكلان حلقة من سلسلة الرواية.

يبسو أنه لولا ظهور موسى بن ميمون، والدور الذى اضطلع به، لما قامت لليهودية الربانية (الحاخامية) قائمة بعد ذلك. فقد ترتب على الصراع والانقسامات فى صفوف اليهودية أن انهارت المدارس الدينية فى بابل، وبدأ العلماء والدارسون يهجرونها وينزحون إلى بلدان العالم الإسلامى المختلفة، وخاصة الأندلس، حيث ولد موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤م) فى قرطبة، وقدم لليهودية الربانية فى القرن الثالث عشر الميلادى أقصى ما يستطيع بشر أن يقدمه لدين من الأديان.

جدد موسى بن ميمون الخطاب الدينى للمرة الثانية، وقام بمفرده بما قامت به أجيال عديدة من المشرعين على مدى سبعة عشر قرناً، بين القرنين الخامس (ق.م) إلى الثانى عشر، واستحق بذلك عن جدارة مقولة: «من موسى (ع) إلى موسى (بن ميمون) لم يأت مثل موسى!».

فرغم شهرة موسى بن ميمون بوصفه فيلسوفاً، فإن ما قام به على المستوى الدينى أهم وأخطر مما قدمه فى مجال الفلسفة. فقد أدرك الخطر المحدق باليهودية الربانية، وأن عليه أن يجدد الخطاب اليهودى، مستخدماً الأساس العقلى نفسه الذى اعتمد عليه القراءون فى مذهبهم، ومقتفياً أثر الفقه الإسلامى، كما فعل عنان بن داود، ومجدداً التشريعات والأحكام التى جاءت فى التراث اليهودى الذى يؤمن به الربانيون، أى المشنا والتلمود وكتب الأحكام والفتاوى التى وضعها علماؤهم حتى عصر بن ميمون.

من الأدلة المؤيدة لوجهة النظر هذه أن موسى بن ميمون وضع كتابه التشريعى فى أربعة عشر مجلداً من القطع الكبير، وأطلق عليه «مشنة توراة» أى تثنية الشريعة، وعلل موسى بن ميمون فى المقدمة تسمية الكتاب بقوله: «لكى يقرأ

الفرد توراة موسى أولاً ثم يقرأ بعد ذلك هذا الكتاب فيعرف منه الشريعة الشفوية كلها ولا يحتاج إلى كتاب آخر بعد ذلك». وتضيف مؤلفة هذه الدراسة لقول موسى ابن ميمون، أن الاسم يعنى تكرار الشريعة أو إعادة الشريعة، أى التجديد الثانى للشريعة، ولا يعنى ما ذكره ابن ميمون فى مقدمته.

كان موسى بن ميمون يضع المذهب القرائى نصب عينيه وهو يصنف كتابه، فقد ألف عنان بن داود مصنفات عديدة منها كتاب الفرائض «سيفر همتصفوت»، وهو كتاب فقه وتشريع، وضمنه جميع الأحكام المفروضة على اليهود القرائين فى المأكل والملبس والطقوس الدينية، وكيفية تحديد أوائل الشهور، والطهارة من النجاسة.

ذكر موسى بن ميمون فى مقدمة كتابه سبب تأليف الكتاب فقال: «تتابعت المصائب وضغطت بشدة فى هذا العصر على الجميع، وضاع علم علمائنا، واختفت نباهة نابغينا، لذلك فإن تلك التشريعات والتفاسير التى ألفها العلماء السابقون، أصبحت صعبة فى أيامنا ولا يفهم أحد مضمونها كما ينبغى إلا قلة قليلة، وغنى عن الذكر أن هذا هو حال التلمود نفسه البابلى والأورشليمى وسفرا وسفرى والتوسفتا[٦].. ومن أجل ذلك شمرت عن ساعدى أنا موسى بن ميمون الأندلسى، واستعنت بالرب تبارك، وفهمت كل تلك الأسفار، ورأيت أن أضع كل ما تجمع لى من تلك المؤلفات فى موضوع الحلال والحرام والنجس والطاهر وسائر أحكام الشريعة...»

حاول ابن ميمون فى مقدمة كتابه أن يرفع شأن التراث الدينى الشفهى الذى يؤمن به الربانيون ويرفضه القراءون، وأن ينسبه لموسى (ع) مستنداً فى ذلك إلى تأويل ما جاء بسفر الخروج (١٢/٢٤) على لسان الرب موجهاً حديثه إلى موسى «... فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم»، ثم أورد موسى بن ميمون فى مقدمته بعد ذلك سلسلة رواة الشريعة الشفهية، وضمّنها أسماء شيوخ بنى إسرائيل وقضاتهم ثم الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى (ع) ورتبهم تنازلياً وصولاً إلى علماء المشنا ثم شرّاح التلمود وأنهاها بالربانى آشى الذى نسب إليه ابن ميمون تأليف التلمود البابلى.[٧] ثم عاد وكرر سلسلة الرواة فى أربعين جيلاً ورتبها ترتيباً تصاعدياً من الربانى آشى إلى موسى عليه السلام.

تعمد موسى بن ميمون فى مؤلفه أن يذكر الأحكام ولا يذكر اسم المشرع الذى وضع التشريع ولا مكان التشريع فى كتب التراث اليهودى، وعندما سئل عن سبب ذلك قال فى رده على أحد الخطابات: «حتى لا نمكن الكفار منا، وحتى لا يقولوا إنكم تعتمدون فى رواية تشريعاتكم على أفراد».

بيد أنى أرى أنه إضافة للسبب الذى ذكره ابن ميمون تلميحاً، أى رغبته فى أن يجنب كتابه الطعون التى وجهت إلى سلسلة الرواية اليهودية، ووسمتها بالضعف وأنها مقطوعة، وغير مرفوعة بسند إلى موسى (ع)، وأن رواتها غير ثقات، لذلك اكتفى ابن ميمون بذكر السلسلة فى مقدمة كتابه فقط، لكى يسمح لنفسه أن ينهل من كتب الفقه الإسلامى وأن يجدد كل تشريع أو يكمل ما به من نقص أو يطوره لكى يلائم ذلك العصر، دون إشارة لأصل هذا التشريع وما أضافه من الفقه الإسلامى.

اتبع موسى بن ميمون فى تبويب كتابه وتسلسل عرض الأحكام كتب الفقه الإسلامى عموماً، وكتاب «المحلى» لابن حزم[٨] على وجه الخصوص، وخالف تبويب المشنا والتلمود. وعلى حين بدأ ابن حزم كتابه بمقدمة حدد فيها الهدف من تأليف الكتاب وجاء منهجه متفقاً مع هدفه ومع مذهبه الفقهى وهو المذهب الظاهرى، بدأ موسى بن ميمون كتابه بمقدمة أيضاً ضمنها هدفه من تأليف الكتاب، ولكن لم يتفق منهجه مع هدفه، ولا مع المذهب الذى يؤمن به وهو المذهب الربانى.

ففى حين استدل ابن حزم على فقهه والأحكام التى يأتى بها بآية أو حديث ويسوقه بسنده إلى النبى (ص)، لم يأت ابن ميمون برواة الشريعة الشفوية فى كتابه على الإطلاق، واكتفى بأن أورد بالمقدمة سلسلة الرواة، وحاول أن يجعلها متصلة بموسى (ع)، وتجنب ذكر هؤلاء الرواة فى متن الكتاب، ولم ينسب كل تشريع لقائله، بل سمح ابن ميمون لنفسه أن ينقل من كتب الفقه الإسلامى وأن يضيف لتشريعات المشنا والتلمود أو يقوم بتعديلها، أو يأتى بتشريعات تتناقض معها، ولكى يسوغ ذلك، لجأ لتأويل نص التوراة، وتحميله معانى لا يحتملها.

وفى حين يبدأ ابن حزم الجزء الأول من «المحلى» بموضوع التوحيد، ثم يثنيه بأصول مذهبه الفقهى، يبدأ ابن ميمون الجزء الأول من كتابه بموضوع التوحيد أيضاً ويثنيه بالدفاع عن المرويات الشفهية التى يعتمد عليها المذهب الربانى، وهو يتابع فى ذلك ابن حزم ويخالف المشنا والتلمود اللذين لم يناقشا موضوع التوحيد، وبالتالى لم يفردا له بابا أو فصلاً.

وبينما تناول ابن حزم فى الجزء الأول من كتابه بعد التوحيد وبعد الأصول، كتاب الطهارة، على اعتبار أن الطهارة تسبق الصلاة، وأن الوضوء للصلاة فرض لا تجزئ الصلاة إلا به لمن وجد الماء، يتناول ابن ميمون فى الجزء الثانى من كتابه الصلاة والطقوس التى يقوم بها اليهودى قبل الدخول إلى الصلاة، وهو يتابع ابن حزم فى هذا الترتيب أيضاً، ويخالف ترتيب المشنا والتلمود برغم أن الصلاة ليست فريضة توراتية، ولم يأمر بها موسى بزعمهم، وقد وضعها علماء اليهودية أثناء التهجير البابلى، وكان موسى (ع) يتقرب إلى الرب بالقرابين، لذلك ربط علماء اليهودية، عند تجديد الخطاب الدينى فى بابل، بين ميقات القرابين وميقات الصلاة وجعلوا الصلاة بمثابة بديل عن القرابين التى كان يقدمها موسى. لذلك لم يجد موسى بن ميمون، عند تجديد الخطاب الدينى للمرة الثانية، لم يجد حرجاً فى أن ينقل الكثير من أحكام الصلاة عن كتب الفقه الإسلامى، وعن المحلى لابن حزم على وجه الخصوص، فقد سبقه عنان ابن داود ونقل أحكام الصلاة فى كتابه عن الإسلام أيضاً.

وفيما يلى بعض أمثلة نسوقها من تشريعات الصلاة عند ابن ميمون دليلاً على تجديد الخطاب الدينى اليهودى للمرة الثانية على يد موسى بن ميمون، ودليلاً على اعتماده الفقه الإسلامى بصفة عامة وكتاب «المحلى» لابن حزم بوجه خاص. وسنسوق كل مثال وموقعيه فى كتابى ابن ميمون وابن حزم.

١ ـ قسم ابن ميمون الصلاة قسمين فرض ونفل، على الرغم من أن الصلاة من وضع العلماء (الفصل الأول، التشريع: ٥ ـ ٦)، وهو نفس تقسيم ابن حزم، فالصلاة: فرض وتطوع (المسألة ٢٧٤).

٢ ـ أجاز ابن ميمون للمصلى أن يقصر صلاته فى السفر والخوف (الفصل الثانى، التشريع: ٢) نقلاً عن المسألة (٢٦٤) عند ابن حزم.

٣ ـ قال ابن ميمون بضرورة غسل اليدين قبل الصلاة، وهو تشريع من وضع العلماء أيضاً ولم يأت فى التوراة، وأجاز لمن لم يجد ماء أن يتيمم، ويمسح يديه بحجر أو تراب، أو بجذع شجرة ثم يصلى (الفصل الرابع، تشريع: ٢)، متأثراً بالتيمم عند ابن حزم (مسألة ٢٢٤).

٤ ـ نقل ابن ميمون (المسألة ٢٩٩) عند ابن حزم: لا يحل لأحد أن يصلى إلا واقفا إلا لعذر، كما نقل (المسألة ٣٠٠): لا يحل لأحد أن يصلى الفرض راكباً ولا ماشياً إلا فى حال الخوف، وجاءت المسألتان بكتاب ابن ميمون (الفصل الخامس، تشريع: ١ ، ٢).



فـى حــين يبــدأ
ابــن حــزم الجــزء الأول
من «المحلى» بموضوع التوحيد، يبدأ ابن ميمون
الجــزء الأول مــن كتــابه
بموضوع التوحيد أيضاً

٥ . كما نقل ابن ميمون المسألة (٣٠٤) عند ابن حزم: من كان راكباً على محمل او فيل او كان فى عرفة أو فى أعلى شجرة او غير ذلك، فقدر على الصلاة قائماً فله أن يصلى الفرض حيث هو قائماً، وقد جاءت فى كتاب ابن ميمون (الفصل الخامس، تشريع: ٨).

سأكتفى بهذه الاستشهادات من أحكام الصلاة «هلخوت تفلا» عند ابن ميمون لأعرض أمثلة على تجديد الخطاب الدينى فى باب آخر من أبواب التشريع: باب أحكام النكاح. فعند تجديد الخطاب الدينى لأول مرة وكان ذلك بأرض بابل، وضع علماء اليهودية أحكاماً للنكاح، وجاءت موزعة بثلاثة أبواب من كتاب المشنا: باب «كتوبوت» أى باب عقود الزواج، وباب «قيدوشين» أى باب عقد عقدة النكاح، وباب «يفاموت» أى باب الخلافة على الأرامل، فى حين أن كل ما جاء فى التوراة عن النكاح وطرقه ومحارمه لا تزيد على ١٥ تشريعاً.

ناقش العلماء فى باب عقود الزواج مضمون العقد الذى يكتبه الزوج لزوجته عند العقد عليها أو عند الدخول بها، والأساس فى العقد هو مبلغ «الكتوبا» المناظر لمؤخر الصداق فى الإسلام، ويتعهد الزوج أن يدفعه لزوجته عند الطلاق أو يدفعه ورثته عند وفاته، كما ناقشوا الشروط التى يشترطها كل طرف منهما على الآخر، ويختلف عن العقد الذى تنعقد به عقدة النكاح. وحرم علماء المشنا على المرأة أن تقيم فى بيت زوجها دون «عقد كتوبا» ومن تفعل ذلك تعد زانية[٩].

ناقش علماء المشنا فى باب «قيدوشين» أى عقد عقدة النكاح: طرق النكاح، والوكالة فى النكاح، ومقدار الصداق أو المال الذى تنكح به المرأة، والغرر فى النسب أو قيمة الصداق أو صفته، وتقسيم أنساب اليهود إلى عشرة أنساب وتقسيم هذه الأنساب لثلاث مجموعات ويحل لأفراد كل مجموعة الزواج من بعضهم، ولا يحل لهم الزواج من المجموعات الأخرى.

باب الخلافة على الأرامل «يفاموت» يناقش الفصل الأول منه محارم الزواج وقسمها لمحارم من الدرجة الأولى، وهى ما نصت عليها التوراة، ومحارم من الدرجة الثانية وضعها العلماء. من الفروق الواضحة بين الربانيين والقرائين فى النكاح أن الربانيين يحلون نكاح البنت من عمها وخالها، وسندهم فى ذلك أن التوراة لم تحرم على الرجل الزواج من ابنة أخيه أو ابنة أخته، أما القراءون فقد حرموا ذلك تأثراً بالإسلام.

عندما قام موسى بن ميمون بتجديد الخطاب الدينى مرة أخرى، ضم هذه الأبواب بباب واحد، أطلق عليه اسم «هلخوت إيشوت» أى أحكام النكاح. وسار فى تقسيم الموضوعات وطريقة عرض كل مسألة على خطى كتب الفقه الإسلامى، وسوف نورد بعض الأمثلة من هذا الباب للتدليل على التجديد من ناحية، وعلى مخالفة موسى بن ميمون للمشنا، وتأثره بالفقه الإسلامى من ناحية أخرى.

فقد جاء فى كتاب المشنا فى باب قيدوشين، التشريع الأول: «تملك المرأة بثلاث طرق، وتملك أمر نفسها بطريقتين... تملك بالمال وبالعقد وبالوطء»، فرغم أن النكاح بالوطء هو الطريقة الوحيدة التى نصت عليها التوراة فى (التثنيه: ٢٤/١)[١٠]، فقد قدم علماء المشنا الطريقتين الأخريين عليها. أما ابن ميمون فقد حرمها واعتبرها زنى، وقال: «كل من يطأ امرأة بدون عقد عقدة النكاح يجلد»[١١].

المثال الثانى عن تعدد الزوجات. فقد أحلت التوراة تعدد الزوجات ولم تضع حداً أقصى لعدد الزوجات، وقد أباح علماء المشنا تعدد الزوجات دون حد أقصى كذلك، فجاء فى (باب قيدوشين: ٢/ز): «الرجل الذى عقد عقدة النكاح على خمس نساء فى آن واحد...» وجاء فى (باب كتوبوت: ١٠/هـ): «من كان متزوجاً من أربع نساء ثم مات...». أما موسى بن ميمون فقد أباح تعدد الزوجات وقال فى أحكام النكاح (١٤/د): «يجب ألا يجمع الرجل بين أكثر من أربع نساء حتى وإن كان لديه مال كثير، حتى يستطيع أن يعاشر كل واحدة منهن مرة فى الشهر». ورغم تأثر موسى بن ميمون الواضح فى هذه المسألة بالفقه الإسلامى، فإنه يعزو رأيه إلى حادثة وقعت زمن التلمود لرجل توفى أربعة من إخوته، وكان يجب عليه أن يخلفهم فى أراملهم، فنصحه علماء التلمود ألا يجمع بين أكثر من اربع نساء[١٢]. وسواء تأثر موسى بن ميمون فى هذه المسألة بالإسلام أم اقتدى بفتوى علماء التلمود، فما يهمنا فى هذا المثال هو أن نرصد الأدلة على تجديد الخطاب الدينى، وأن نسلط الضوء على الدور الذى قام به موسى بن ميمون فى تجديد اليهودية الربانية بالقرن الثالث عشر، ومازال أثره مستمراً ليومنا هذا. ورغم مرور ثمانية قرون على تأليفه، لا يزال كتاب «مشنه تورا» هو المرجعية الدينية لليهود الربانيين بجميع أنحاء العالم، لذلك فهو موجود كاملاً على شبكة المعلومات الدولية «إنترنت»، شأنه شأن التلمود، ليسهل على اليهود الرجوع إليه.

بعد عرض التجربة اليهودية فى تجديد الخطاب الدينى بإيجاز، اتضح أن الفقه الإسلامى كان القدوة والنموذج لدى عنان بن داود وموسى بن ميمون، ويبدو أن أحوج ما نحتاج إليه هو أن نُعمل منهج البحث العلمى لدى النظر فى أى دين، وألا ننظر فى أى حكم من أحكام أى دين بمعزل عن نظامه الكلى ومقاصده، ولا نحاكم أى دين بسلوك الخارجين عنه. ■



أحلت التوراة تعدد الزوجات ولم تضع حداً أقصى لعدد الزوجات، وقد أباح علماء المشنا تعدد الزوجات دون حد أقصى كذلك

الهوامش

(١) باب عقود الزواج: ٧/و.
(٢) باب عقد عقدة النكاح: ٧/ أ.
(٣) عند تهجير بنى إسرائيل إلى بابل بالقرن الخامس (ق.م)، ذهب فريق منهم إلى مصر ومنهم النبى ارميا.
(٤) أنظر للباحثة: كيف أصبح جبريل عليه السلام عدواً لليهود؟ رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، المجلد ١٣، ٢٠٠٤.
(٥) سورة الأنعام: ٣٨.
(٦) سفرا وسفرى والتوسفتا: مؤلفات تشريعية يعتمد عليها الربانيون.
(٧) لم ينسب أى مصدر من المصادر العبرية عملية تأليف التلمود لفرد أو شخصية بعينها فهو تجميع لمرويات ظلت تتردد مشافهة على مدى قرون، واقدم مخطوط للتلمود (المشنا وشروح الجمارا) يعود تاريخه للقرن الثانى عشر، أما التلمود فى صورته الحالية فهو تصوير عن الطبعة التى أصدرها دانيال برومبرج فى ١٥٢٠، ومازال باب الاجتهاد فى التلمود مفتوحاً للآن، فتضاف شروح وتعديلات وتفاسير إلى الطبعات الحديثة منه.
(٨) من الأمور اللافتة للنظر أن ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) من مواليد قرطبة بالأندلس، وإن كان ابن حزم يسبق ابن ميمون بواحد وسبعين عاماً، وقد تلقى كل منهما تربية علمية وفلسفية ودينية، أى تشابهت نوعية التنشئة، لذلك تشابهت اهتماماتهما، فألف كلاهما فى الفقه والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والطب. ورغم غزارة إنتاج ابن حزم، وتنوع مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والتاريخ والأنساب والأدب والرد على المعارض، وعلى الرغم من السبق العلمى الذى أحرزه فهو أول من اهتم بدراسة الأديان دراسة تاريخية نقدية. ورغم أنه يفوق ابن ميمون وابن رشد فى حجم إنتاجه وتنوعه، فإن اسم ابن حزم لم يبرز فى التاريخ العام للفلسفة وعلم الكلام، ولم يحظ بشهرة ابن رشد وابن ميمون رغم إعجابهما وتأثرهما به، و«المحلى» أحد أربعة كتب لابن حزم دون فيها فقهه ومذهبه، ويقع فى أحد عشر مجلداً يشتمل على ٤٣٨٨ صفحة وهو آخر مؤلفات ابن حزم، ولم يتمه بعد.
(٩) انظر للباحثة: أحكام النساء فى التلمود، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٥.
(١٠) فقد جاء فيها: «إذا اتخذ رجل امرأة ووطأها...».
(١١) «مشنه تورا»، هلخوت إيشوت، الفصل الأول، تشريع: د.
(١٢) التلمود البابلى، باب يفاموت، وجه ص ٤٤.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com


HOTEL

هنا قصة «صيفية» مثيرة، شغلت تفاصيلها غير الدقيقة الأوساط الأدبية فى مصر، خاصة بعد أن صدرت فى القاهرة ترجمة للرواية الوحيدة التى كتبها بطل هذه القصة، وبعد أن بدا أن الكتاب الذى كتبته عنه صديقته الكاتبة الإنجليزية المرموقة ديانا آتهيل فى طريقه أيضا للقارئ العربى بعد ترجمته.

شاع عن الكاتب «ذى الرواية الواحدة» أنه كتبها ... «وانتحر». هكذا قالت صحف أدبية وكتابات كثيرة. قال بعضها بالانتحار.. وقال آخرون أنه اختفى متلمسين البحث عنه. ثم سرعان ما اختلطت الروايات «التى كانت دوما جذابة وشيقة» بكلام عن التطبيع، وزيارة لإسرائيل.. وبطولات وتضحيات، واستشراف لآفاق ربما لم تكن قد خطرت أبدا على بال كاتبنا المصرى (أوروبى الإقامة) ذى الرواية الواحدة. والتى هى - رغم كل هذا اللغط والخلط - جيدة بكل المقاييس.

هنا مقالان / مناقشتان لكتاب «الصديقة الإنجليزية» وللرواية ذاتها. وهنا أيضا تفاصيل حياتية، وصور فوتوغرافية تنشر - ربما لأول مرة - للأبطال الحقيقيين: الروائى المصرى الذى انتحر، وصديقته الإنجليزية كاتبة السيرة الذاتية المرموقة صاحبة الكتاب الأخير.

وكما كل رواية تبدو هنا السيرة الذاتية - أو بالأحرى السير الذاتية - لكاتبنا ذى الرواية الواحدة «وجيه غالى».

المحـــرر

البحـث عن وجيـه غـالى..!

عبد الرشيد الصادق محمودى

من هو وجيه غالى؟ قليلون فى مصر هم الذين قرأوه أو سمعوا به. وقد بقى مجهولا حتى عهد قريب عندما تناولته بعض الأقلام وتُرجمت إلى العربية روايته الوحيدة التى ألفها بالانجليزية، وهى «بيرة فى نادى البلياردو». وكان هناك صمت كامل يحيط بالرجل رغم أنه كان مصريا، وأن روايته لقيت ترحيبا وتقريظا فى الغرب. ويجدر بالذكر أن الكاتبة الإنجليزية المرموقة ديانا آتهيل ألفت عنه كتابا عنوانه «بعد الجنازة» (١٩٨٦).

ومن الأسباب التى أغرتنى بالكتابة عن وجيه غالى أننى عاصرته فى فترة الستينيات من القرن الماضى، وجاورته لأننا كلينا كنا نعيش فى منطقة هامبستد. وكانت الكتابة عنه تعنى وفقا لما تخيلت أن أعود إلى مسرح الأحداث، وأن أزور ديانا آتهيل لأجرى معها مقابلة صحفية.

وقد قرأت رواية وجيه فى أوائل السبعينيات، واسترعت انتباهى لأن مؤلفها مصرى يكتب بالإنجليزية، واستمتعت بقراءتها لمهارة المؤلف وخفة ظله وتمكنه من الإنجليزية، وإن بدا لى أنها تتسم بالنزق والسطحية. ثم مرت بعد ذلك سنوات عديدة قبل أن أقرأ الرواية للمرة الثانية وأطلع على كتاب ديانا آتهيل وأعود إلى الاهتمام بوجيه غالى.

After a Funeral
Diana Athill
Granta Books
2000



وجيـــه غــــالى

الـفـتـى المـدلـل

أريد أولا أن أبحث عن وجيه كما يبدو فى روايته: فهى تتخذ صراحة طابع السيرة الذاتية. وقد كتبها بضمير المتكلم، وإن اتخذ لنفسه اسما مستعارا هو رام. ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن علينا أن ننظر إلى الرواية بوصفها سجلا دقيقا بكل ما حدث لمؤلفها. فالمؤلف شأنه شأن سائر كتاب السيرة الذاتية يتصرف فى وقائع حياته بقدر أو آخر، ويقدم نفسه للقارئ بالطريقة التى يرتضيها. فلننقل إذن إن الرواية تصور فى مجملها أطرافا من حياة صاحبها من وجهة نظره الخاصة.

ولد وجيه لعائلة من كبار الملاك الذين يحيون فى القاهرة حياة مترفة رخية ولا يعرفون عن الريف إلا أنهم يتلقون منه ريع أطيانهم، وكانوا أصحاب ثقافة أوروبية. فهم يرسلون أبناءهم إلى مدارس إنجليزية بينما يرسلون بناتهم إلى مدارس فرنسية، ويستخدمون فى حياتهم اليومية الفرنسية بصفة خاصة. وبما أنهم كانوا يعيشون فى تلك الفترة التى تتناولها الرواية - فترة الخمسينيات - فإن الطبقة التى ينتمون إليها كانت فى طريقها إلى الزوال. ونحن نرى فى المشهد الافتتاحى خالة وجيه وهى توقع على عدد ضخم من العقود الصورية التى تتنازل بمقتضاها عن معظم أملاكها.

ويقول المؤلف: «الواقع أن وجود أب للمرء فى مصر ترف غير شائع. فأمهاتنا متزوجات وفقا للقانون وما إلى ذلك، ولكن أزواجهن يموتون فى شبابهم بحيث لا يتجاوز متوسط العمر بينهم خمسة وثلاثين أو ما يقارب ذلك. وقد انتقلت بى أمى وأنا فى الرابعة لنعيش فى بيت جدى. وعند بلوغى السابعة كانت هناك ثلاث خالات مترملات وثمانية أيتام يعيشون مع جدى وجدتى...» لغة الكاتب هنا تقريرية صريحة؛ ومن الممكن أن نستخلص منها على وجه الإجمال أن البطل قضى فترة من طفولته فى بيت جديه وأنه عاش فى بيئة تسيطر عليها النساء.

وقد حظى وجيه بكثير من المزايا التى تسبغها العائلة على أبنائها حرصا على السمعة والمظهر. فقد ذهب إلى مدرسة إنجليزية. وكان باستطاعته وهو شاب أن يجد من المال ما يكفى لحسن مظهره وللإنفاق على أناقته ومباذله بما فى ذلك الخمر والقمار. ولكنه كان رغم ذلك يحتل مرتبة دنيا فى نطاق العائلة بحكم فقره واعتماده على الخالة. وقد زاد الأمر سوءا لأن وجيه كان مشاكسا متمردا غريب الأطوار.

ويبدو أن وجيه كان طالبا متفوقا حتى إتمام الدراسة الثانوية عند بلوغ الخامسة عشرة من عمره. كما يبدو مما جاء فى الرواية أن كرم العائلة ضاق عنه عندما بلغ تلك النقطة من حياته التعليمية: فهو لم يبعث إلى الخارج للدراسة الجامعية مثل سائر أبناء العائلة، والتحق بكلية الطب فى جامعة القاهرة (وإن كنا نعرف من مصادر أخرى أنه قضى فترة فى باريس يدرس فى السوربون، كما قضى فترة دراسية فى لندن). ولعله بدأ حياة العبث والبوهيمية فى المرحلة الجامعية.

كان يتصرف كأنه من «أبناء الذوات» المرفهين المدللين رغم أنه لم يكن يمتلك الموارد اللازمة لذلك. وكان يحيا إذن حياة طفيلية محمولا على موجة العائلة كما يقول: فإذا انحسرت هذه الموجة دون تحقيق مطالبه حملته موجة أخرى من كرم أصدقائه. فقد كان يجد دائما من يدفع عنه حساب الويسكى أو من يمده بالمال للعب البوكر، أو



أقامت عشيقته «إدنا» معه فى لندن، ولكنها رفضت الزواج منه لأن لها زوجاً فى إسرائيل

من يتحمل نفقات سفره هو وصديقه فونط إلى لندن والإقامة فيها.

وتدور أحداث القصة بين القاهرة ولندن دون التزام صارم بالترتيب الزمنى. فهناك جزء افتتاحى تدور أحداثه فى القاهرة، يتلوه جزء ثان عما وقع لرام وصديقه قبل ذلك فى لندن، وبعد الرجوع على هذا النحو الى الماضى يوجد جزء ثالث تستأنف فيه رواية الأحداث كما تقع فى القاهرة. وفى هذا الجزء الأخير يضع المؤلف نهاية «سعيدة» للقصة. فالبطل يجد هنا حلا رائعا لكل مشكلاته. وذلك أن فتاة ثرية - هى ديدى نخلة - كان قد أغواها فى لندن وتيمت به حبا تقبل الزواج منه رغم إفلاسه وتقبل بالتالى أن تتكفل به وبوالدته.

وباستطاعتنا أن نقول على الفور إن هذا الجزء من القصة من نسج الخيال، لأننا نعلم من مصادر مستقلة أن وجيه غالى لم يكن متزوجا من مليونيرة عندما كتب روايته (فى ألمانيا فى أوائل الستينيات)، بل لم يكن متزوجا على الإطلاق.

معشوق النساء

أراد مؤلف رواية «بيرة فى نادى البلياردو» أن يقدم عن حياته العاطفية صورة توحى بأن كل شىء يسير على هواه. فديدى نخلة تستسلم له بسهولة وتتحمل عنه مسؤولياته. وهناك إلى جانب ديدى حبيبة أخرى، هى فى الواقع أهم الحبيبات فى حياة رام وأعلاهن منزلة. وأعنى بذلك إدنا اليهودية التى اجتمعت فيها مزايا يندر أن تجتمع فى امرأة أخرى وتجعل منها امرأة رائعة خارجة عن المألوف. فهى فضلا عن جمالها وجاذبيتها وأناقتها شديدة الثراء (أبوها من أصحاب المتاجر الكبرى فى مصر وأوروبا)، وذات ثقافة رفيعة ووعى سياسى مرهف.

ومن الغريب فى هذا الباب أن وجيه غالى - وهو الذى كان يجهل الشعر العربى القديم بحكم ثقافته الإنجليزية الصرف - يذكرنا ببعض شعراء الغزل العرب الذين يرون فى المرأة المحبوبة تجسيدا للمثل الأعلى للأنوثة وينزهونها عن كل الشوائب التى قد تعلق بجسد المرأة. فوجيه غالى يشيد على غرار أولئك الشعراء بطيب رائحة إدنا وهو يرقبها ويتنسم عرفها الطيب وهى نائمة عند ارتفاع أذان الفجر. ومن مزايا إدنا الفائقة أنها رغم ترفعها وما يبدو من بعد منالها تغدق على رام عاطفيا وماليا. وهى تغض الطرف عن مغامرات صديقها مع الأخريات، بمن فيهن ديدى نخلة. وكل شىء يوحى إذن بأن الحياة تسير على هوى رام وبوهيميته. صحيح أن إدنا ترفض الزواج منه لأن لها - كما تبين فى نهاية المطاف - زوجا فى إسرائيل. ولكن فقدان الحبيبة الأثيرة لا يغير من حياة رام ولا يترك فى نفسه أثرا ظاهرا. فهو يتحول عنها بسهولة إلى ديدى نخلة.

النفس المنقسمة

غير أننا نكتشف عند القراءة الفاحصة أن الرواية تمس بعض الأبعاد العميقة أو الوجودية فى شخصية البطل، وأن حياته العاطفية ليست صافية خالية من أسباب القلق والتمزق. فهناك - إلى جانب شخصية الفتى البوهيمى المنغمس فى متع اللحظة الراهنة - ما يشبه الذات المراقبة الناقدة التى لا تنطلى عليها حالة الهناء الظاهر، وتتشكك فى حقيقتها. يظهر ذلك بطريقة عابرة وملتوية فى أحد مشاهد الحب التى تجمع بين رام وإدنا. فمن الملاحظ أن هذه المشاهد المتعددة تخضع لنمط واحد تقريبا، وهو أن المحبوبة التى تكبر رام سنا وتبدو بعيدة المنال ترخى شعرها فى لحظة الرضا والمنح وتطلب إليه أن يصففه لها. ولكن أحد تنويعات هذا النمط يستوقف النظر: «ثم كانت لكل منا كأس أخرى من الكونياك فقبلتها على ركبتها برقة وحنان. وببطء هبطت يدها وأخذت تعبث بشعرى وتمسح برأسى على جنبها. مشهد تلقائى ربما وغير مدبر ولكن لعله رغم ذلك قد شوهد فى فيلم أو مسرحية أو أوبرا أو كتاب واستحضره الكونياك عن غير وعى.». هنا - فى هذا المشهد الذى يصور ذروة القرب - نستمع إلى صوت الرقيب: فثمة شعور لدى رام بأن ما يجرى إن كان تلقائيا أو يكاد فإنه ينطوى على شىء من المحاكاة أو التمثيل، أو أنه غير أصيل أو غير حقيقى.

وهذه الفكرة الغريبة - وهى أن ما يجرى ليس حقيقيا حقا - لا تلبث أن تتكرر وتتأكد فى الرواية. ومن ذلك أن المؤلف يرى فى بعض أقواله أن الناس - الشخصيات الحقيقية - ما هم إلا تجسيد لرؤى الفنانين. فهو يصدر روايته بعبارة مقتبسة من دوستويفسكى: «والأحرى أننا نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط خيالى... عام.» بل ويقرر ذلك صراحة عندما يقول إن الفنانين يحاولون أن يصفوا الناس بينما يصور الناس (أو لنقل: يجسم الناس) مفهوم الفنانين عنهم.

ويزداد الأمر جلاء عندما نقرأ أن طريقة الكاتب فى رؤية الناس والأحداث ناتجة عن أزمة يعيشها وتتعلق فى المقام الأول برؤيته لنفسه: فهو لا يرى أنه شخصية حقيقية. يقول ذلك فى بادئ الأمر فى معرض التعليق على حياة التطفل التى يحياها لأنه يعيش عالة على أسرته ثم يعيش عالة على أصدقائه. يقول فى هذا الصدد: «وأى حياة هذه يرب السماء؟ وهل تسمى هذه حياة؟ وهل تسمى هذا (يعنى نفسه) رجلا؟».

وهو يذكر أن الأزمة بدأت فى لندن. فهو فى القاهرة لم يكن يشعر أو لم يكن يكاد يشعر بأن حياته كعالة أو أن حياته بصفة عامة أمر غير طبيعى. ولكنه يذكر مناسبة معينة فى لندن عندما شعر لأول مرة أنه منقسم إلى كائنين: «أحدهما مشارك فى الحدث والآخر يرقب ويصدر الأحكام». وهو يقول إن الانشقاق لم يكن كاملا عندئذ. ففى تلك الفترة كانت القوتان قد بدأتا فى الشد كل من ناحية.

ومؤدى كل ذلك أن رواية «بيرة فى نادى البلياردو» وهى القصة الكوميدية تشير أحيانا إلى وجود مأساة فى حياة بطلها. بل إن المؤلف يستخدم صراحة كلمة «المأساة» فى وصف حالته: «منذ المجىء إلى لندن وأنا أتحرك نحو الأمور المأساوية وكأننى لا أتمتع بإرادة حرة».

الوعى السياسى

نكتشف عند القراءة الفاحصة أن البطل رام ليس منغمسا تماما فى حياته الطفيلية اللاهية، وأن بوهيميته وسعيه لتحقيق المتعة والمصلحة الشخصية لا يستغرق كل شخصيته، بل إن هناك جزءا من نفسه لنسمه الضمير يراقب ما يجرى ويتساءل: هل هذه الحياة التى أحياها وجود حقيقى أم أنه وجود زائف؟ هل الرجل الذى هو أنا إنسان حقا أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تحايلا وخداعا وتمثيلية أنا مؤلفها والممثل فيها والمتفرج عليها فى مسرحى الخاص؟ وتتضمن الرواية - بالإضافة إلى هذه الأبعاد التى يمكن أن توصف بالوجودية - أبعادا أخرى تتعلق بوعيه السياسى. فقد كان لرام فى البداية مواقف واستجابات سياسية تلقائية إلى أن عرف إدنا فتلقى عنها أو بفضل توجيهاتها ثقافة سياسية ومعارف تاريخية صقلت وعيه السياسى وزودته بالأسلحة النظرية اللازمة. ورام فى هذه المرحلة الواعية يبدو يساريا أو ماركسيا. بل إنه ينضم إلى الحزب الشيوعى البريطانى أثناء إقامته فى لندن. وهو يبدى من هذه المنطلقات آراء تتعلق بنظام عبد الناصر وبالمشكلة الإسرائيلية. فهو ناقد لنظام عبد الناصر وصاحب آراء فى المشكلة الإسرائيلية. ونحن إذ نتناول هنا تلك الأبعاد - الوجودية والسياسية - فى شخصية البطل مضطرون إلى نقدها - من وجهة النظر الفنية ذاتها وبوصفها جزءا من عمل فنى.

الوجود الحقيقى والوجود الزائف

فى البداية يثير بطل الرواية هذه المشكلة فى سياق حديثه عن حياته الطفيلية: فهو يعيش عالة على غيره: أهله أو أصدقائه. ثم يتكشف تساؤله عن انقسام فى نفسه بين ذات مراقبة وذات أخرى منغمسة فى التطفل واللهو والبوهيمية، أو بين ذات متفرجة وذات منخرطة فى الحدث المسرحى منساقة كأنها تخضع لقوة سالبة للإرادة. ولكن إثارة المشكلة تأتى فى عبارات وتعليقات عابرة مجردة لا يكاد القارئ يلحظها. فإذا لاحظها وتمعن فيها تبين أنها لا دور لها فى مجرى الأحداث ولا تأثير لها عليه. فإذا افترضنا أن النفس المراقبة أو المتفرجة هى الضمير، وجدنا أن هذا الضمير لا يصحو - إذا صحا - كقوة أخلاقية فاعلة: ووجدنا أيضا أو بالتالى أن الانقسام لا ينطوى على أى صراع بين قوتين، ولا يثير أى قلق (وجودى) كتجربة نفسية، ولا يغير من صورة العالم كما يدركها البطل. بل يقتصر الأمر على طرف متفرج وطرف فاعل أو ممثل فى حقيقة الأمر. ثم تنتهى المشكلة إلى الغموض والضبابية عندما تتحول إلى تمثيل فى تمثيل لا فارق فيه بين طرف وطرف. وهى عندئذ تنتهى وتزول فى خضم اللهو والعبث: ويغلب على الرواية الطابع الكوميدى. ولئن كان البطل يشير إلى أن

البحث عن  وجيه غالى

كان هناك صمت كامل
يحيط بالرجل فى مصر، رغم أن روايته لقيت ترحيبًا
وتقريظًا فى الغرب

فى حياته بعدا مأساويا، فإن الأمر يقتصر على مجرد الإشارة والإيماء؛ وليس فى الأحداث ما يدل على المعاناة والشقاء، بل إنها تجرى بخفة ونزق نحو نهايتها «السعيدة» التى يجد فيها البطل كل ما يرضيه ويشبع شهواته ويؤكد طفيليته. وخلاصة القول إن الرواية لا تفى بحق المشكلة التى تثيرها - مشكلة انقسام النفس - ولا تبرزها كمشكلة حية لها دور فى مجرى الأحداث وتأثير عليه.

رام ومسألة إسرائيل

وفى الرواية عيب آخر يتعلق بالجانب السياسى فيها. فهى تشير إلى تطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر فى فترة الخمسينيات، وتعبر عن مواقف رام وآرائه السياسية، وخاصة فيما يتعلق بثورة عبد الناصر ونظامه. ورام كما يصوره المؤلف يتمتع بوعى سياسى واجتماعى غير مألوف. فهو يدرك أن طبقة كبار الملاك التى ينتمى إليها تستغل الفلاحين. وهو يؤيد الثورة ويهلل لعبد الناصر، وخاصة عند تأميم قناة السويس. ولكنه يتحول إلى موقف الناقد للنظام الناصرى عندما يصقل وعيه السياسى بالثقافة والمعرفة ويعتنق - وفقا لما جاء فى الرواية - آراء واتجاهات يسارية أو ماركسية أو شيوعية.

وفى هذا الإطار يبدى بطل الرواية أو مؤلفها بعض النظرات الثاقبة. من ذلك مثلا أنه يلاحظ بدايات الانحراف أو التآكل فى النظام الناصرى؛ فالطبقة المعادية للثورة تحاول بنجاح استيعابها أو التداخل معها، وتحاول التغلغل فى الجيش عن طريق إلحاق أبنائها به، والضباط من ناحيتهم أصبحوا يقبلون على الانضمام إلى صفوف الطبقة المحظية، ومن ثم كان ظهورهم على نحو بارز فى نادى الجزيرة. ومن مظاهر الانحراف وفقا للرواية فتح معسكرات الاعتقال للمعارضين وتعذيبهم.

وهنا يخص المؤلف بالذكر الشيوعيين وأنصار السلام؛ فحظهم من التنكيل والاضطهاد - فيما يقول - كان هو الحظ الأوفر، إذا ما قورن بالمعاملة الهينة اللينة التى لقيها أتباع العهد البائد. وهو يقول فى هذا الصدد: «أما الآخرون (يعنى المعارضين من غير رجال العهد البائد) أى الشيوعيين وأنصار السلام والذين يرون أن ليس ثمة مستقبل اقتصادى (لمصر) دون ترتيب سلام مع إسرائيل، فهم يعذبون ويلقون معاملة سيئة للغاية». من هذا يبدو أن المؤلف لا يضع الشيوعيين فى زمرة واحدة تماما مع أنصار السلام والداعين إلى عقد صفقة مع إسرائيل لأسباب اقتصادية. كلهم معارضون لعبد الناصر، وكلهم يسامون العذاب؛ أما فيما عدا ذلك فإنهم ينتمون إلى ثلاث فئات مختلفة. ولكن خلط الأوراق يبدأ عندما يتعلق الأمر برام نفسه. فهو مقدم فى الرواية بوصفه ماركسيا، بل وشيوعيا. وهو أيضا من دعاة السلام مع إسرائيل؛ وهو ينتقد عبد الناصر لأنه يسخر ثلث ميزانيته لبناء الجيش ومحاربة «مليونين من اليهود البؤساء الذين ذبحوا فى الحرب الأخيرة». فليس من المعروف أن الشيوعيين كانوا يعارضون بناء جيش وطنى للدفاع عن مصر؛ أو أنهم كانوا ينادون بالسلام بناء على الأسباب المذكورة، أو أنهم كانوا يتوهمون أن النزاع قائم بين مصر أو العرب من ناحية ومليونين من بؤساء اليهود من ناحية أخرى. ومناصرة السلام بناء على مثل هذه الأسباب لا تختلف عما كانت تردده الدعاية الصهيونية، وتنطوى على تزييف وتضليل، وتدعو إلى التشكيك فى صدق ماركسية رام (أو وجيه) أو شيوعيته، وتقلل فى نهاية المطاف من قيمة العمل الفنية. فليس من صالح الرواية بوصفها عملا فنيا أن تقدم إلى القارئ داعية للسلام مزيفا دون أن تقيم دونه مسافة أو تتخذ منه موقفا نقديا تمليه طبيعة الفن ذاته، وخاصة فن الكوميديا.

الرواية الفريدة

ومع كل ذلك، فإن الإنصاف يقتضى التنويه بالجوانب الإيجابية فى الرواية. لم يكن وجيه غالى فى مطلع شبابه عندما كتب «بيرة فى نادى البلياردو»؛ ولكن الرواية تتميز بدرجة عالية من النضج، وخاصة إذا تذكرنا أنها كانت أول عمل روائى له. وواضح أن المؤلف كان متمكنا من لغته الإنجليزية ومتقنا للصنعة الروائية. يضاف إلى ذلك أن الرواية كانت بمثابة الحدث الخارق أو المعجزة فى حياة صاحبها، لأنها - كما سنرى فيما بعد - ألفت فى ظل ظروف حالكة، وكانت عملا من أعمال التوازن الرائعة.

ديانا آتهيل

ركزت حتى الآن على الرواية فى حد ذاتها: تصويرها لمؤلفها، ومزاياها وعيوبها كعمل فنى. وأود الآن أن أخرج عن هذا الإطار فأعرض للظروف التى أحاطت بتأليفها ونشرها. وهى قصة ما كنت لأهتم بها لولا أنها انتهت إلى نقطة تحول حاسمة فى حياة المؤلف، وهى تعرف وجيه غالى على الكاتبة الإنجليزية ديانا آتهيل. نشرت الرواية لأول مرة فى لندن سنة ١٩٦٤؛ ولكنها ألفت فى ألمانيا حيث كان يقيم فى مدينة صناعية صغيرة بالقرب من دسولدورف. وجاء فى أقوال ديانا آتهيل ويوميات وجيه أنه كان يشتغل بأعمال صغيرة غير ثابتة فى المصانع والميناء كما عمل كاتبا فى معسكر للجيش البريطانى، وأنه عاش فترات من الفقر والجوع ومعاناة البرد القارس. فكان يطرد من مسكنه، ويطرد من البارات. وكان يتعرض أحيانا للموت جوعا أو بردا حتى يجد من يؤويه.

وقد ألفت الرواية إذن فى ظل ظروف قاسية، واجتذبت ناشرا ألمانيا كاد ينشرها لولا خلاف دب بينه وبين المؤلف. فكان أن أرسل الناشر الألمانى المخطوطة إلى دار النشر اللندنية أندريه دويتش. وهناك قرأتها وفتنت بها وعملت على نشرها ديانا آتهيل التى كانت أحد مؤسسى الدار، وإن كانت تعمل بصفة رئيسية قارئة ومحررة للمخطوطات المعروضة للنشر. ومن ثم كان التعارف بين وجيه وديانا عن طريق التراسل أولا ثم عن طريق اللقاء المباشر، وكانت صفحة جديدة فى حياة المؤلف.

وولدت ديانا فى سنة ١٩١٧. وقد قضت الجزء الأعظم من حياتها المهنية فى دار النشر المذكورة، ولكنها كانت تمارس الكتابة إلى جانب هذا العمل. فقد أصدرت بالإضافة إلى الكتاب الذى ألفته عن وجيه غالى («بعد الجنازة») عدة مؤلفات من بينها رواية وكتب تقص فيها ذكرياتها عن جوانب مختلفة من حياتها: كتاب عن طفولتها فى الريف وكتاب عن قصة حبها الكبرى، وكتاب عن حياتها فى مجال النشر.

وقد جاءتها الشهرة فى شيخوختها بسبب كتب الذكريات هذه، وأصبحت فى السنوات الأخيرة تحتل مكانة مرموقة بين الكتاب الإنجليز. ويبدو لى أن مجىء الشهرة فى سن متقدمة لم يكن من قبيل المصادفة. وذلك أن ديانا آتهيل بلغت أعلى درجة من نضجها الأدبى فى كتابة ذكرياتها.

وعندما اتصلت بها تليفونيا كى أجرى معها مقابلة صحفية كان أول من رد على رجلا بدا من صوته أنه مسن. قلت لنفسى: أيكون هو لوقا؟ (ولوقا هو الاسم المستعار لصديقها الدائم الذى تذكره فى كتابها عن وجيه). ثم تراجعت عن الفكرة فورا. فقد مر على تلك الأحداث حوالى أربعين سنة. ربما كان صاحب الصوت العجوز زوجها أو صديقا آخر أو أحد الأقارب. وناداها الرجل، فجاءت. ودعتنى إلى تناول القهوة فى منزلها..

كنت عندئذ قد قرأت الجزء الأعظم من كتابها عن وجيه، كما قرأت مقالة لأهداف سويف عن هذا الكتاب. ولما وجدتنى أخوض فى غمار قصة متشابكة وشائكة ومضطربة ومثيرة للفزع والأسى، رأيت أن خير ما أفعله هو أن أجرى مع مؤلفة الكتاب مقابلة بالمعنى الدقيق للكلمة لأستوضح بعض النقاط الغامضة فى حياة وجيه غالى. وكنت معنيا بصفة خاصة بتتبع مساره بين القاهرة وفرنسا (فقد قضى فترة فيها يدرس فى السوربون) وألمانيا ولندن. فكان أن أعددت قائمة بالأسئلة التى ينبغى طرحها، وحملت كراسة صغيرة لتدوين الإجابات، وكاميرا صغيرة لأصور السيدة. ولكنى أدركت منذ الدقائق الأولى مع ديانا آتهيل أن إجراء المقابلة على هذا النحو لن يكون مجديا. سألتها مثلا عن تاريخ ميلاد وجيه فلم تستطع أن تقدم لى إجابة دقيقة. قالت إنه كان يغالط فى تاريخ ميلاده فيتظاهر بأنه أصغر من سنه الحقيقية، وأنه عبث بالبيانات المسجلة فى أوراقه الرسمية، وأنه كان كثير الكذب. وانتهينا أنا وهى بعد شىء من الحساب إلى أنه ولد على الأرجح فى النصف الثانى من عقد العشرينيات من القرن الماضى. وسألتها عن حقيقة علاقة وجيه بالشيوعية، فقالت إنه كان أبعد الناس عن الشيوعية. ولكنها تقول فى كتابها إنه أصبح شيوعيا بعد الثورة وبعد ما أصابه من سخط عليها، وإنه قيل لها إن جواز سفره قد سحب منه لأنه شيوعى. (وهى تقول فى موضع آخر من الكتاب إن السبب المباشر لنفيه من مصر كان معارضته لإنفاق موارد البلد على بناء الجيش والتسلح استعدادا للحرب مع إسرائيل). أدركت

إذن أن معلوماتها فيما يتعلق بتلك البيانات البسيطة مشوشة؛ كما تذكرت أن كثيرا مما تورده من معلومات عن وجيه مستقى من روايته دون تمحيص. وهكذا أعدت أوراقى إلى جيبى، وقررت أن أكتفى بالحديث إليها، إلا ما كان من سؤال يأتى عفو الخاطر. ولم أخرج الكاميرا مرة واحدة: فقد أغنتنى ديانا عن ذلك عندما قدمت لى كل ما أريد من صور ووثائق.

وجـــــه الجــــدى

لقد فتنت ديانا برواية وجيه غالى كما ذكرت وقررت نشرها وتبادلا الرسائل فازدادت به إعجابا وانعقدت بينهما علاقة من الصداقة حتى قبل أن يلتقيا. وعندما زارها لأول مرة فى لندن فى صيف سنة ١٩٦٣ كانت متلهفة على لقائه. فلما التقت به لم تصمد طويلا أمام جاذبيته.

وينبغى أن نتوقف قليلا عند الصورة التى بدا بها لأول مرة عندما ظهر فى حياتها. كانت قد علمت على نحو غير مباشر أنه «كائن متواضع رقيق يشبه الغزال». فلما التقت به وجدته يشبه الجدى بالأحرى؛ فقد رأت أمامها رجلا صغير القامة مقوس الحاجبين طويل الأنف طويل الشفة العليا له لحية صغيرة مشذبة بلا شارب. غير أن هذا الرجل الصغير الذى يشبه وجهه وجه الجدى كان حريصا على مظهره شديد الأناقة. ولما عرفته قليلا وجدت لديه كما تقول شعورا قويا بالأرستقراطية، أى بكل الأمور اللازمة لحسن التربية سواء أكانت مكتسبة أم طبيعية. وهى تذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لديه من الملابس سوى بدلتين (إحداهما زرقاء غامقة والأخرى رمادية مقلمة بخطوط دقيقة) وبنطلون واحد فضفاض: ولكنه كان باستطاعته دائما أن يبدو أنيقا. كان قد جعل من الأناقة فنا كما تقول. والفن فى هذه الحالة يعنى إخفاء الفقر وسوء الحال: كما يعنى إخفاء الجهد المبذول فى التأنق.

ولقد كان وجيه فى المقام الأول صاحب أسلوب سواء فى حياته أو فى كتابته. فهو يتمتع فى هذا المجال - كما لاحظت ديانا - بحس فكاهى يظهر فى حديثه كما يظهر فى كتابته؛ وكان دافعه إلى الفكاهة راجعا إلى استمتاعه الحقيقى بها. فقد كان يصف الأشياء لأنها تثير فى نفسه الرغبة فى الضحك أو الشعور بالسخط، ولم يكن لمستمعيه إلا أهمية ثانوية. حدثها وجيه فقال: «لا أطيق أن يكون المرء كاتبا، أن يأخذ فنه مأخذ الجد». فلما ردت عليه بقولها: «ولكنك كاتب وكاتب ممتاز»، كان جوابه: «لو أننى شعرت أننى أحاول أن «أصنع أدبا، أو أن «أكتب على نحو جميل» لما كتبت كلمة أخرى».

وكان وجيه صاحب جاذبية شديدة على المستوى الاجتماعى. إذا جلس فى مجموعة من الناس، اتخذ مكانه على الحافة مكتفيا بالمراقبة والإصغاء إلى أن تسنح الفرصة المناسبة لكى يتخذ موقع الصدارة فيبهر الناس بخفة ظله ودقة ملاحظته ولغته الجميلة بطبيعة الحال.

وإذا كنت أفصل القول فى تأنق وجيه وحرصه على الأسلوب، فما ذلك إلا لأننى أريد أن أربط بين هذا الجانب وغيره من جوانب شخصيته. فقد مر بنا كيف كان يرى أنه متكلف فى كل ما يأتى من أفعال، أو أنه كان يرى نفسه ممثلا فى مسرح من صنعه ولجمهور ليس سواه. كان متأنقا وكان يعلم هذا عن نفسه وكان يضاعف الجهد فى إخفاء الصنعة، وكان ناجحا فى كل ذلك بحيث أصبح الأسلوب بمثابة الطبيعة الثانية. ولكن هذا «التمثيل» إن انطلى على الناس لم يكن ينطلى عليه هو نفسه.

يضاف إلى ذلك أن الأسلوب المتقن فى حياة وجيه كان يعنى أنه كان لديه ما يخفيه. وقد كان يخفى أشياء كثيرة يمكن إجمالها فى شىء واحد، هو أنه كان صاحب نفس هشة. ولم تظهر هذه النفس الهشة فى صيف سنة ١٩٦٣ عندما زار ديانا أتهيل لأول مرة وقضى فترة قصيرة فى لندن عاد بعدها إلى ألمانيا. فقد كانا أثناء تلك الإقامة القصيرة مثل «السمن على العسل» حتى لقد حاولت ليلة رحيله أن تغويه دون أن تنجح فى ذلك. كما سافرت للقائه فى مدينة بروج البلجيكية. ولم تظهر نفسه الهشة إلا عندما جاء من ألمانيا مرة أخرى فى يونيو سنة ١٩٦٦ لينزل عليها ضيفا دائما. ورغم أن نزوله ضيفا دائما على ديانا قد أمنه شر الفقر والبرد والجوع والتشرد، فقد كان فى الواقع تمهيدا للفصول الأخيرة من حياته. وذلك أن العلاقة التى نشأت بين وجيه وديانا - كما وصفتها ديانا فى كتابها عن وجيه («بعد الجنازة») - هى التى كشفت النقاب عن النفس الهشة، ومهدت الطريق للفصل الأخير من حياته.

كانت العلاقة بين وجيه وديانا ملتبسة أشد الالتباس. كانت هى تشتهيه شهوة ممتزجة بعاطفة من الأمومة. وهى تعلل ذلك بأنها كانت بلغت أواسط العمر دون أن تنجب فضلا عن أنها كانت تكبر وجيه بعشرة أعوام. وهى تعترف صراحة بأنها ما كانت لتؤوى فتاة فى مثل حالته، بل وما كانت لتؤوى رجلا لم يرق لها؛ وهى تشبه نفسها بجوكاستا أم أوديب. وكان لها صديق دائم يقيم معها أحيانا وتسميه لوقا (وهو اسم مستعار). ولكن هذه العلاقة المستقرة لم تكن تحول بينها وبين إقامة علاقات أخرى جانبية أو عابرة. أما وجيه فكان يحبها على طريقته (لم يكن يخاطبها إلا بقوله «يا حبيبتى») ويشعر نحوها بدين ثقيل لأن اعتماده عليها كان كاملا. غير أنه كان ينفر منها جسديا. ونشأ من ثم اشتباك أو صراع لم تدخر ديانا أتهيل جهدا فى وصفه بكل ما فيه من تفاصيل مؤلمة؛ وجاءت القصة مظلمة مشحونة بالتوتر مثيرة للجزع.

ويبدو من القصة كما روتها ديانا أنها أقلعت عن محاولة إغوائه وقنعت بصداقته بعد أن فهمت منه أن من غير الممكن أن تقوم بينهما علاقة تتجاوز هذه الحدود. إلا أن وجيه ظل يشعر أنها تطارده وتنصب شباكها حوله. وكان نفوره منها يشتد مع طول إقامته معها وزيادة اقترابها منه، وخاصة فى غياب لوقا. وكان يعرب عن نفوره صراحة وعلى نحو جارح. كان ينزعج إذا ما أبدت نحوه أى بادرة من بوادر المودة، ويرى فى كل ما تأتيه محاولة لفرض نفسها عليه وإظهاره أمام الناس وكأنه عشيقها. وكان ذلك فى نظره أمرا لا يطاق: لا تكاد تلمس ذراعه حتى «ينكمش كيانه» نفورا - على حد تعبيره فى يومياته. وكان نفوره يتخذ أشكالا مختلفة من الإهانة والتحقير لها. ومن ثم نشأ بينهما ما تسميه ديانا «لعبة ديانا»، وهى تلك الحرب الممتدة التى يحاول فيها وجيه أن يهينها ويحقرها بينما تحاول هى أن تصد الهجوم دون أن تلجأ إلى الضربة القاضية؛ فقد كانت كل أوراق اللعب فى يديها.

ولكن لماذا كان ينفر منها؟ لأنها كانت فيما تقول أبعد ما تكون عن المثل الأعلى للأنوثة كما يتصوره وجيه. فالمرأة التى يهيم بها حبا لا بد أن تكون سمراء أنيقة ترتدى السواد وتبدو بعيدة المنال. وهى صفات لا تتوافر فى ديانا؛ فقد كانت بيضاء البشرة تميل إلى البدانة ولا تتمتع بالحسن وتبدو متاحة. غير أن نفور وجيه من ديانا لم يكن إلا عرضا لمشكلة أعم وأعمق. وذلك أن وجيه كما اعترف فى إحدى رسائله لم يكن يطيق العيش فى قرب مع امرأة. ما إن يتصل بها حتى يكتشف أو يتوهم ما فيها من عيوب جسدية خطيرة فيبدى نحوها النفور ويسىء معاملتها حتى تبتعد عنه أو تهدد بذلك فيتعذب ويتوله فيها حبا. وكان ذلك النمط يتكرر مع كل من عرف من النساء. لم يكن يستطيع مواجهة المرأة كما هى فى الواقع؛ ولم يكن يستطيع أن يأتى امرأة إلا وهو سكران.

وإذا كانت العلاقة الملتبسة بديانا قد أدت إلى الكشف عن أزمة وجيه مع المرأة بصفة عامة، فقد كشفت أيضا عن جانب آخر من قصوره. وأعنى عجزه عن أداء أى عمل ثابت يكفل له الاستقلال. كان وهو فى ألمانيا يمارس بين الحين والآخر بعض الأعمال الصغيرة التى لا تكفل له الشروط الأساسية للأمن وتقيه من التشرد، وتغنيه عن عطف الغير. وهكذا كانت حياته فى لندن: يكتب أحيانا أو يترجم أو يؤدى بعض الأعمال التافهة. وقد حدث ذات مرة أن كلفته ديانا هى وبنت خالتها (التى كانت تسكن الطابق الأرضى من البيت) بطلاء جدار السلم لقاء أجر، فتحمس لذلك فى بادئ الأمر ثم سرعان ما أصابه الفتور والملل، وتخلى عن المهمة قبل أن تكتمل. واستطاعت ديانا ذات يوم أن تجد له عملا ثابتا فى مكتبة لقاء مرتب متواضع لكنه منتظم، فرفض العرض على الفور. وكان إذا حصل على مال لا يستطيع أن يقاوم فى إنفاقه شياطين الخمر والقمار. وكان يضطر إلى الاستدانة من أصدقائه والتحايل فى تحرير الشيكات والسرقات الصغيرة فى بعض الأحيان.

تــــفــجــــر الأزمــــة

بلغ تأزم العلاقة بين وجيه وديانا أوجه عندما أتيح لها أن تقرأ بعض يومياته أثناء غيابه عن غرفته. هنالك وجدته يكتب قائلا على سبيل المثال: «لا جدوى من الكذب أو النفاق. لقد بدأت أمقتها (يعنى ديانا). أجدها لا تحتمل. صحيح أننى مريض. وجزء من هذا المرض، أو واحد من أمراضى... أن ردود أفعالى العقلية تتوقف على استجابتى الجسمية للأشياء. ومثال ذلك أننى أتحدث عن الحب، ولكن الحب بالنسبة لى هو الرغبة الجسمية لا أكثر ولا أقل. وهو ما يفضى بى إلى أن تكون ردود أفعالى ناجمة عن نفورى الجسمى من ديانا. أنا أجد من المستحيل أن أكون فى نفس الشقة مع شخص يجعل جسمى ينكمش. وقد أدى ذلك بى إلى مقتى لكل ما تفعله أو تقوله أو تكتبه. وأنا أفعل كل ما فى وسعى لأتفهم بشاعة موقفى ولا أستطيع تفسير ذلك إلا بأننى مريض...»

فتنــت ديـــانـــا بــــروايـــة وجيـه غـالى وقـررت نشرهـا.. ثـم تـطـور الأمـر إلى إعجاب فصداقة.. فعلاقة ملتبسة



وقد أدى الشجار الذى نشب بين ديانا ووجيه بسبب ما قرأته فى يومياته إلى وضع ينذر بالقطيعة. فقد طلبت إليه - لأول مرة - أن يغادر مسكنها، فانهار بين ذراعيها. وكان هذا الصلح يعنى أن وجيه هزم هزيمة ساحقة. كان يعيش فى بيت ديانا بفضل رعايتها الكاملة وتحت رحمتها، ولكن هذا الوضع المزرى من الناحية الموضوعية ظل محتملا بالنسبة لوجيه طالما بقى محجوبا بغلاف من الصداقة والحب. أما الآن وقد اتضح للسيدة أنه ينكمش نفورا منها ويزدرى كل ما يتصل بها، فقد هتك ذلك الحجاب وانكشفت موازين القوى بجلاء، وأصبح وضع وجيه لا يطاق بالفعل، وإن استمر فى تحمله: فلم يكن أمامه خيار آخر. ولم يكن انهياره بين ذراعى ديانا إلا اعترافا بالعجز الكامل ونكوصا إلى حالة الطفل الذى لم يعد له ملاذ من العقاب سوى حنان الأم.

كان منذ البداية يبوح لديانا ببعض أسراره الدقيقة ويخفى عنها البعض الآخر. ولكنه أصبح الآن بعد اكتشافها لما يقيده فى يومياته مضطرا لأن يبوح لها بكل شيء: فلم يعد بينهما حواجز. كانت ديانا تدرك منذ بداية إقامته معها أنه عرضة لنوبات من الاكتئاب الحاد، وأنه مصاب باضطراب عقلى، بل انه يكتب فى إحدى رسائله من ألمانيا عن طبيعة المرض ويشخصه تشخيصا دقيقا بوصفه انقساما نفسيا حاسما. فهو يصف نفسه بأنه «مجنون»، ولكن جنونه ليس عقليا، بل عاطفى. إنه من الصحة العقلية بحيث يعى حالاته العاطفية المجنونة، ولكنه لا يستطيع حيالها شيئا. وهو فى إحدى يومياته يعترف بأنه لا يختلف من الناحية العاطفية عن تلميذة من تلاميذ المدارس، ولقد نضج جسميا وعقليا، ولكن عواطفه لا تختلف عن عواطف طفلة فى السابعة أو الثامنة. وهو كثيرا ما يجد نفسه تحت رحمة هذه القوى الفتية الناضرة القاهرة. ومن ثم كان يشعر باليأس والاشمئزاز من نفسه، ولا يجد ما يرحب به أكثر مما يرحب بالموت. ولقد كان يدرك إذن أن وضعه فى الحياة وضع مزر، ويعلم أن العمل والاستقلال والاعتماد على النفس يمكن أن ينقذه من ذلك الوضع، ولكن هذا الخيار كان فى حالته أمرا نظريا فقط، لأن الطفل - أو الطفلة - فى داخله يغلبه (أو تغلبه) عمليا وتشل إرادته. ويترتب على ذلك أن الوضع المذكور لم يكن عنه بديل سوى الموت.

الأزمة بين الواقع والخيال

يفرض علينا تكشف الأزمة على هذا النحو أن نعيد النظر فى سيرة وجيه الذاتية كما عرضها فى روايته من حيث علاقتها بواقع حياته كما عرفناه على نحو مستقل. ما هى العلاقة بين خيال المؤلف وشقائه كإنسان، بين كوميديا الرواية ومأساة الانقسام والنكوص كما عاشها بالفعل. من الواضح أن مؤلف الرواية قد تصرف فى المأساة. وعلينا الآن أن نحدد كيف تم هذا التصرف.

لننظر مثلا فى نفور وجيه من جسد المرأة عند اتصاله بها. إننا لا نجد فى الرواية ما يصوره أو يعبر عنه. بل إننا نجد بالأحرى صورة مثالية للمرأة تنفى عنها كل نقص وتصورها بوصفها موضوعا للحب ومصدرا للطمأنينة. فمشاهد الحب والجنس فى الرواية تخلو بصفة عامة من التوتر ناهيك عن الشهوة العارمة، ويشيع فيها بالأحرى جو من الصفاء والمودة. لقد رأينا كيف كانت إدنا - حبه الحقيقى الوحيد - تجسيما أو تكاد للمثل الأعلى. كانت أنيقة ترتدى السواد وتتمتع بجمال نقى لا تشوبه شائبة. وكانت إذا استيقظت فجرا نعم خليلها بطيب رائحتها. وكانت تبدو بعيدة المنال، فلا تتيح له نفسها حتى يمرا بمجموعة من الطقوس تدنى حبيبها منها، كأن ترخى له شعرها كى يصففه. أما ديدى نخلة التى كانت تحتل مرتبة أدنى فى تصور وجيه للأنوثة، فكانت توفر لعشيقها سبل الراحة الكاملة: فهى متيمة به سهلة المنال ولا تبدى أى مقاومة، وهى تستقبله فى جناحها من البيت فيجد لديها كل ما يبتغى. ومن اللافت للنظر أنه كان يجد لديها ما يسميه «السكينة» (serenity) (أو لنقل: الصفاء والهدوء والطمأنينة). وللسكينة فى معجم وجيه غالى أهمية بالغة كما سنرى فيما بعد. ولكنها عندما تستخدم فى سياق الحب والجنس ذات دلالة خاصة لأنها تعنى السكون إلى المرأة والاستمتاع بحنانها وبرعايتها الكاملة.

وواضح إذن أن المؤلف قدم صورة منقحة للمرأة بحيث استبعد منها كل أسباب النفور والقلق، وأدرج فيها كل ما يرضى احتياجاته العميقة.

وقد رأيناه يتساءل فى مواضع متفرقة من الرواية عما إذا كان إنسانا حقيقيا، ويكتب عن انقسامه إلى شخصين: طرف متفرج على ما يجرى على المسرح من أحداث، وطرف آخر ممثل منخرط فيها. فأين هذه الصياغة المسرحية من أزمة الانقسام النفسى بين عقل ناضج واع ولكنه عاجز مشلول الإرادة فى مقابل طفل العواطف الطاغية الجبار؟ واضح أن الانقسام فى الرواية مختلف عن الانقسام فى الواقع. صحيح أن ثمة شبها بين المتفرج فى الحالة الأولى والعقل الواعى فى الحالة الثانية، من حيث إن كليهما سلبى؛ ولكنه شبه بعيد باهت ولا يمكن على أى حال أن يخطر على الذهن بمعزل عن معرفة الواقع. ونستخلص من ذلك أن وجيه غالى المؤلف عندما عبر عن المشكلة بوصفها قضية وجودية مجردة (عن الوجود الصادق والوجود الكاذب)، وصاغها بلغة المسرح قد محا معالم الانقسام كما يعانيه وجيه غالى الإنسان كأزمة نفسية حادة ومأساة يعانيها وتدفعه إلى الجنون والانتحار.

وشبيه بذلك ما يبديه بطل الرواية من تأفف بشأن طفيليته. وذلك أن هذا التأفف لا يعرب إلا من بعيد وعلى نحو قاصر عن حالة الاعتماد على الغير كما كان وجيه يعيشها فى الواقع وما تنطوى عليه من نكوص وطغيان للطفل القابع فى أعماق نفسه وما يترتب عليها من شعور بالمهانة وثقل الدين. ولكن الإعراب عن الأزمة على هذا النحو القاصر هو ما أراده المؤلف. وذلك أنه قرر عند تأليف الرواية أن يشير إلى مأساته من بعيد بحيث تكون الإشارة على هذا النحو طريقة لإخفاء المأساة وطمس معالمها. فالنفور من المرأة يتحول على مستوى الخيال إلى هيام بجمالها الذى لا تشوبه شائبة وحنانها المطلق، والانقسام النفسى بين العقل والعاطفة يصبح انقساما بين متفرج وممثل؛ ومعاناة شر الاعتماد على الغير يتحول إلى شعور بالتأفف وتشكك المتأفف فى حقيقة وجوده. وأيا ما كان رأينا فى المنتج (بفتح التاء) النهائى من الناحية الفنية - وهو رأى قد أبديناه فيما تقدم - فإننا لا بد أن نعترف ببراعة المؤلف فى الإشارة إلى مشكلاته الحياتية من أجل إخفائها. فكأنه حاو يتناول أفعى بخفة يد لكى يقتلع أنيابها السامة فى لمح البصر.



كان وجيه صاحب جاذبية شديدة.. يبهر الناس بخفة ظله ودقة ملاحظته ولغته الجميلة

فن التوازن الدقيق

لقد عاد الهدوء إلى البيت بعد تفجر الصراع والبكاء بين ذراعى ديانا. لم يكن وجيه يستطيع الرحيل، ولم تكن هى تقوى فى حقيقة الأمر على طرده. واقترحت عليه أن يجد لنفسه سكنا تدفع عنه إيجاره. ولكنه لم يرحل وظل يتسلل إلى غرفته أثناء نومها أو غيابها عن البيت. وقد وطنت نفسها فى نهاية الأمر على وجوده بصفة دائمة. فهى تشبه حالتهما بحالة الزوجين اللذين لا يكفان عن الشجار، ولكنهما فى حاجة كل إلى الآخر.

ولكن الهدوء كان يخفى أمرا لم تذكره ديانا ولعلها لم تقدره حق قدره، وهو أن اطلاعها على ما كان مخفيا فى يوميات وجيه أحدث مزيدا من التصدع فى شخصيته الهشة. وقد أشار وجيه إلى ذلك عندما قال لها معنفا إنها باطلاعها على محتويات يومياته تدفع به إلى الجنون الذى كان قريبا منه على أى حال. وشرح لها كتابة أن يومياته شيء وأن قراءة شخص آخر لها شيء آخر مختلف تماما، وأنه وجد فى كتابة اليوميات علاجا لحالته: فهو يستطيع أن ينفس فيها عن مشاعره بدلا من أن يعبر عنها فى الواقع فيؤذى الغير. وقد أصاب عندما قال: «فهذه اليوميات هى إذن دوائى، هى ذلك الرحم المظلم السرى الكامن فى أعمق أعماقى، هى شيء أنشأته لإنقاذ نفسى. وقد أنقذتنى بالفعل. أما أن يكشفه أحد فجأة على هذا النحو، فهو كاف لأن يصيبنى بالجنون».

ومن هذا يتضح أن وجيه لم يكن يعترض على اطلاع ديانا على بعض أسراره الدقيقة، بقدر ما كان يعترض على انكشاف أغواره النفسية المظلمة. يستطيع هو أن يبوح للغير - وأن يبوح لديانا بصفة خاصة - بما شاء من معلومات، وأن يعترف لها - كما اعترف لها بالفعل - بأنه «مجنون». ولكنه كان فى حاجة إلى الاحتفاظ بركن مظلم فى نفسه يقيد بعض أسراره فى يومياته، ولا يسمح لأحد باقتحامه؛ وكان فى حاجة إلى بقاء هذا الركن مظلما حتى يستطيع على



نحو أو آخر أن يحور فى أسراره وينقحها ويعرضها على نحو ما يريد أمام الناس؛ فتلك كانت طريقته فى الحياة الاجتماعية وفى الكتابة.

وأنا أصدق وجيه تماما عندما يرى أن الاحتفاظ بذلك الركن مطويا عن الغير كان ضروريا ضرورة الدواء لكى يحتفظ بتوازنه. يشهد على ذلك سلوكه بما فى ذلك من إدمان للكذب حتى فيما يتعلق بحقائق بسيطة لا ضرر منها مثل سنه. وتشهد على ذلك روايته. فهى نموذج ممتاز لفن الاعتراف الرامى إلى إخفاء الحقائق، مثلها مثل أناقته التى كانت ترمى إلى إخفاء فقره ورقة حاله. وهى - أى الرواية - محاولة شديدة البراعة سمح لنفسه فيها بترف التلميح إلى ما يؤلمه مع الحرص على طمس معالم المشكلة عن طريق التجريد والفكاهة والنزق. أو يمكن أن نقول بعبارة أخرى إن هذه الرواية التى هى سيرة ذاتية تعد عملا من أعمال التوازن بين الرغبة فى البوح والحرص على الإخفاء، أو بين وجيه الطفل المعربد ووجيه صاحب العقل الذكى الواعى. فقد استطاع أن يسخر هذا الطفل فنيا بأن سمح له بالعبث فى حدود محسوبة، وضمن بذلك متعة القارئ بل وتواطؤه.

ولقد وصفت رواية وجيه من قبل بأنها بمثابة العمل الخارق أو المعجزة فى حياته. وباستطاعتنا الآن وقد عرفنا الجوانب المأساوية فى حياته والظروف التى ألف الرواية فى ظلها أن نقدر بأى معنى كانت كذلك، فلقد حقق فيها رغم كل ذلك توازنا رائعا على صعيد الخيال، وبدا فيها مسيطرا على قواه المتصارعة متحكما فيها متحايلا عليها ضاحكا منها، بصرف النظر عن العيوب الفنية التى أشرنا إليها. وقد نجح فى ذلك مرة واحدة لأن روايته كانت الأولى والأخيرة. فلما فتحت يومياته أمام أعين الغير وانكشفت كل الحقائق المؤلمة على نحو صارخ فاضح، سقط القناع عن وجه الممثل الحاوى، واختل التوازن الدقيق واقتربت لحظة التصدع الكامل والانهيار. ولكننى أود قبل بلوغ هذه النقطة الأخيرة أن أتوقف عند زيارة وجيه لإسرائيل.

فكرة الزيارة

ما هى الأسباب التى دفعت وجيه غالى إلى زيارة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة؟ لا بد أنه كان يعلم أن زيارة إسرائيل فى تلك الفترة تعد عملا من أعمال الخيانة فى نظر القانون المصرى، وأنها تعنى قطع علاقته بمصر على نحو نهائى. طرحت السؤال على ديانا آتهيل، وقلت: هل يمكن أن يكون ذلك امتدادا لتأثير حبيبته اليهودية إدنا؟ وردت ديانا بالقول: كان الأمر كذلك، ولكن الزيارة كانت مفيدة له على أى حال. ولم تكن تلك بالإجابة الشافية.

وما زالت أسباب الزيارة أمرا يكتنفه الغموض. ولم تستطع ديانا آتهيل أن تلقى الضوء على هذا الموضوع فى كتابها. ويخيل إلى أن فكرة الزيارة خطرت لوجيه أو أوحى له بها فجأة، فبوغت لبرهة قبل أن يدرك أن القيام بتلك الزيارة أمر طبيعى فى حالته وفرصة لا تعوض وحيلة بارعة لتحقيق فائدة أو فوائد عظمى.

وقد نتذكر أن وجيه عندما كتب روايته كان يناصر السلام مع إسرائيل - على طريقته. ولكننى لا أعتقد أن موقفه ذلك كان له دور حاسم أو رئيسى فيما نحن فيه. فقد كانت لديه أسباب ودوافع أقوى وأشد إلحاحا، وهى التغلب على حالته اليائسة. كانت تلك الزيارة فرصة سانحة للكتابة فى صحيفة أو أخرى من الصحف اللندنية، فبذلك تفتح له - كما تخيل - أبواب الكتابة والنشر فى بريطانيا. وقد تعاقدت معه التايمز بالفعل على أن يكتب لها عن الزيارة، وأرسل لها من القدس مقالتين. ولعله أراد إذن أن يتحايل على الظروف السيئة والأبواب الموصدة، ولعله أراد أن يخدع كل الأطراف المعنية: الصحافة البريطانية (التى ما كان لها أن تسد باب الكتابة فى وجه مصرى يريد أن يكتب من إسرائيل)، والإسرائيليين والمصريين على حد سواء. فالمهم هو أن ينجح فى «اللعبة» وأن يخرج من مأزقه التاريخى ويخرج لسانه للجميع. ولعله تخيل أن كل هذه الأطراف ستراه بين يوم وليلة وقد قفز إلى صفحات التايمز ومنها إلى دور النشر على أوسع نطاق. ويخيل إلى أن وجيه لم يكن معنيا فى ذلك الوقت بأى أحد أو بأى قضية بقدر ما كان معنيا بالنجاة من الجنون أو الموت أو كليهما معا؛ فقد كان خطرهما ماثلا أمام عينيه بوضوح بالغ. وكانت تلك ورقته الأخيرة، وكان عليه أن يلعبها.

غير أن هناك أمرا آخر ينبغى الالتفات إليه فى هذا الصدد. وهو أن وجيه تعرف فى تلك الفترة على سيدة متزوجة تصفها ديانا بأنها كانت «حبه الطاهر». وتفسير ذلك أنه لم يرد من تلك السيدة التى فتن بها إلا أن تسمح له بأن يراها دون أى غرض آخر، فسمحت له، وانعقدت بينهما علاقة يمكن أن توصف بالصداقة، ولكنها تنم عن حاجة وجيه اليائسة إلى الرعاية الأنثوية. وتذكر ديانا آتهيل أن تلك السيدة «ساعدت وجيه وقدمت له المشورة وعرفته بمن يساعده عندما قرر زيارة إسرائيل». فهل كان لتلك السيدة تأثير على وجيه عندما اتخذ قراره، أم أنها ساعدته فقط على تنفيذه؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك. ولكن من المؤكد أن تلك السيدة كانت على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمسؤولين الإسرائيليين فى لندن الذين منحوا وجيه التأشيرة اللازمة لزيارة إسرائيل، ولعلها كانت أيضا على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بصحيفة التايمز التى كلفته بأداء المهمة الصحفية ودفعت له مبلغا من المال.

مواجهة اليأس

من المؤسف أن وجيه ارتكب حماقة فادحة بزيارته لإسرائيل. ولكنه لم يجن شيئا يذكر من المقالتين اللتين كتبهما من الأراض المحتلة. ولم تفتح له كتابته فى التايمز أبواب النشر فى لندن. ولم يفض مشروع زيارة إسرائيل إلى ما كان يحلم به من نجاح. ووجد نفسه بعد الزيارة فى نفس الوضع الذى كان فيه من قبل، إن لم يكن أسوأ. فقد عاد إلى السكنى فى شقة ديانا آتهيل والاعتماد عليها بعد أن حصل منها قبل سفره على وعد بأن تسمح له بالعودة؛ واستمر محافظا على عاداته المعهودة من «استدانة» وسكر وقمار طيلة سنة وبضعة شهور بعد الزيارة.

فكم بقى له من معتقداته السلامية القديمة الفجة بعد أن عاد من رحلته إلى إسرائيل وكتب عنها ما كتب؟ سؤال تصعب الإجابة عنه، ولكن ديانا آتهيل تروى أنه واصل الالتقاء بأصدقائه من الإسرائيليين؛ ومن المرجح أنهم كانوا من اليساريين وأنصار السلام (على الطريقة الإسرائيلية). ولعله كان ما يزال يعتقد أن السلام ممكن وواجب مع الإسرائيليين. لأنه رغم ما قاله فيما يتعلق بسياسة الاحتلال وضم الأراضى وتوطينها، كان يؤمن كغيره من المطبعين والمهرولين والبراجماتيين فى زمن لاحق أن الواقعية تقتضى التكيف مع الأوضاع المفروضة مهما كانت كريهة. وهو يبدو فى مقالتيه اللتين نشرهما فى التايمز كما لو كان يفترض - كما يفترضون - أن ثمة تفرقة ينبغى أن تقام بين شعب إسرائيلى متعطش للسلام، وقادة إسرائيليين تحركهم الأطماع التوسعية والدعاية الصهيونية. ولم يكن يعلم - كما أثبتت الأيام فيما بعد - أن هذه التفرقة الجذابة من الناحية النظرية لا قيمة لها من الناحية العملية. وذلك لأن المستوطن الإسرائيلى لن يتنازل عن السكن الذى يقيم فيه حتى لو سلم بأن صاحب البيت فلسطينى، وسيحمل السلاح ضد هذا الأخير المشرد وينكل به إذا ألح فى المطالبة بحقه أو طالب بأن يعيش مع المغتصب فى إطار دولة ديمقراطية واحدة.

فى تلك الفترة التى تلت عودته من القدس المحتلة كانت ديانا آتهيل قد أصبحت تتقبل فكرة وجوده فى شقتها واعتماده عليها بصفة دائمة. وهى تذكر فى هذا الصدد قصة للكاتب الروسى تورجينييف عن أهل بيت يسكن لديهم رجل عجوز لا يبدو أن له صلة بهم أو أن له دورا ذا شأن فى حياتهم سوى أنه يعيش معهم إلى الأبد ويسلمون بحضوره الدائم فى خفيه المصنوعين من اللباد. وتقول ديانا إنها أصبحت تفكر بمزيج من الشعور باليأس والرغبة فى الضحك أن وجيه سيكون هو رجلها العجوز فى خفى اللباد، وسيبقى إذن فى ركنه من البيت وسيمارس حياته المألوفة، وستتحمل عبئه دون أن تقلق عليه أو تشغل نفسها به؛ فقد تخلت بنفسها عنه ولم يعد يعنيها أمره. وقد حدث بينهما إذن ما يمكن وصفه بفك الارتباط أو التعايش السلمى. ومع ذلك فقد كان توافر الهدوء والأمن والاستقرار على ذلك النحو هو المسرح المعد للفصل الأخير من مأساته.

وكان فى تلك الفترة عاجزا بالفعل عن الكتابة، وعن الاستقلال بأى معنى من المعانى. كان قد بلغ الأربعين من عمره؛ وكان يدرك بوضوح أنه لا يستطيع عمل شىء وأن ديونه لا يمكن أن تسدد؛ وكان يأسى لحال ديانا لأنها لا بد أن تستمر فى إعالته رغم قلة مواردها؛ ولم يكن يرضى بدور العجوز المنسى فى خفى اللباد. وهكذا تبلورت مأساته فى ظل الأمن والاستقرار.

كانت العلاقة بين وجيه وديانا ملتبسة..
كانت هى تشتهيه شهوة ممزوجة بعاطفة من الأمومة..
وكانت تشبه نفسها بجوكاستا أم أوديب

الفصل الأخير

فى اليوم السادس والعشرين من ديسمبر - أى غداة يوم الكريسماس - كانت ديانا غائبة عن البيت فى زيارة إلى أسرتها فى الريف. وفى تلك الليلة بدا أن الأمور تسير فى مجراها الطبيعى. فقد خرج وجيه ليشرب حتى الثمالة وليقامر حتى آخر فلس من نقوده «المقترضة». ثم عاد إلى البيت مع صديق له ومعهما زجاجة

ويسكى. وكان باستطاعة الجيران فى الطابق الأرضى من البيت - وهم بنت خالة ديانا وأسرتها - سماع قهقهات الصديقين. ولكن وجيه تسلل بعد انصراف صديقه إلى مطبخ بنت الخالة وسرق عددا كبيرا من الأقراص المنومة. وهكذا كانت بداية الفقرة الأخيرة فى يومياته: «سأقتل نفسى هذه الليلة. آن الأوان. أنا بطبيعة الحال سكران. ولكن لو أننى كنت مفيقا لكان ذلك أمرا صعبا جدا جدا جدا... ولكن ماذا عساى أفعل غير ذلك يا حبيبتى... لا شىء، لا شىء فى الحقيقة... كان لا بد أن يحدث ذلك يا حبيتى.»

والحبيبتان المعنيتان هما ديانا وفتاة تدعى ديبدرى كانت هى آخر صديقاته وأشدهن تعلقا به وصبرا عليه، كما كانت - وهو التطور المستغرب فى حياته - تحظى بحسن معاملته؛ فقد كان يستلطفها ولا يحبها بطريقته الجنونية. ولم يفت وجيه أن يعتذر لديانا فى رسالته الأخيرة: «ديانا يا حبيبتى لا أستطيع أن أعتذر؛ فلو أننى اعتذرت لكان ذلك من قبيل النفاق الشديد. واضح أننى ما كان ينبغى أن أخلف هذا المشهد ورائى. ولكننى كسول مدلل. وأنا أترك لك يومياتى يا حبى. قد تكون إذا أحسن تحريرها عملا أدبيا جيدا. فإذا كانت كذلك، إليك ديونى كما يلى.» وقد حرص عندئذ على أن يورد قائمة مفصلة مرقمة بديونه الكبرى فى السنوات الخمس الماضية.

وهو يكتب لديبدرى فيقول: «حبيبتى ديبدرى. هناك مآس حقيقية فعلية فى الحياة، والمأساة الواضحة هى مأساة اليأس... إن أشد اللحظات درامية فى حياتى - اللحظة الحقيقية الوحيدة - أمر مخيب للآمال حقا. لقد ابتلعت موتى، باستطاعتى أن أتقيأه إذا أردت. ولكنى بصدق وبإخلاص لا أريد ذلك. إنه لمتعة، إننى أقدم على هذا لا على نحو حزين تعيس، بل العكس، بسعادة بل وفى حالة (حالة من الوجود أحببتها دائما) من السكينة... السكينة».

وهناك عدة أمور لافتة للنظر فى هذه الفقرة الأخيرة من يوميات وجيه غالى. من ذلك أنها تتضمن وصيته، وهى وصية قيد فيها ديونه بالتفصيل كما رأينا؛ وتنازل بمقتضاها لديانا عن كل ما يؤول له بعد وفاته من حقوق المؤلف على أن تسدد منها ديونه. أما ديبدرى فقد أوصى لها بعدة أشياء منها كتبه ومنها الطاولة -فهى «لحبيبتى ديبدرى» - دون أن ينسى أن ثمة قطعتين توجدان فى المقعد الخلفى من السيارة.

وها نحن نجد أمامنا من جديد فكرة الوجود الحقيقى (فى مقابل الوجود الزائف)، وهى الفكرة التى تتردد كما رأينا فى روايته. وغنى عن الذكر أن ظهور الفكرة فى هذا السياق يعنى أن وجيه كان يشعر بأن حياته كلها كانت زيفا فى زيف، وأن لحظة الوجود الحق الوحيدة مخيبة للآمال كما قال. فلماذا كانت لحظة الخلاص من اليأس المطبق - لحظة الشعور بالسكينة كما يقول - مخيبة للآمال؟ هل كان يؤمن فى أعماق نفسه ورغم كل شىء أن الحياة أفضل من الموت؟ يبدو أن الأمر كان كذلك. روت ديانا أنه عندما انهار بين ذراعيها بعد أضخم شجار لهما قال منهنها: «لا أريد أن أموت. لا أريد أن أموت. الحياة يمكن أن تكون جميلة...».

كما نجد فكرة أخرى كانت محببة إليه، هى فكرة «السكينة». وقد وردت الفكرة فى الرواية عندما زار البطل حبيبته ديدى نخلة فى جناحها من بيت أبيها. فقد وجد لديها السكينة. وكانت السكينة تعنى السكن إلى امرأة تشمله بالرعاية المطلقة حتى دون أن يحبها أو يتكفل باحتياجاتها. ولما كانت السكينة بهذا المعنى صعبة المنال أو محال أن تتحقق فى واقع الحياة، فهل يمكن أن يقال إن وجيه كان ينعم بالسكينة حقا عندما ابتلع موته؟

الكتابة كوسيلة للنجاة

لقد حيرنى التفكير فى ذلك السؤال. ولما طرحته على ديانا قائلا: كيف كان يشعر بالسكينة وهو الذى توقف عن كتابة وصيته الأخيرة ليستدعى أحد أصدقائه بالتليفون؟، ردت بقولها: «لعله كان يشعر بالوحدة». وهى إجابة لا أجدها مقنعة، وإن لم يكن لدى إجابة أخرى.

وكانت هناك مسألة أخرى حيرتنى، وهى الدافع أو المبرر الذى حدا بديانا إلى تأليف كتابها عن وجيه. وهو سؤال طرحته أهداف سويف فى سياق نقدها للكتاب وبيان عيوبه من الناحية الفنية؛ فقد عابت على المؤلفة عدة أشياء، من بينها سوء أسلوبها وانحصارها فى أفكار الطبقة المتوسطة التى جاءت منها. ومن الممكن أن تضاف إلى القائمة مآخذ أخرى، ومن ذلك أن المؤلفة أخذت فى كثير من الحالات الأخبار التى وردت فى رواية وجيه أو أحاديثه على علاتها، رغم علمها بأنه عرضة للكذب، وأنها وهى الكاتبة المحترفة تتصدى للكتابة عن كاتب مصرى مهتم بالسياسة دون أن تتقصى حقيقة الأوضاع فى مصر والشرق الأوسط. فلما سألتها أن تخبرنى بعد مرور كل تلك السنين على الأحداث التى تناولها الكتاب لماذا ألفته، قالت ما معناه إنها فعلت ذلك كمحاولة لإعادة ترتيب حياتها (أو إنقاذ نفسها). ومعنى ذلك فيما فهمت أنها حاولت أن تضع كل شىء على الورق كوسيلة للنجاة بنفسها من المأساة.

ولكن لا بد من الاعتراف بأنها بذلت جهدا بطوليا فى رعاية وجيه حيا ومصارعة شبحه ميتا. وما قولك فى ضيف ينتحر فى غرفة من شقتك وإن كان يفعل كل شىء بإتقان، ولا يترك شيئا للمصادفة؟ فهو لا يقدم على تنفيذ خطته إلا بعد أن يمارس شهواته (القمار والشرب حتى الثمالة والضحك)، ويجد من الوقت ما يكفى لكتابة وصيته بدقة لا تغفل عن شىء مهما كان صغره؛ وهو يعتذر بلباقة لا تخلو من التدلل عن اتخاذ البيت مسرحا للمشهد الأخير؛ وهو يتوقف عن الكتابة لينادى صديقا ثم يستأنفها رغم ارتجاف يده (الظاهر من الخط)؛ وهو يترك على باب غرفته ورقة مشبوكة بدبوس يقول فيها: «ديانا، لا تدخلى. اتصلى بالرقم تسعة تسعة تسعة» (وهو رقم بوليس النجدة). مثل هذا الإتقان فى إخراج المشهد الأخير وحسن الأسلوب والأناقة فى الأداء من علامات الكوابيس الرهيبة التى تصعب الإفاقة منها.

وأنا أستخدم هنا لغة المسرح متعمدا



ما هى الأسباب التى دفعت وجيه غالى إلى زيارة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة؟

لأننى أتذكر قرب الختام قولة دوستويفسكى التى صدر بها وجيه روايته: «والأحرى أننا نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط خيالى... عام». وإنى لأتساءل: ألم يحقق وجيه فى المشهد الأخير من حياته فكرة دوستويفسكى؟ لقد أتقن الصنعة بحيث يكاد يكون بطلا فى رواية بدلا من أن يكون شخصية حقيقية. كأنه كان شخصية تبحث عن مؤلف. إذا صح ذلك، فقد تحقق له ما أراد فى كتاب ديانا.

ولكن ديانا تجاوزت كل ذلك ككاتبة وإنسانة. صحيح أنها ما زالت تراجع نفسها بشأن طريقتها فى التعامل مع وجيه. فقد قالت لى أثناء حديثى معها: «لعله كان ينبغى على أن أكون أشد حزما معه». ولكنها كانت تقول ذلك بلهجة الحنان. وأنت لا تجلس الآن إلى ديانا وتحادثها إلا ويشيع حولكما جو من الهدوء والسكينة.

وجاءت فى نهاية المقابلة بالقهوة والفطائر وهى تعتذر أشد الاعتذار لأنها لم تستطع أن تجد بنها المفضل؛ بينما كنت أؤكد لها أن قهوتها طيبة المذاق والنكهة. ولما هممت بالذهاب عرضت على أن تصحبنى فى سيارتها إلى محطة قطار الأنفاق، فرفضت وإن سرنى أن تلك الفتاة التى تناهز التسعين ما زالت تجد من النشاط والهمة ما يكفى لقيادة السيارة وتوصيل زائرها إلى المحطة. وكنا نهبط الدرج نحو الباب الخارجى عندما مست الجدار بكفها اليسرى وقالت: «هذا هو الجدار الذى طلاه وجيه». وأصابنى ما يشبه الرجفة. فلم أكن قبل تلك اللحظة أعلم أن وجيه كان يسكن فى نفس المكان. (كنت أعلم أنه سكن فى بيتها فى هامبستد، ولكنى لم أكن أعلم أنه كان يقيم فى ذلك المسكن على وجه التحديد). وتحسست الجدار بدورى، وكان سيئ الطلاء لأن وجيه - كما ذكرت فى كتابها - لم يكمل المهمة. قلت مندهشا: ألم تعيدوا طلاء الجدار منذ ذلك الحين (أى منذ حوالى سبع وأربعين سنة)؟ فأجابت بالنفى: «بل تركناه على حاله». والأدهى من ذلك أن ديانا أخذت تعتذر لأنها لا تستطيع أن ترينى غرفة وجيه، فصديقها فيما قالت يقيم فيها وهو معتل الصحة فى الوقت الحاضر. (وقد كنت عند جلوسى معها أسمع بالفعل سعاله فى غرفة مجاورة). وتأكد لدى عندئذ أن كل شىء ما زال على حاله منذ رحل وجيه: فها هو لوقا صديقها العريق ما زال حيا وما زال يعيش معها. وتأكد لدى أنه هو صاحب الصوت العجوز الذى رد على فى التليفون عندما اتصلت بديانا لأول مرة. إذن لم يتغير شىء سوى أن وجيه قد رحل. ماذا كان يحدث لو امتد به العمر حتى اليوم؟ هل كان سيبقى فى نفس البيت - عجوزا نحيلا ضئيلا مهملا ينتعل خفين من اللباد - تحت رعاية ديانا؟ ليس ذلك - فيما قلت لنفسى - بالمصير السيئ طالما استمر فى الكتابة. ■



كتبها .. وانتحر!

ماهر شفيق فريد

■■ «ممتازة...»

«بيرة فى نادى البلياردو» واحدة من أحسن الروايات المكتوبة عن مصر. وقد أبدع وجيه غالى فى رسم رام، شخصيته الرئيسية، وطنياً ولكنه محب لإنجلترا رغم ذلك، بطلاً مأساوياً، فكهاً، وجذاباً. ومن خلاله يقدم لنا المؤلف وصفاً صادقاً دقيق الملاحظة للمجتمع المصرى فى فترة جيشان عظيم».

«هذا الكتاب مدهش، هادئ، خفيض النبرة، يبدو فى الظاهر دون أى ادعاءات فنية أو شكلية، ولكنه على ذلك، مدمر تماماً باستبصاراته الإنسانية والسياسية. وإذا ما أردت أن تنقل لأى امرئ ما كانت مصر عليه فى أربعينيات وخمسينيات (القرن الماضى)، ولماذا كان محالاً على الأوروبيين أو الأمريكيين أن يفهموها، فأعطه هذا الكتاب. إنه يجعل رباعية الإسكندرية لـ (لورنس دريل) تلوح أشبه بكتيب سياحى، وهى كذلك فى الحقيقة».

هذه نماذج مما قاله النقاد والأدباء عن رواية «بيرة فى نادى البلياردو» للكاتب المصرى الذى كان يكتب بالإنجليزية وجيه غالى. المقتطف الأول مأخوذ من «لندن ريفيو أوف بوكس»، والثانى من قلم الدكتورة أهداف سويف الأستاذة الجامعية والروائية المصرية التى تعيش فى بريطانيا وتكتب - هى الأخرى - باللغة الإنجليزية. أما المقتطف الثالث فهو من مقالة للناقد جابريل جوسيبوفتشى.

ويمكن أن نضيف إلى هذه المقتطفات الثلاثة أقوالاً أخرى كقول أنتونى ساتين، محرر «رسائل فلورنس نايتنجيل من مصر» (١٩٨٧) فى مقالته المسماة «بيرة بعد الجنازة»: «إنها فى تصويرها نضال فرد من أجل التكيف مع أحداث عصره السياسية حادة ذات صلة اليوم كما كانت لدى نشرها لأول مرة» (مجلة «لترارى رفيو»، أغسطس ١٩٨٧).

بيرة فى نادى البلياردو
وجيه غالى
مراجعة وتقديم: د. ماهر شفيق فريد
ترجمة: هناء نصير
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ٢٤٤ صفحة

و«بيرة فى نادى البلياردو» - الرواية الوحيدة لمؤلفها إذ لم يتم غيرها - من كلاسيكيات أدب الهجرة، تدور أحداثها فى مصر عبدالناصر وتسجل أحداثاً من قبيل العدوان الثلاثى على مصر. نشرت فى إنجلترا لأول مرة عام ١٩٦٤ عن دار أندرو دويتش للنشر، ثم صدرت منها طبعة ورقية الغلاف عن دار «ذيل الثعبان للنشر» فى لندن فى ١٩٨٧.

وقد ولد المؤلف ونشأ فى القاهرة ولكنه قضى قسماً كبيراً من حياته الراشدة فى أوروبا. وانتحر فى سن الأربعين فى لندن فى ١٩٦٩، وهو حادث سجلته ديانا أنتهيل فى كتابها المسمى «بعد جنازة»، حيث تسجل تدهور أحوال غالى ونهايته.

تراود بطل الرواية (أم هل نقول البطل الضد؟) أحلام عريضة، ويتأرجح بين الواقع والخيال، معانقاً النقائض: «أردت أن أحيا. قرأت وقرأت، وتحدثت إذنا وأردت أن أحيا. أردت أن أقيم علاقات غرامية مع كونتيسات، وأن أقع فى غرام عاملة بار، وأن أبيع الهوى، وأن أصبح زعيماً سياسياً، وأن أربح فى مونت كارلو، وأن أكون متشرداً فى لندن، وأن أصبح فناناً، وأن أكون أنيقاً، وأن أرتدى رث الثياب».

والمكان المركزى فى الرواية، كما يومئ عنوانها، هو النادى الذى يختلف إليه رام وأصدقاؤه: «النادى عبارة عن مكان فسيح يحتوى، بالإضافة إلى طاولات البلياردو التى يتوسطها سجاد سميك، على بار أنيق وعدد من المقاعد الجلدية الوثيرة. والمكان أنيق بغير تكلف، وله هيبة تجعلك تأبى الإتيان بتصرف غير لائق أثناء تواجدك به».

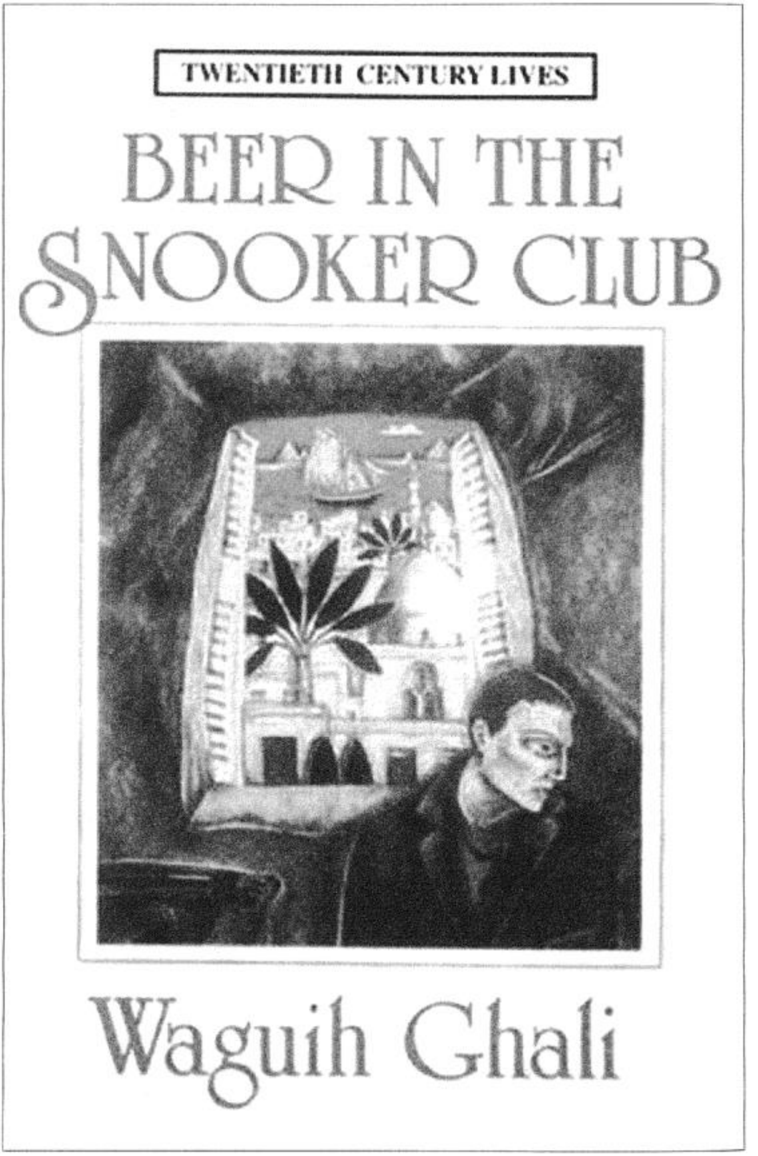
فى هذا الإطار المكانى وما يحيط به تدور درامات الشخوص: رام وفونت ومنير وديدى وإدنا والخالات وغيرهن. كما تتخايل فى المؤخرة أشباح الصحراء والنيل والأهرامات وأبى الهول. ويلقى الموقف السياسى، فى فترة مفصلية من تاريخ مصر الحديث، بظلاله على حركة الشخوص وأفكارها ومشاعرها. وتتردد أسماء ساسة وزعماء وخطباء وملوك ورؤساء: كتشنر قنصل بريطانيا العظمى العام فى مصر (١٩١١)، كير هاردى مؤسس حزب العمال المستقل البريطانى فى ١٨٩٣ ورئيس الحزب ١٩٠٦ - ١٩٠٨، هيو جتسكيل زعيم المعارضة فى البرلمان الإنجليزى وقد عارض قرار حكومة إيدن غزو مصر فى ١٩٥٦، أنيورين بيفن السياسى العمالى البريطانى اشتراكى النزعة. ومن خارج بريطانيا: لنين، وسالازار دكتاتور البرتغال، وروزا لكسمبرج الثورية بولندية المولد، وساكو وفانزتى أصحاب القضية الشهيرة فى أمريكا فى عشرينيات القرن الماضى، وفيلافورد من جنوب أفريقيا العنصرية. ومن مصر نلتقى بأسماء عبدالناصر، والنقراشى باشا، وحسن البنا مرشد جماعة الإخوان المسلمين، والملك فاروق. ومن إسرائيل: بن جوريون.

والرواية على درجة عالية من الإلماعية إذ تكثر فيها الإشارات إلى أدباء من قبيل: فيرجينيا ولف وجوركى وآرثر كستلر وآلن باتون ودوريس لسنج وأورويل وويلز شو وإشروود وو. جاكوبس وساسون (من شعراء الحرب العالمية الأولى) وهمنجواى فى إسبانيا. وعلى نحو أكثر تخصيصاً يذكر وجيه غالى رواية الكاتب الفنلندى ميكا فالتارى «سنوحى المصرى» وسيرة روبرت جريفز الذاتية «وداعاً لذلك كله»، وجيمى بورتر بطل مسرحية أوزبورن «انظر وراءك فى غضب» (١٩٥٦)، وسير روجر دى كوفرلى الشخصية التى أبدعها قلم كاتب المقالات الإنجليزى جوزيف أديسون فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الذى تلاه، ووصف سمرست موم (على نحو لا يخلو من سخرية) الحب بأنه مقدرة شخصين على استخدام فرشاة أسنان واحدة. ومن الفلاسفة يذكر المؤلف: رسل. ومن علماء النفس: فرويد. من أهل الفن والغناء والموسيقى والرقص: بول روبسون، جوزفين بيكر، وموريس شيفالييه.

بدأت هذا التصدير بإبراز ثلاثة مقتطفات، وأود أن أختمه بما قالته باحثة رابعة هى الدكتورة نادية جندى، أستاذ الأدب الإنجليزى بكلية الآداب، جامعة القاهرة، فى بحث لها بالإنجليزية عنوانه: «هبة مولدنا: صورة مصر فى عمل وجيه غالى» تقول الباحثة إن رواية «بيرة فى نادى البلياردو» تستكشف عدداً من القضايا وتطرح بعض أسئلة أساسية. إنها معنية بالتغير والثورة ولكنها توحى - فيما يبدو - بأنه لا شيء يتغير حقيقة. وهى تنتقد اتجاه عديمى الحساسية الذين يتجاهلون كلية كيف وأين يعيش الفقراء. وهى تعالج مقدرة المصرى على أن يتقبل - بروح فكهة رضية - أى موقف مهما يكن حظه من المشقة أو الصعوبة. وهى تمس القرابة بين المصرى وسواه من المصريين، قرابة - من خلال الفكاهة - تتجاوز الطبقة. وأهم من ذلك كله أنها تكشف عن الحيرة والصراع فى داخل المصريين الذين تلقوا تعليماً وثقافة أجنبيين غرست فيهم. ومن المهم أن نلاحظ أن رواية غالى قد ظهرت قبل رواية «زمردة أيوب» لبدر الديب.

يحاول وجيه غالى - ببساطة وحذق

هذه الرواية تهيمن عليها نساء قويات الشكيمة.. أما الرجال فضعفاء يعتمدون على نسائهم

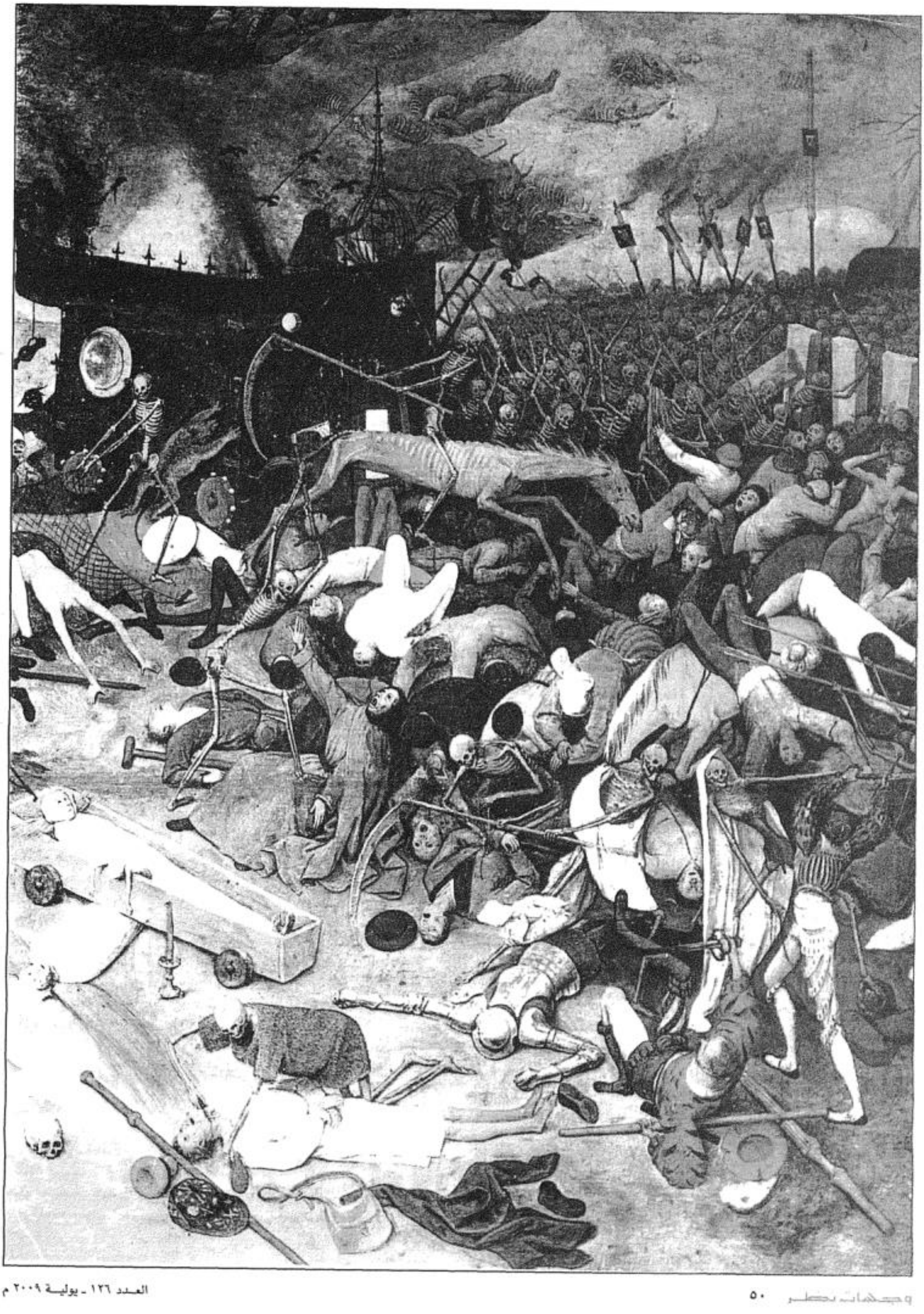


ـ أن يواجه القضايا من خلال مجموعة متنوعة من الشخصيات والمواقف. وتاريخياً كان لمصر علاقة حب ـ كراهية طويلة الأمد مع الثقافات الأوروبية. وقد انعكس هذا ـ عبر العصور ـ فى كتابات المصريين والأجانب عن مصر (نجيب محفوظ، دريل، ايزايت، نيوبى... إلخ).

ومن الأوجه الشائعة ـ لأنها غير مألوفة ـ للرواية الجو الأمومى الحاضر فيها. فأغلب الكتاب عن مصر يجنحون إلى أن يصوروا المرأة المصرية إما على أنها رمز لمصر أو بوصفها أماً أو زوجة أو موضوعاً جنسياً مسحوقاً. أما هذه الرواية فتهيمن عليها نساء قويات الشكيمة، هن فى أغلب الأحيان من الأرامل، كلهن خالات أو صديقات لخالات رام، كلهن، باستثناء أمه، غنيات ـ وبالتالى ـ قويات. أما رجال الأسرة فضعفاء ويعتمدون ـ على أكثر من نحو ـ على نسائهم. وإنه لمن خلال تفاعل رام وعلاقاته المتشابكة مع الشخصيات النسائية الرئيسية فى الرواية يتم استبصاره معنى أن تكون مصرياً ويرد ـ مصدوماً تقريباً ـ أنها هبة لدى الميلاد، وأنها ـ ككل الهبات ـ تُخلع ولا تكتسب.

احتساء البيرة فى نادى البليياردو، والويسكى فى جروبى، ولعبة البريدج، والكروكيت، والسباحة فى نادى الجزيرة الرياضى، وتناول العشاء على سطح فندق سميراميس المطل على النيل: هذه هى الأجواء الكوزموبوليتانية التى تتحرك فيها شخصيات الرواية، شخصيات غنية مصقولة تضرب بسهم فى مصر وأوروبا على السواء.

صدر وجيه غالى روايته بقول دوستوفسكى: «نحن، بالأحرى، نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط قصصى خيالى عام». وأحسب أن القارئ الكريم سيوافقنى ـ فور انتهائه من قراءة الرواية ـ على أن المؤلف قد حقق هدفه هذا، وتمكن من تحويل هؤلاء الأفراد (دون أن يفقدوا طابعهم المميز) إلى رموز عامة تمثل لحظة تاريخية بعينها، فى إطار مكانى بعينه. ولا شك فى أن القارئ سيجد من المتعة ما وجدته فى قراءة هذه الترجمة العربية الدقيقة الجميلة من قلم هناء نصير، مراوحة ـ فى لغة موفقة ـ بين استخدام الفصحى والعامية فى بعض مواضع الحوار. ■



انتصار الموت
لوحة بيتر بروغل الأكبر
١٥٢٥/١٥٦٩

من تاريخ الانتحار

هنرى دى مونترلان
الحياة خارج الزمن

محمد المهدى

قال هوميروس (الانتحار حدث طبيعى وبشكل عام عمل بطولى). وقال كافكا (المقدم على الانتحار هو ذلك السجين الذى يراهم يعدون له منصة الإعدام فى الساحة ويعتقد أن هذا قدر يقرره بنفسه.. يهرب فى الليل من زنزانته، ينزل إلى الساحة ويشنق نفسه). وقال ألبير كامى (الانتحار يتم فى سكون القلب مثل عمل فنى عظيم). وقال بلزاك (كل انتحار هو نظام راق للحزن). وقال دستويفسكى: (هناك سببان يجعلاننا لا نقدم على الانتحار: الألم والخوف من عالم آخر. ومن الواضح أنه حينما تلغى الأبدية تصبح فكرة الانتحار ضرورة مطلقة لكل إنسان يستطيع أن يرتفع إلى درجة أعلى من الحيوان. إنى أقتل نفسى لأؤكد حريتى الجديدة المخيفة).

وقال نيتشه: «الموت انتظر هذا ما علمه زرادشت. أنا الذى أمركم بموتى.. الموت الإرادى الصادر منى لأننى أرغبه». وقال روسو: «بأى حق نلوم من يقدم على الانتحار. الموت هو التفكير فى الحرية. الانتحار هو انتصار الإرادة البشرية على الأشياء» وقال موريس باريه: «الانتحار هو الاعتقاد بأن هناك شيئاً جاداً فى العالم».

هكذا تحدث بعض رجال الفكر الغربى عن الانتحار مؤيدين أو متحمسين، وتحدث بعض رجال الدين أو الدولة أو المفكر معارضين للانتحار فقال أرسطو: «الانتحار عمل ضد الدولة»، وقال نابليون: «الانصراف إلى الحزن دون مقاومة. الانتحار للهرب. انسحاب من أرض المعركة دون قتال»، وقال باسترناك: «الموت ليس عملنا»، وقال القديس أوغسطين: «ليس من حق إنسان أن يعطى الموت لا بسبب البؤس أو بسبب الخطيئة ولا بسبب ذاتى.. إننا فى النهاية نقتل. نقتل إنساناً»، وقال القديس برينو «المنتحرون قتلة يعملون لحساب الشيطان»، وقال البابا نقولا الأول: «من ينتحر يشبه يهوذا أنه يتبع الهامات الشيطان»، وقال اسبينوزا: «من يسعى إلى الموت يفتقر أوجه للإرادة»، وقال شكسبير: «أليست خطيئة أن نسارع إلى منزل الموت السرى قبل أن يأتينا؟».

وجاءت بعض الأقوال حول الانتحار فى منطقة الوسط، فقال سارتر: «فى بعض المواقف لا يوجد محل للاختيار بين عدة أمور منها الموت، ولابد من أن يوجد هناك ما يتيح للإنسان اختيار الحياة». وقال دوركايم: «الانتحار ليس أكثر من حدث اجتماعى وليس أخلاقيا، وأى شكل للانتحار لا يتعدى المبالغة فى تصور الفضيلة». وقال فرويد: «الانتحار جريمة استبدال. حدث عدائى محول يرتد على المنتحر».

الأصـــــول

فى الغرب غالبية رجال الدين والدولة يعارضون الانتحار، وغالبية رجال الفكر والأدب والفن يقبلونه، من سقراط الذى يجرع السم طوعاً إلى مونترلان الذى أطلق النار على نفسه منذ ٣٦ عاماً قصة طويلة، جذور فكرية، فروع نمت وتأصلت.

يحكى تاريخ الرومان قصة القائد (كاتون) ٩٥ ـ ٤٦ ق. م دخل فى صراع مع قيصر وهزم فى الحرب أمامه. انسحب إلى معسكره وتجمع حوله الأبناء والأصدقاء. بحث عن سيفه وقال: «سعيد من يترك الحياة خاصة من يستطيع ذلك عمداً». حاولوا تحويله عن فكرة الانتحار، ولكنه كان هادئاً فى قراره. قرأ كتابه ونام ثم قام وتناول سيفه. شق أسفل بطنه. خرجت أمعاؤه ولكنه ظل حياً. هرع إليه الأحباء والأطباء، حاولوا مداواة الجرح، أزاحهم بعيداً وأمسك بشق بطنه فزاده بيده اتساعاً.. وخرجت أنفاسه الأخيرة.

كاتون كان من أتباع الفيلسوف اليونانى الرواقى ـ زينون ـ القرن ٤ ق. م، الذى سقط ذات يوم فانكسر إصبعه. ضرب الأرض فى غضب قائلاً: أتطلبيننى إننى جاهز.. وانتحر.

> «منذ هذا الصباح لن أكتب
> (افتحوا أبواب الأبدية)
> ولكنى سأكتب
> (اقفلوا أبواب الأبدية)
> من سيقرأ أعمالى
> بعد عشر سنوات؟».
>
> مونترلان

زينون أو الرواقية كانت ترى أن الكون عقل عظيم أو هو الإله الأكمل والإنسان جرمه الصغير. شعلته أو ممثله على ساحة الطين، جرم ينسجم مع الكون الكبير.. فيه نفثة نارية تتجمل بالذكاء. وغاية هذا الإنسان النارى أن يسعى إلى الكمال باحتقار المغريات والآلام والمشاعر، الخضوع للعقل الكامل الذى يرسم لوحة الفضيلة المتسعة الألوان. يجتاز كل برازخ الألم وينهل من ينابيع الحكمة. وكان طبيعياً لهذه الفلسفة المثالية الخيالية أن ترى فى الانتحار حلاً مثالياً عندما تهتز لوحة الفضيلة العقلية على جدار الواقع الردىء.

وسبق زينون وتحلق الأعوام من حوله فى الرواق، جماعة أخرى اختارت الطبيعة مسكناً. اختار لها صاحبها ـ ابيقور ـ ٣٤١ ـ ٢٧٠ ق. م حديقة عرفت باسمه، وعرف بين أعوانه كبطل فى تحمل آلام المرض. جعل من هذه الآلام فلسفة. يجب أن يتحرر الإنسان من الخوف. الخوف من الآلهة أو الآخرة. الحياة تقوم على المصادفة. الأجسام مجرد كتل ذرات. ذرات تحركها حركة من أعلى إلى أسفل. تتكون الكتل. تتحلل الكتل. تذهب إلى اللا شيء.. ليس هناك حياة أخرى. فلا داعى إذن للخوف. لا يبقى للإنسان سوى الحياة. متع الحياة. ولكن ليست المتع الحسية الزائلة. ففى داخلها بذرة العذاب. إنما المتع المستقرة الاكتفاء بكسرة خبز ورشفة ماء وطاقة داخلية تصهر الحديد. تصهر الموت نفسه. يقول ابيقور: «عليك اعتياد الموت لأن الموت لا شيء. كل ما هو خير أو شر فى هذه المحسوسات. وليست الحكمة فى العيش طويلاً ولكن فى العيش هنيئاً. ليس ما يدعو لخوف الإنسان. فالهدف النهائى يجب أن يكون إبعاد الأحزان والعذاب.. وحينما يصلان إلى حد لا يحتمل أو دائم فالانتحار سبيل رفيع».

مذهب يدعو للمثالية العقلية وينتهى إلى الانتحار. ومذهب يدعو إلى التحلل من العقائد ويدعو للزهد وينتهى أيضاً إلى الانتحار. إذن لا خلاف فى النتيجة بين زينون وابيقور. استهانا بالحدث الأكبر. أن تموت بالزمان أو المكان ما الفرق؟ الوجود أو العدم ما الفرق؟ المهم ما بينهما. ولكنهما لم يحددا زمن ـ الما بين ـ فهذا التحديد جدير بإفناء الجنس البشرى.

الفـــــروع

هذا الزمن وبعد أكثر من ألف عام قتل ـ مونترلان ـ نفسه فى سن السادسة والسبعين. بعد حياة حافلة بالإنتاج الأدبى والمكانة والشهرة. تناول مسدسه ولا ندرى بأى انفعال.. تردد أم إقدام أم خوف أو هدوء أم يأس أم جنون أم غضب.. أم ربما حب كما قال البعض. وقتل نفسه فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٧٢م.

لحظة درامية ستظل خفية كلحظة الميلاد. فكما لم يحدثنا أحد كيف أحاط به الموت أو أحاطت به انفعالات اللحظة الأخيرة. لم يحدثنا أحد كيف أحاطت به الحياة أو أحاطت به انفعالات لحظة الميلاد.

تحدث مونترلان عن الانتحار ولكنه فى النهاية حديث.. إحكام فكرى أو شعورى وليس لحظة تنفيذ.. قال:

● أتعرف أن الأمر لا يعدو انتظار ـ الحافلة ـ حتى تسحقنى.. ستحررنى من ضرورة قتل نفسى.

● أتقتل أنه أمر يكشف للجميع وبشكل قاطع عدم إيمانك بالله؟

● إننا ننتحر احتراماً لموقف. عندما يحول المرض أو السن حياتك إلى مأساة. هل هناك أكثر تشريفاً واحتراماً من الالتزام بموقف؟ إننا ننتحر من أجل الحياة أو عندما تتوقف الحياة عن أن تكون جديرة بنا.

● هزيمة أو انتحار.. هذا هو المهم. الانتحار يثبت

الصداقة مع مونترلان تقتضي الإخلاص وتقتضي أيضاً الكتمان

أمرين للإنسان. شجاعته وسلطانه، حينذاك «يغمر» الانتحار حياته كما يغمر اللهب الشعلة.

لم يبق لنا التأمل لحظة «مونترلان» الأخيرة سوى التصور ومحاولة التحليل وشاهد أخير.. إلى حد ما قريب.. فقد كتب الكاتب - فيليب دي سان روبير - مؤخراً عن أيام مونترلان الأخيرة وكيف شهدها منذ عدة عقود.

في عام ١٩٥٧ ذهب صحفيان هما جابريل ماتزنوف Gabrial Matzneff وفيليب دي سان روبير Philippe De Saint Robert إلى الكاتب هنري دي مونترلان لإعداد عدد خاص عن حياته وأدبه لمجلة «بروتكست» Pretexte لم يصدر هذا العدد ولكن مقابلة مونترلان ظهرت في كتاب صدر عام ١٩٥٩ بعنوان: «مونترلان من وجهة نظر الشباب بين السابعة عشرة والسابعة والعشرين».

كتب ماتزنوف عن مونترلان والجيل القديم، وكتب سان روبير عن بعض مؤلفات مونترلان وصلتها بالمسيحية والفلسفة الرواقية التي كونها زينون اليوناني في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. ومنذ لقاء مونترلان وسان روبير صارا صديقين إلى آخر يوم من مونترلان. صار روبير شهده الأخير والوحيد قبل رحيله الاختياري.

الصداقة مع مونترلان تقتضي الإخلاص وتقتضي أيضاً الكتمان، كان يعلق بصورة تبدو ساخرة خارج نافذة بيته - مانيكان - من النوع الذي يستخدمه الأطفال كهدف لقذف الحجارة أو إطلاق السهام. مانيكان كان يبدو رمزاً للاتصال والانفصال عن العالم الخارجي. كان خجولاً وكغيره من أصحاب الحساسيات الشديدة كان يخشى من اطلاع الآخرين على حقيقته.

يحكي سان روبير أن أول لقاء بينهما كان في منزله في شارع فولتير - ظل يسكنه طوال حياته - وأعد مونترلان العديد من الأوراق والوثائق وأعد الحديث. ثم كان لقاء آخر في حديث إذاعي دون إعداد. جاء حديث الإذاعة العفوي أكثر حيوية وإثارة وصدقاً من الحديث المعد.. وكانت هذه مشكلته.. العراك الدائم بين الداخل والخارج.

من سيقرأ أعمالي بعد عشر سنوات؟

اكتشف سان روبير شخصية أخرى لمونترلان تعيش خلف الأسوار تخلع القناع الذي تقابل به الآخرين في رتابة الحياة اليومية. يقول روبير: كنا نتناول طعام الغداء، في مطعم - فولتير - أو - فريجات Fregate - في المناسبات العادية. وحينما كان يريد أن يحييني على مقال كتبته كان يدعوني إلى.. اللوزيري دي ليلا Closerie Des Lilas - أو الريجنسي - أو - مونتالمبير Mentalembert - أو بيل جومان Belles Gourmandes - في مطعم فولتير حافظ دائماً على طاولته في العمق إلى اليمين.

أمام مطعم - الكلوزيري دي ليلا - كان هناك - كشك - لبيع الصحف، له ذكريات خاصة عند مونترلان، فقد استمع منه إلى أول نداء للتعبئة العامة عام ١٩١٤. كتب مونترلان إلى أندريه مالرو عندما كان وزيراً للثقافة يرجوه أن يمنع هدمه كما كان مقرراً.

مونترلان كان لديه شعور بأن عالماً حميماً يختفي.. هل يستطيع أن يسحبه معه إلى ركن معزول؟ مؤلفاته الأخيرة كانت تحوي هذه النكهة المتسربة كان يخشى عليها من الضياع، كتب كرد فعل أو كمحاولة للاحتفاظ بزخرفة الخاص (كل شيء جميل).

ولكن كان كل شيء جميلاً في خياله. أما واقعه فيقول عنه روبير: كان آخر غداء تناولناه سوياً في يوليو عام ١٩٧٢، قبل وفاته بشهرين تقريباً. كنا نراجع المقدمة التي كتبتها لإعادة طبع مسرحياته الصادرة عن دار «بليار». شملت هذه الطبعة المؤلفات المسرحية الأخيرة التي كتبها قبل «الباب الملكي» طلب مني مونترلان أن أقابله في نهاية اليوم، فقد كان منزعجاً لتناوله الغداء مع شخص رتيب.

وصلت قبل الموعد، في لحظة خروجي من السيارة رأيته قبل أن يراني عائداً إلى بيته في خطوات وئيدة يبعد بيديه مارة يتخيلهم، فقد كان الشارع خالياً تقريباً. يتدثر في معطف مطر قديم يمسك بعصاه. بدا لي في حالة حزن لا توصف، وعندما رآني أخيراً أضاءت وجهه ابتسامة ود لم أرها من قبل على هذه الصورة. أدهشتني وجعلت قلبي ينقبض في حزن سابق لأوانه.

جلسنا نقرأ المقدمة التي كتبتها لساعات طويلة. لم أكتشف حالته النفسية التي كان يعيشها إلا حينما ألح في أن أحذف عبارة وردت في المقدمة. عبارة تخلو من المبالغة ولا تتعدى نوعاً من المداعبة لأساتذة الجامعات الذين يدرسون ويكتبون عن أعمال مونترلان.. قال:

- لم أتدخل من قبل في حريتك في الكتابة.. ولكني أطلب منك باسم الصداقة أن تلغي هذه العبارة.



هنري دي مونترلان

> **«انتحر لأنه يحب الحياة ويكره أن يرى نفسه يتقلص ثم ينتهي»**
>
> الكاتب سان بيير

- بكل ترحاب ولكن أطلب فقط أن تشرح لي لماذا؟

- لماذا؟ «لأنه بعد عشر سنوات لن يكون هناك من يقرأ أعمالي سوى الأكاديميين. أنت تسخر منهم لأنهم يعدون الرسائل الجامعية وبما أنهم مغرورون فإنهم سينفرون ولن يذهبوا أبعد من ذلك».

انتحر لأنه يحب الحياة..

خلال شهر أغسطس أي بعد هذه المقابلة مع سان روبير بشهر واحد، وقبل رحيله أيضاً بشهر واحد كتب مونترلان آخر مؤلفاته في حمية وحماس. كتب كتابه - ولكن هل نحب حقاً من نحب؟ - يحكي مونترلان حلماً شاهده في ٢١ ديسمبر عام ١٩٧١ فيقول: «شاهدت في هذا الحلم شخصاً كنت أحبه منذ فترة بعيدة. استيقظت فجأة على ضربات قلبي السريعة. كان مصدرها ظهور هذا الوجه القدسي، درت بوجهي إلى الناحية اليسرى في اتجاه الحائط، حتى أخنق هذه الضربات في الحاشية، هيئ لي إنني أرسلت الضربات عبر الحاشية إلى مركز الأرض».

أظهر هذا الحلم لمونترلان أن حبه الوحيد كان طوال حياته هو هذه الشخصية وأن أحباءه الآخرين لم يكونوا سوى كاريكاتير أو نسخ مكررة لها.. «هذه الزيارة الهادئة قلبت داخلي.. لقد قلبت الفكرة التي اعتنقتها طوال حياتي. نحن لا نحب سوى مرة واحدة. هذه الفكرة فتحت أمامي أبواباً من الحزن. كل ما قرأت وربما فكرت وربما كتبت للآخرين لم يكن إلا إجلالاً لها».. أضاف أيضاً يقول: «هذا الحلم إنه عالم ينتهي. ليس فقط بالنسبة لي فإنني سأنتهي بالتأكيد ولكنه عالم ينتهي في ذاته. في المجتمع الجديد من سيفهم هذا النوع من الحساسية التي أشبعت كل مؤلفاتي من الكتاب الأول ودخلت في مسامها؟ لن يكون لعالم الغد دراية بذلك. واليوم من سيفهم مهما حاولت إجادة التعبير. ماذا سيمثل هذا الحلم بالنسبة لي؟ هذه المشكلة لن تتوقف عن الإلحاح. منذ هذا الصباح لن أكتب (افتحوا أبواب الأبدية) ولكني سأكتب (اقفلوا أبواب الأبدية)».

وكتب سان بيير يقول: «إن مونترلان لم ينتحر كما كتب لأنه يكره الحياة، على العكس لقد انتحر لأنه يحب الحياة ويكره أن يرى نفسه يتقلص ثم ينتهي».

يتقلص وينتهي وهو ما يزال على قيد الحياة. إنه لا يطيق الموت قبل الموت، الموت الأدبي، الأخلاقي، الفردي هو الموت الحقيقي، وما فائدة عيون تبرق في عالم غائب. كان يرى عالمه وعالم زملاء قلمه، ينشطر بين داخلي وخارجي. لم يكن استقلالاً، فالاستقلال عنده كان نوعاً من العشق يتكامل حينما يخصص. كما قال - غرفة في مسكنه لأي مريض عابر. مونترلان لم يكن وحيداً تماماً، كانت له صديقة عجوز اسمها مارجريت أوز تحدث عنها سان روبير تسكن على بعد خطوات من مسكنه وحينما كف بصرها كان يحدثها تليفونياً صباح مساء.

في ١٤ سبتمبر عام ١٩٧٢ كان سان روبير مدعواً على مائدة رئيس الجمهورية جورج بومبيدو وكان يقلقه ما يلاحظه من تطورات حزينة على خطوات مونترلان من إيقاع ثقيل يغزو فراشه ويسهره لليال طويلة. قلق مصدره شعور مونترلان بالعزلة داخل وطنه. أصابه

جرح عميق فى داخله. تحدث مالرو عن جانب آخر من حياة مونترلان فقال: «إنه ليس فقط أعظم كاتب فى زماننا ولكنه أيضاً من أشرف وأعظم المقاتلين.

على المائدة تحدث سان روبير مع بومبيدو عن حالة مونترلان النفسية السيئة. وعد بومبيدو بتدارك نسيان الدولة لمكانته. سأل:

● هل يسعده ذلك؟

● أعتقد أنه لن يكترث كثيراً، ربما يصير فخوراً. عندما يعلم بمحاولتى ولكن الأمر سيكون أكثر تأثيراً إذا صدر عن مبادرة طبيعية، سيتكامل شرفنا حينذاك.

● سأصدر تعليماتى لتدارك هذه العزلة البليدة.

وفى يوم ٢١ سبتمبر انتحر مونترلان وبعدها بستة أيام كتب بومبيدو لسان روبير يقول: لقد تحدثنا فى أمر مونترلان. ولكن الأمر انتهى الآن. إننى آسف لعدم استطاعتى استباق ما أقدم عليه.. إننى حزين لذهاب أستاذ عظيم من أساتذة لغتنا.

ويحكى روبير عن اليوم السابق لانتحار مونترلان، فيقول إنه اتصل به تليفونياً يوم ٢٠ سبتمبر ليتفق معه على تسليم ما كتب.. سأل مونترلان:

● فى أى ساعة أحضر؟

● لا أدرى إذا حضرت فى الصباح أصعد ودق الجرس، وإذا حضرت فى بعد الظهر لن أستطيع استقبالك.. اترك خطاب تحت الباب أو عند البواب.

فى الساعة الرابعة إلا خمس دقائق تركت خطابى عند البواب وفى الساعة الرابعة بالضبط علمت فيها بعد أن مونترلان أطلق النار على نفسه.. ماذا لو صعدت؟ لو إننى دققت الجرس فى هذه الساعة بالضبط؟

يا لها من أسئلة، لكن لماذا اختار مونترلان يوم ٢١ سبتمبر موعداً لرحيله. لقد زور فى السابق تاريخ ميلاده تهرباً من المطاردة الرسمية.. فلماذا لم يغير تاريخ رحيله.. اختار موعد الميلاد وحدد موعد الرحيل.. يوم ٢١ سبتمبر موعد الخريف.. تعادل الليل والنهار. لكن الليل انتصر. تعادل «النعم» مع «اللا» تعادل الموت مع الحياة.. لكن «اللا» والموت سيكون لهما النصر على النعم والحياة.. فى الصيف هناك شيء يفيض ولم تكن فكرة انتحاره وتوقيتها مجرد صدفة..

لقد اختار لخريف عمره اليوم الأخير من الصيف لينتهى به.

يقول البعض إن مونترلان خلق من الضعف قوة وأن شخصيات أعماله الأدبية كانت من صنع ذاتها، وقد أعطاها ذلك الحق فى التكامل فمهما داخلها الباطل إلا أنها كانت تنتهى بالتصالح مع نفسها.. لكن مونترلان لم تتوفر له هذه المصالحة إذا ما حاسبته بمنطق اليأس من حياته.. ولكنه كان بالتأكيد مخلصاً لفكره وعقيدته وزمنه.. حاسب زمانه الخاص حساباً عسيراً واعتبر نفسه من سلالة منقرضة مع بقايا الرومانسية أو الذاتية.

كتب فى أيامه الأخيرة تعليقاً على عام ١٩٧٢ يقول: عالم يموت فى سن الثانية والسبعين.. قومية ودين.. لمحة حزينة من فنان عشق قيماً خاصة للحياة والإيمان.. لكنها قيم تتناقض أو تتغير فى لحظة لا يمكن أن نتغير معها وقد قيل لابد من تغيير كل شيء حتى يستمر كل شيء.

أين الوجود الإلهى فى حياة مونترلان كان لشخصيات رواياته مشدوداً بين الإقبال برفض أو الإحجام بقبول.. كتب ديجول رسالة قال فيها عن مونترلان: «لقد حاز مونترلان بشكل نهائى حافة المحيط الدينى ولم تترك عبقريته عيونه أو روحه تتوهان عن ارتياده، ولكن مونترلان قال: أنا لا أؤمن إلا بالمؤمنين.. حينذاك يصعب علينا فهم أى مؤمنين؟!

اختيار الزمن أيضاً كان موضع قلقه وموضع شجاعته هل انتحاره فى هذه السن المتأخرة له دلالة؟ لم تكن لتأخرها ولكن لنوعيتها. وتبين النوعية يحتاج إلى خبرة الزمن، فقد قال محدثاً الشباب الذين يفكرون فى الانتحار: «موتكم موت ضائع.. إننى أقول ذلك ليس من قبيل الواجب، فعدد كبير من المنتحرين لو فكروا لمدة ساعة واحدة لأحجموا، على الأقل امنحوا أنفسكم هذه الساعة».

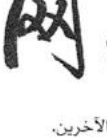
لكل إنسان زمنه وعقيدته وقد يكون زمن الإنسان العابر نموذجاً لعقيدته الدائمة، وقد يكون زمنه هو عقيدته الزائلة، وعندما يشعر الإنسان بذهاب زمنه قد يشعر معه بذهاب عقيدته.. يهتز داخله ويسقط بلا تردد. مونترلان ابن تراث الفيلسوف زينون والقائد كاتون وابن شهداء المسيحية والحاد القرن العشرين طلب فى وصيته أن ينشر رماده على مدينة روما ونفذت الوصية فى ٢١ مارس عام ١٩٧٣. ■

كتاب الزاوية

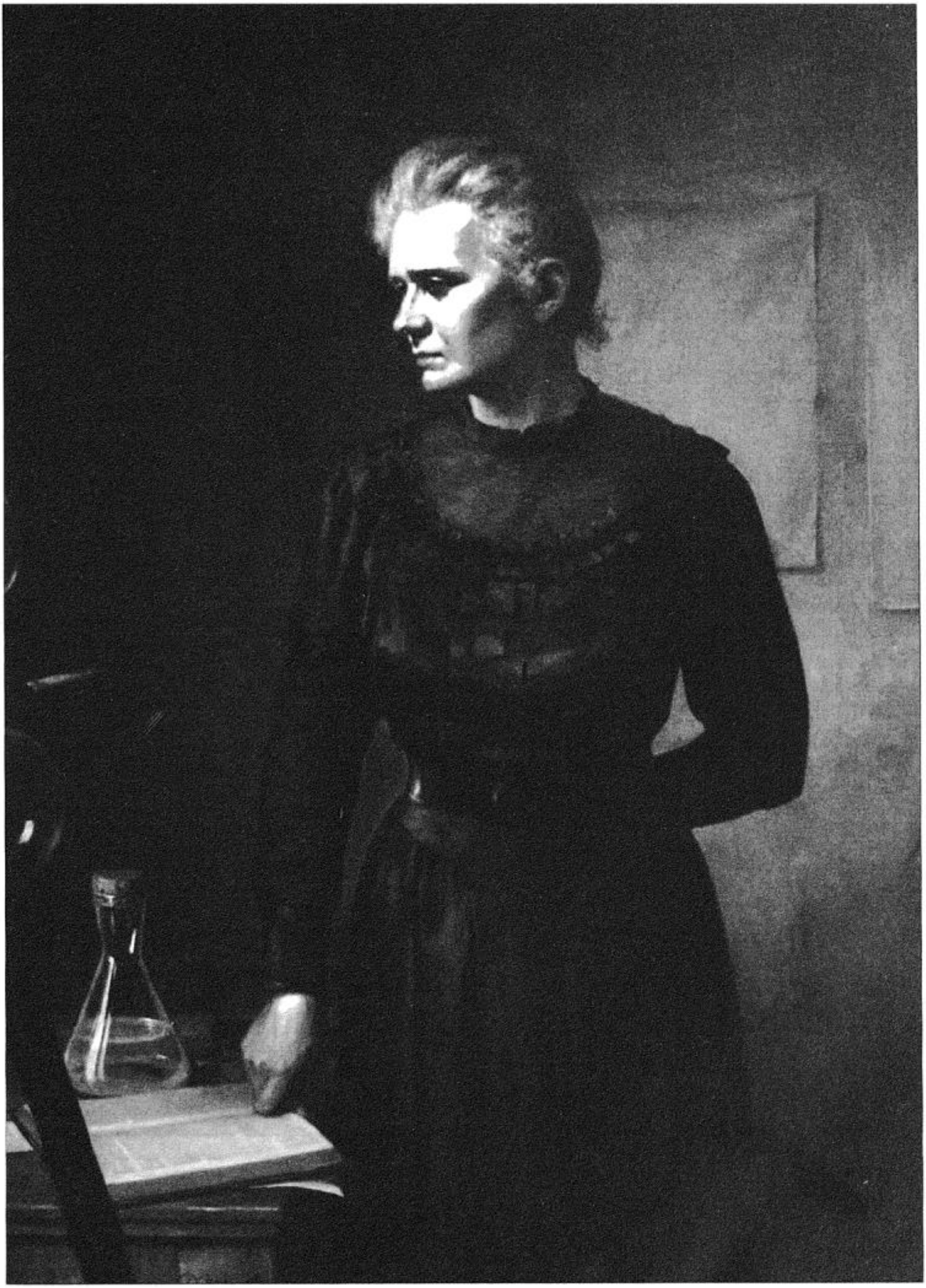


الحكماء يتكلمون

أقوال كونفوشيوس



● لا تدلل من تحب.
● لا هم لديه إلا بطنه.
● العاقل لا ينحرف عن الصراط المستقيم
● إنى لا أنور تلاميذى إلا بعد أن يعصروا فكرهم.
● لا تهتم إن لم تكن قدرتك معروفة عند الآخرين.
● لا تقلق من عدم وجود الوظيفة، بل من عدم القدرة.
● الثروة غير المرعية هى مثل السحب الهائمة بالنسبة إلىَّ.
● لا تتدخل فى الشئون التى ليست فى مجال إدارتك.
● قال تسى شيا: «لا تدقق فى الشئون الصغيرة التى لا تتجاوز حدود الشئون الكبرى».
● لا تتراجع عن الحق حتى ولو كنت تواجه أستاذك.
● لا تتشاور مع من يحملون وجهات نظر سياسية مختلفة.
● قيد الشعب بالأوامر الصارمة وعاقبهم معاقبة قاسية..
● من يمتلك الأخلاق الفاضلة والرفاق الذين يشاركونه أهدافه ليس شخصًا معزولاً.
● على الشاب أن يبرّ والديه فى البيت ويحترم أشقاءه.
● سأل الدوق يه تسى لو عن كونفوشيوس.
● يجب على المرء ألا يسافر بعيدًا إذا كان والداه لا يزالان على قيد الحياة.
● على المرء ألا ينسى ذكرى مولد والديه..
● إننى أجنى الثروة طالما أننى أعمل بصورة شرعية.
● يطمح كل واحد إلى الثروة والمكانة.
● الحرفى يحضر أدواته قبل أن يبدأ عمله.
● كن صارمًا مع نفسك ومتسامحًا مع غيرك، فتبعد عنك الحقد والبغضاء.
● لم يكن القدماء يعطون الناس وعدًا بسهولة.



هَــوَس العبقــرية!

الحيــــاة السرية لمــارى كـــورى

باربـارا جـولد ســميث

في العشرين من إبريل سنة ١٩٩٥، وفي باريس في شارع سوفلو Soufflot امتداد بساط أبيض بطول الشارع لينتهي أمام البانثيون Pantheon (مقبرة العظماء) الذى كان مكسواً بالألوان الثلاثة (ألوان العلم الفرنسي) من القبة وحتى الرصيف. وعلى أنغام المرسليزيه (النشيد القومى الفرنسى) كان الحرس الجمهورى يسير على هذا البساط الأبيض. وكانت الآلاف الموجودة على جانبى الشارع ساكنة على غير العادة، وكان البعض ينثر الزهور عند مرور الموكب الذى كان يتكون من: أعضاء هيئة التدريس بمعهد كورى فى المقدمة يتبعهم طلاب المرحلة الثانوية من باريس، وكان الطلاب يرفعون لوحة طولها أربعة أقدام عليها الأحرف الإغريقية ألفا وبيتا وجاما بالألوان الزرقاء والبيضاء والحمراء.

وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعوا إلى المنطقة المقامة تحت القبة الكبرى والتى جلس إليها بعض الوجهاء وعلى رأسهم الرئيس فرنسوا ميتران. وعلى الرغم من أنه كان يعانى من مرض السرطان الذى اشتد عليه فى الأسابيع الأخيرة من فترة رئاسته التى امتدت أربعة عشر عاماً، إلا أنه قرر أن يكرس خطابه الأخير على رمز المرأة الفرنسية فى إشارة دراماتيكية حيث قرر أن يوارى رماد مدام كورى وزوجها بيير فى البانثيون، وبذلك جعل من مارى (ماريا سالومى سكلادوفسكا) كورى أول امرأة تدفن فى البانثيون لما قدمته من إنجازات. وهكذا تم إخراج رماد آل كورى من مقابرهم بضاحية سيو Sceax ليدفنوا بجوار بعض الخالدين أمثال أونورى جبرائيل ريكونيه وچان چاك روسو وإميل زولا وفيكتور هوجو وفولتير (فرانسوا مارى آرو) وچين بابتيس بيرين وبل لانجفين.

وكان لينج ڤاليسا - رئيس جمهورية بولندا الموطن الأصلى لمدام كورى - يجلس بجوار ميتران. وكانت أسرتا العالمين مارى وبيير موجودين كذلك وهم ابنتها إيف وأولاد ابنتها المتوفاة أيرين وزوجها فريدريك جوليو -كورى- هيلين لا نجفن - جوليو، وبيير جوليو وكلاهما من العلماء البارزين.

كان أول المتحدثين فى الحفل بيير - جيلس دى جين مدير المدرسة الصناعية للفيزياء والكيمياء بمنطقة باريس (EPCI). وهو المكان الذى اكتشفت فيه مارى وبيير ظاهرة النشاط الإشعاعى وعنصرى البولونيوم والراديوم، حيث قال، «إن آل كورى يمثلون الذاكرة الجماعية للأمة الفرنسية وروعة التضحية بالنفس». ثم تحدث لينج ڤاليسا عن الأصل البولندى لمدام كورى ووصفها بالبطلة الوطنية لكل من بولندا وفرنسا. عندئذ نهض الرئيس ميتران وقال:

«إن نقل رماد بيير ومارى كورى لأكثر الأماكن قدسية بالنسبة لنا ليس مجرد عمل للذكرى، بل هو تأكيد على إيمان فرنسا بالعلم وبالبحث العلمى وعلى احترامنا للعلماء الذين نخلدهم هنا، وعلى تقديرنا لعزيمتهم ولحياتهم، واحتفالنا اليوم هو عمل متعمد من جانبنا للسيدة الأولى فى تاريخنا المشرف. وهى رمز آخر يحوز انتباه أمتنا ومثال على نضال سيدة قررت أن تفرض قدراتها فى مجتمع يحتفظ بقدراته واكتشافاته الذهبية والمسئولية العامة للرجال فقط».

كان من الممكن قراءة ما هو مكتوب على واجهة البانثيون فوق رأس الرئيس ميتران أثناء إلقاء خطابه، وكانت كالآتى: «إلى الرجال العظماء من بلد ممكن» وهى كلمات بادية السخرية.

وبعد هذه الكلمات دوت عاصفة هائلة من التصفيق من الجموع التى ملأت الشوارع. كانت رغبة بيير كورى المتواضع أن يدفن فى سيو لأنه كان يكره تماماً الشهرة والاحتفالات، ومن المؤكد أنه كان سيكره ما حدث فى ذلك اليوم. وسواء رغب آل كورى فى ذلك أم لا، وبالأخص مدام كورى، فقد تم تخليدهما. وقد أصبحت مدام كورى اليوم مثلاً أعلى لكل الأعمار وإلهاماً للنساء اللاتى يرون فيها تحقيق أحلامهن وطموحاتهن.

وقد كنت هناك

وعندما كنت فى سن المراهقة، كنت أضع صورة لمدام كورى وهى جالسة تحت شجرة دردار تحتضن ابنتها إيف ذات العامين وأيرين ذات الأعوام التسعة، وذلك بجوار صور لأحد أعمال فان جوخ (ليلة ملأى بالنجوم) وبطاقة لعبة البولينج مساء يوم الجمعة. ولا أدرى لماذا كنت مشدودة إلى هذه الصورة، والأمر لم يكن بالقطع يتعلق بالعلم. وكانت مدام كورى ملهمتى. ومثل أى ملهمة أخرى فإنك لا تدرى بالضبط سبب كل هذا التقديس. ربما أكون قد أنست لهذه الصورة حيث وجدت مارى بحضنها الدافىء لابنتيها، وكانت أمى فى ذلك الوقت بعيدة ترقد فى أحد المستشفيات مصابة إصابة خطيرة فى حادث سيارة. من يدرى؟

لم يكن بتلك الصورة أى من الوجوه المبتسمة عادة. كان يبدو على ثلاثتهن الحزن. لم أكن أعرف وقتها السبب، لكنى أعرف الآن. وكنت قد وضعت تحت هذه الصورة مقطعين لمدام كورى: «لا شىء يرهب فى الحياة، وهى فقط لنفهمها» و «من المهم أن نصنع حلمًا من الحياة وأن نصنع واقعًا من الحلم». ولم أكتشف أن بيركورى هو الذى كتب المقطع الأخير وليست مارى إلا أثناء بحثى لكتابة هذا الكتاب.

وفى كل الأحوال لا شك أن حياة مدام كورى كانت ملهمة فى الواقع، فقد كانت نادرة كوحيد القرن فى مجال العلم. جاءت من أسرة بولندية فقيرة وعملت لثمانى سنوات لتقتصد النقود لتدرس فى السوربون. وتغلبت على صعاب تفوق الخيال. وفى سنة ١٨٩٣ كانت مارى كورى أول سيدة تحصل على درجة علمية ثانية فى الرياضيات. وكانت أول سيدة تحصل على منصب أستاذ فى السوربون وأول سيدة لا تحصل فقط على جائزة نوبل واحدة بل اثنتين، الأولى فى الفيزياء بمشاركة زوجها وهنرى بيكيريل لاكتشافهم ظاهرة النشاط الإشعاعى، أما الثانية فجاءت بعد ثمانى سنوات فى الكيمياء (لفصلها لعنصرى البولنيوم والراديوم)، وهى أول سيدة يتم انتخابها فى الأكاديمية الفرنسية للطب التى كان عمرها ٢٢٤ سنة وقتها. وبالإضافة للنجاح المذهل فى عملها فقد تمكنت من تربية ابنتيها وحدها معظم الوقت حتى حصلتا على تعليم جيد وفى الوقت نفسه أصبحتا قويتين جسمانيًا ومستقلين.

هذه هى الحقائق التى تحولت إلى أسطورة رومانسية نسجت لتلائم ما يعتقده وما يتخيله كثير من الناس - الصحفيون والعلماء والأطباء ودعاة حقوق المرأة ورجال الأعمال ورجال الصناعة وحتى مدام كورى نفسها. ويتذكرها الناس مثل جان دارك فى العلم. وتحمل شوارع باريس اسمها واسم زوجها بيير. كما أن ورقة العمل فئة ٥٠٠ فرنك

للاستزادة:

Barbara Goldsmith, Obsessive Genius: The Inner World of Marie Curie, W. W. Norton, 2005

هوس العبقرية، الحياة السرية لمارى كورى
باربارا جولد سميث
دار العين للنشر
القاهرة ٢٠٠٩

(أصبحت الآن من اهتمامات هواة جمع النقود وكتذكار) كانت تحمل صورتها ومعملها الكوخ البائس) وبعض المناظر من حياتها.

وصورتها على طوابع البريد والعملة المعدنية. وكان يطلق على السيارات التى عدلت لتحمل معدات الأشعة السينية باسم «كورى الصغيرة» أو «Les ptites Curie» كما شارك فى صنع هذه الأسطورة الأفلام شبه الوثائقية والأفلام العادية. ولقد كنت مذهولة عندما شاهدت جرير جارسون فى دور مارى وولتر بيدجون فى دور زوجها بيير فى فيلم مدام كورى سنة ١٩٤٣. ومازلت أتذكر وجها من مثلث دور مارى وهو يتصبب عرقًا عندما كانت تقوم بتحريك وعاء يغلى بالخام. ولن أنسى ما حييت منظر بيير ومارى فى ظلمات الليل وهما يدخلان إلى المعمل ليشاهدا بقعة الضوء الخافت تتوهج فى قاع أحد الأطباق. صاحت مارى حينئذ بينما كانت دموعها تنهال على خديها، «اوه بيير، هل هذا ممكن؟ هل هذا هو الشىء؟» نعم لقد كان هو هذا الشىء - الراديوم.

مرت بعد ذلك سنوات عديدة منذ كنت الفتاة الساذجة الملهمة ببطلة هوليوود، والتى تمثل النساء وتاريخ الوقت الذى عشن فيه الآن فوق كل ذلك الموضوع الأساسى فى كتاباتى. لماذا تستسلم بعض النساء لأقدارهن بينما تهرب أخريات أو يتلقفن حول العقبات؟ كيف أثر المجتمع والأسرة فى طموحاتهن؟ ولماذا تبحث بعض النساء عن الاستقلالية بينما تفضل الأخريات الامتثال لما هو مقدر لهن؟ وعلى أى الأوتار عزفت مدام كورى، وعلى الأخص بالنسبة للنساء؟ كانت كل هذه الأسئلة جزءا من أمور كثيرة حيرتنى.

وما يشغلنى الآن بولع يقع فى المسافة ما بين الخيال والواقع. وربما مازالت مدام كورى الأسطورة أشهر امرأة عالمة فى العالم. ويعتبر الراديوم اكتشاف مدام كورى المذهل. وقد حظى باهتمام مهول فى معالجة السرطان من خلال أشعته. لكن فى الواقع، هل هذا صحيح، وهل كان ذلك هو مساهمتها الكبرى فى العلم؟ لاشك أنه على مدار القرن الماضى تحولت سيرة حياة مدام كورى إلى قمة الكمال. لكن وراء هذه الصورة كانت هناك امرأة حقيقية. إنها الشخصية التى أرغب فى تتبعها.

باربارا

البـــدايـــات

درن.. وفقـــر.. ونبـــوغ مبكـــر

كتبت مدام كورى تقول: «لا ينبع الاكتشاف العظيم من دماغ العالم جاهزًا مثل منيرفا التى تتبع كاملة التجهيز من رأس المشترى، لكنها نتاج تراكم أعمال سابقة. «وكما قال لويس باستير جملته الشهيرة: «يفضل التوفيق الذهنى المعد لذلك». إلا أن الإنجازات العظمى تحتاج لأكثر من مجرد الاستعداد العلمى، فهى تحتاج لشخص مهيأ خصيصاً لهذه المهمة. كانت شخصية مارى كورى التى تشكلت تحت وطأة التفرقة والحرمان وضغوط الوالدين والطموح والتضحية الوطنية هى هذه الشخصية.

وعندما كانت مارى طفلة من عمرها، وقفت مشدوهة أمام خزانة زجاجية بداخلها «عدة أرفف تحمل أجهزة غريبة مثل الأنابيب الزجاجية والموازين الصغيرة وعينات من المعادن وكشاف كهربى من رقائق الذهب». قال البروفيسور فلاديسلاف سكلادوفسكى لابنته مارى أن هذه الخزانة تحتوى على «أجهزة الفيزياء الخاصة بى». لم تكن مارى سكلادوفسكا التى كانوا يدللونها باسم مانيا، والتى كان مقدراً لها أن تصبح مدام كورى ذات الشهرة العالمية، لم يكن لديها أى فكرة عما تعنيه هذه الكلمات، لكنها «لن تنساها». وتدل هذه العبارة التى أوردتها «إيف كورى» عن ارتباط مبكر ليس بالعلم فقط بل فى الواقع تدل على ارتباطها بوالدها. وقد ظلت هذه الخزانة الزجاجية موصدة حيث ألغيت حصص العلوم للبروفيسور سكلادوفسكى بعد ثورة بولندا الدموية سنة ١٨٩٣ عندما منعت السلطات الروسية الأساتذة البولنديين من أنه قد سُرق منه ما كان يمكن أن يكون مستقبلاً باهرًا فى العلوم بواسطة القهر الروسى. وبالغرم من مداومة فلاديسلاف على قراءة المجلات والتقارير العلمية، إلا أنه: «لم يكن لدى والدى معمل ولم يستطع القيام بإجراء التجارب». وبكل تأكيد لم تكن مارى هى أول طفل ينساق لتحقيق



لماذا تبحث بعض النساء عن الاستقلالية بينما تفضل الأخريات الامتثال لما هو مقدر لهن؟

أحلام أبيه التى لم يستطع إنجازها بنفسه».

عاش البروفيسور سكلادوفسكى حياة غريبة، فقد كان يعمل مساعد موجه ومدرساً فى مدرسة ثانوية للأولاد جوار سو تديرها الحكومة الروسية. وكانت مثل هذه المدارس الروحية هى الوحيدة المؤهلة لمنح الدبلوم. وكان ينظر لمعظم المدرسين البولنديين فى هذه المدارس بواسطة مواطنيهم البولنديين على أنهم قد «لوثتهم» السلطة الروسية. إلا أن فلاديسلاف كان يشعر فى السر أنه يحافظ على الهوية والثقافة البولندية من خلال تدريسه.

كانت بولندا يومًا ما أرضًا يفخر بها أهلها، لكن وبعد هزيمة نابليون النهائية فى «ووترلو» سنة ١٩٨٥ وفى مؤتمر فيينا، أصبح القيصر الروسى ألكسندر الثانى يلقب «بملك بولندا» وأصبح هذا البلد تحت الحكم المشترك لروسيا ويروسيا والنمسا. وحتى اسم بولندا قد حذف من الخرائط وأصبح يشار لها باسم «فيستولا» على اسم أحد الأنهار. وكان الروس غلاظًا بصفة خاصة، فمنعوا اللغة البولندية من المدارس وكذلك تدريس التاريخ والأدب البولندى. وكانت اللغة الروسية هى اللغة الرسمية. وكانت لافتات الشوارع والحوانيت مكتوبا عليها بالأبجدية الكريلية (الأحرف الروسية).

قامت ثورتان ضد الاحتلال الروسى لكنهما أُخمدتا فى حينهما، ومست الثورتان عن قرب عائلة سكلادوفسكى. ففى الثورة الأولى فى نوفمبر سنة ١٨٣٠ حارب والد فلاديسلاف واسمه جوزيف فى سلاح المدفعية، والذى كان أستاذًا محترماً للفيزياء والكيمياء. وقد قبض الروس عليه وأرغم على السير حافى القدمين مسافة ١٤٠ ميلا (٢٢٤ كيلو مترا) على معسكر الاعتقال مما أفقده ٤٠ رطلا (١٨ كيلو جرامًا) من وزنه. تقيحت قدماه وتورمت وظلت تعل عليه طول حياته. وقد تمكن من الهرب بأعجوبة.

أما الثورة الثانية التى وقعت فى يناير سنة ١٨٦٣ فكانت كارثة أدهى من الأولى. كان المحاربون البولنديون يواجهون جيش القيصر وبعضهم مسلح بالهراوات والفئوس والسهام لمدة عام ونصف.

وفى النهاية مات آلاف من رجال المقاومة البولندية، وتم نفى الآخرين إلى سيبريا. وكان أحد أعمام مانيا قد جرح أثناء هذه الحرب بينما أمضى عم آخر أربع سنوات فى سيبريا. وقام ما يقرب من مائة ألف من رجال المقاومة البولندية

بجمع ما يستطيعون حمله وهربوا إلى بلاد أخرى وبالأخص إلى فرنسا. وفى أغسطس سنة ١٨٦٤ قبض على زعماء الانتفاضة وتم شنقهم وتركت أجسامهم معلقة فى المشانق من قلعة ألكسندر التى تبعد بضع بنايات من منزل سكلادوفسكى، وقد تركت الجثث طوال فصل الصيف لتنفق فى حرارة الجو.

حارب البروفيسور سكلادوفسكى المعركة من الداخل. وكان مثله مثل كثير من المثقفين يعتقد أن المواجهة لمباشرة عديمة الجدوى. وفى سنة ١٨٦٠ وبينما كانت الانتفاضة ضد القيصر فى مهدها تزوج وهو فى الثامنة والعشرين من عمره من سيدة جميلة ويافعة اسمها برونيسلافا بوجوسكى. وكان كلاهما من الطبقة الدنيا من الأرستقراطية التى تدعى «شلاختا». وقد تمكنت الطبقة من الحفاظ على بعض المظاهر الأرستقراطية مثل الأوسمة الملكية والقرى التى تحمل أسماء عائلاتهم. ولكن بمرور السنوات فقد معظمهم أملاكه وثرواته. لكنهم احتفظوا بحبهم للتعليم، وأصبح منهم القساوسة والأطباء والمعلمون والموسيقيون. كان ما يقرب من ٤٠٪ من طبقة الفلاحين أكثر ثراء منهم، لكن «الشلاختا» كانت غارقة فى ذكرى الأبهة الغازية والمنجزات الثقافية، وتشعر بالتفوق الكبير على هؤلاء الذين يقيسون حياتهم بمقدار ما يملكون.

التحق جوزيف سكلافسكى جد مانيا بجامعة وارسو لكنه اختار أن يقوم بالتدريس فى مناطق أقل تحضرا وأراد والدها كذلك أن يلتحق بجامعة وارسو، لكنها كانت مغلقة مؤقتا بعد ثورة سنة ١٨٣٠. اضطر فلاديسلاف للجوء إلى الدروس الخاصة فى علم البيولوجيا ثم التحق بجامعة العلوم فى سانت بطرسبرج حيث حصل على درجة جامعية فى الرياضيات والفيزياء. عاد بعد ذلك إلى وارسو وعين فى وظيفة مساعد مدرس. كان راتبه ضئيلا لدرجة أنه لم يستطع الزواج، إلا أن برونيسلافا بوجوسكى أنقذت الموقف.

وقد تحطمت على صخرة الواقع الفكرة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت عن أن النساء لهن مؤهلات فيزيائيا أو ذهنيا للدخول إلى قوة العمل: كانت النساء الفلاحات يعملن فى المصانع وفى محلات الحلوى نظير جزء ضئيل من المرتب الذى يتقاضاه الرجال، وكن يحرثن الأرض فى الحقول ويجمعن المحاصيل. وفى أثناء ثورة سنة ١٨٦٣ كان النساء هن اللاتى حللن محل الرجال فى العمل بكفاءة عالية. وبعد فشل الثورة عادت النساء على غير رغبتهن إلى الواجبات الزوجية ورعاية الأطفال والقيام بالأعمال المنزلية. وكانت المهن المسموح لهن بها محدودة، وهى التعليم والتمريض فى معظمها.

لم يكن والدا برونيسلافا من الأغنياء لكنهم تمكنوا من إلحاقها بمدرسة شارع فريتا، المدرسة الخاصة الوحيدة للبنات فى وارسو. وكانت السلطات الروسية تراقب مثل هذه المدارس، لكن قبضتهم على تلك المدرسة لم تكن بالشدة إذا قورنت بالمدارس المشابهة للأولاد، فقد كان المسئولون الروس يعتقدون أن النساء لن يشاركن أبدا فى الحياة العامة أو السياسة، أو بالتأكيد فى أى موقع مؤثر فى عالم الرجال.

وفى الوقت الذى تزوجت فيه برونيسلافا من فلاديسلاف سنة ١٨٦٠ شقت برونيسلافا طريقها من مدرسة على ناظرة للمدرسة بقليل من الذكاء والمقدرة العلمية. كان لها دخل ثابت ومسموح لها بالسكن فى مسكن فسيح بالطابق الأرضى فى المبنى الملاصق لأحد أجنحة المدرسة. وبزواجها من فلاديسلاف بدأت برونيسلافا تعيش الحياة التقليدية لامرأة من عصرها، لكنها تحملت عبئا إضافيا فوق ذلك متمثلا فى دعم الأسرة ماديا. وفى السنوات الست التالية أنجبت برونيسلافا خمسة أطفال: زوفيا (اسم التدليل زوسيا) سنة ١٨٦٢ وجوزيف سنة ١٨٦٣ وبرونيسلافا (برونيا) سنة ١٨٦٥ وهيلينا (هيلا) سنة ١٨٦٦، وفى نوفمبر ١٨٦٧، نفس السنة التى نشر فيها كارل ماركس الجزء الاول من «رأس المال»، وسجل فيها الفريد نوبل اختراع الديناميت، وضعت آخر أطفالها ماريا سالومى (مانيا). وقد قالت برونيسلافا لأحد الاصدقاء فيما بعد «يجب أن أعترف بأننى لا أمانع أن أعود الآنسة بوجوسكى الآن بعد أن رأيت صعوبة حياة النساء».

وفى عام ١٨٦٧ تم تعيين زوج برونيسلافا مساعدا لمدير مدرسة جيمنازيوم روسية فى شارع نوفوليبكى. جاءه المنصب ومعه شقة للسكن. ولم يكن هناك شك فى أن يكون للترقى الوظيفى. انتقلت العائلة بأكملها، البنات الأربع والابن فى الحال من وسط وارسو إلى ضواحيها الغربية. وأخذت برونيسلافا تقوم برحلة يومية إلى مدرسة شارع تريتا. ولابتعادها عن الأطفال وضغط مسئولياتها الأخرى بدأت صحتها فى التدهور واستقالت وأصبحت ربة بيت طول الوقت وقامت بالتدريس لكل من روسيا وجوزيف فى المنزل. وقد تعلمت بنفسها حرفة صناعة الأحذية ووضعت طاولة مخصصة لذلك من أجل توفير بضعة روبلات (العملة الروسية) التى كانت متداولة فى بولندا فى ذلك الوقت). وكانت تصنع أحذية أطفالها بنفسها ولا تتكلف إلا ثمن الجلود فقط. وكان صوت خبطات القادوم هو المصاحب لدروس اولادها.

ولما أصبحت مانيا فى الرابعة من عمرها سنة ١٨٧١ بدأت والدتها تفقد من وزنها وكانت تسعل بصورة مستمرة، فى إشارة تقليدية إلى إصابتها بمرض السل. ولا تذكر مانيا أبدا أن والدتها قد قبلتها أو داعبتها. ولاشك أن ذلك كان احتراسا من والدتها التى بدأت تستخدم أطباقا خاصة بها للطعام وأدوات طعام مستقلة. غير أن الطفلة الصغيرة كانت تتوق بشدة لبعض العواطف وإظهار المشاعر، وكانت تشعر بألم للتباعد بينها وبين والدتها. كانت الأعراف والتقاليد فى ذلك الزمان تفرض وجود هوة أو فجوة بين الوالدين والأطفال. فكان والداها يحظيان بكل الاحترام وتتم مخاطبتهما بصورة رسمية. وكانت مانيا تفعل ما يطلب منها ولم يكن مسموحا لها أن تسال ما هى علة والدتها.

ورغم ضيق الحال إلا أن فلاديسلاف استمع لنصيحة طبيبه وقرر إرسال زوجته بعيدا للاستشفاء فى سلسلة من الرحلات. أذعنت برونيسلافا للأمر بكل طاعة. وكان الشائع وقتها أن السل يمكن علاجه بالحياة فترة طويلة فى طقس معتدل أو فى الجبال مع الراحة وتناول المياه الشافية. كان ذلك قبل اكتشاف وعزل الـ «تيوبير كل باسيلوس» بتسع سنوات حيث بدأ الناس عندها يدركون أن السل مرض معد. وقد اصطحبت الأم ابنتها ذات العشر سنوات فقط زوسيا لعجزها عن دفع راتب ممرضة. وقد حاولت الطفلة بطريقة مضنية بذل العناية اللازمة تجاه والدتها كأى ممرضة كبيرة.

ومع طول فترة ابتعادها عن أسرتها أصاب اليأس برونيسلافا. وقد تبع الاستشفاء فى جبال الألب النمساوية بالقرب من إينسبورج رحلة أخرى إلى نيس. أخذت برونيسلافا تقلق من كثرة مصاريف علاجها. وعندما امتدت فترة الاستشفاء للعام التالى شعرت هى وزوسيا بحنين جارف للوطن. وفى نفس ليلة عيد الميلاد أعدت زوسيا المائدة تماما كما تعودت فى بيتهم، وقد قطعتا الرقاقة المقدسة التى أرسلت إليهما من وارسو بالدموع فى أعينهما. صلت برونيسلافا فى ذلك المساء قائلة «ليجعل الرب هذا آخر عيد ميلاد بعيد عن عائلتى».

تحمل الأستاذ سكلادوفسكى مسئولية رعاية أطفاله الآخرين فى غياب زوجته، وقد فرضت الظروف أن يظل الوضع كذلك حتى نهاية تنشئتهم. وأصبح هذا الرجل فى معطفه الأسود الرث القائد الأعلى لقواته الصغيرة. كانت الأيام والأمسيات مخططة بعناية بين فترات للاستذكار وفترات للتمارين الرياضية. وقد استعادت مانيا ذكريات تلك الفترة قائلة أن أبسط الحوارات اليومية كانت تنطوى على دروس فى الأخلاق أو فى المواد الدراسية، وأن مجرد التنزه سيرا على الأقدام فى المناطق الريفية كان لغرض شرح ظاهرة علمية أو سر من أسرار الطبيعة، وكان غروب الشمس مدخلا لحديث حول التحركات الفلكية. ولما كانت الأم كاثوليكية غيورة فقد حفظ الأطفال كتاب العقيدة وكانت إحدى خالاتهم تصحبهم إلى الكنيسة كل أحد حيث

إن مجـــرد التـــنزه
ســـــيرا عــــلى الأقـــــدام
فـــى المـــنــاطــق الـــريــفــيـــة كـــان لـــغــــرض
شــــــرح ظـــاهـــرة علميــــــة
أو ســـر من أسرار الطبيعة

كانوا يصلون من أجل عودة امهم. وقد تلقوا تعليمات بأن يضيفوا إلى صلواتهم المسائية «أن تسترجع الأم صحتها».

غرس فلاديسلاف فى أطفاله الاعتزاز بالقومية البولندية والكراهية العميقة لروسيا العنصرية. وكانت مانيا تتوقف بصحبة أحد أصدقائها وهم فى طريقهم إلى المدرسة أمام نصب تذكارى اقامه القيصر الكستدر الثانى بالقرب من ميدان سكونيا، حيث كان النصب يحمل لوحة مكتوبا عليها «إلى البولنديين المتمسكين بعاهلهم»، وعامدة متعمدة كانت تبصق على هذه الكلمات الكريهة. وعندما اغتيل القيصر بواسطة قنبلة فى سانت بطرسبرج رقصت مانيا وزميلاتها فى الفصل غبطة وابتهاجا.

كانت ليلة السبت تمثل فاصلا محببا للأطفال فى حياتهم المنضبطة الصارمة. فقد كان والدهم -الذى كان يجيد اللغات الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية بطلاقة إلى جوار البولندية- يمضى الفترة ٧ إلى ٩ مساء فى القراءة بصوت مسموع لبعض الكتب مثل «دافيد كوبر فيلد»، ويترجم ما يقراه مباشرة إلى البولندية، وقد أثرت رواية قصة مدينتين بالتحديد فى مانيا حيث وجدت أن البطل قد وصل مستواه إلى صناعة الأحذية مثل والدتها.

كان كل الأطفال فى أسرة سكلادفسكى أذكياء متفوقين فى المدرسة إلا أن مانيا كانت أكثرهم ذكاء. وعندما كانت فى الرابعة من عمرها شاهدت كيف تجاهد أختها الكبرى برونيا لتقرأ فى كتابها، فما كان منها إلا أن إلتقطت الكتاب وقرأت بصوت مسموع الجملة الأولى دون ادنى تلعثم. ولما رأت الدهشة تعلو وجوه من حولها أخذت فى البكاء وقد ايقنت أنها قد اقترفت خطيئة لا تغتفر «لم أكن أقصد ذلك». قالتها مانيا بأنين وحزن «لكنها كانت سهلة جداً». وبعد عدة سنوات قرأ أحد معارفهم قصيدة شعر على مسامعها فطلبت منه نسخة منها. قام هذا الشخص باختبارها فقال لها إنه سيقراها لها مرة أخرى، وحيث إنه من المفترض أنها تتمتع بذاكرة جيدة فإنها بلا شك ستحفظها عن ظهر قلب. قرأ الشخص القصيدة، وانتحت مانيا جانبا فى إحدى الغرف وبعد نصف ساعة وقد كتبت القصيدة بالتمام والكمال.

كانت مانيا وأخواتها يذهبن إلى المدرسة فى شارع فريتا فى بادئ الأمر. وعندما بلغت مانيا السادسة والنصف انتقلت هى وهيلينا إلى مدرسة أقرب لمنزلهن. التحقت مانيا بالصف الثالث مع أن الكثيرات من زميلاتها فى الفصل كن أكبر منها بسنة أو سنتين. وكانت هذه المدرسة السابقة خاضعة للتفتيش والمراقبة الروسية بصورة أكبر من المدرسة السابقة، إلا أن مديرتها كانت من البولنديين الوطنيين المخلصين، واسمها مدام جافيجا سيكورسكا. وحتى تخضع المسئولين كانت المدرسة تحتفظ سرا بجدول مزدوج. وكان التلاميذ يعرفون جيداً أن كلمة «نبات» فى الجدول تعنى «تاريخ بولندا»، وكلمات «دراسات ألمانيا» تعنى فى الواقع «الأدب البولندى». وقد طورت المدرسة نظاما ذكيا بحيث إذا اقترب أحد المسئولين الروس يدق جرسا معينا يتم جمع الكتب البولندية لتختفى من الفصل بينما تأخذ الكتب الروسية مكانها. وقد اختيرت مانيا ذات يوم كأذكى تلميذة فى الفصل للإجابة عن أسئلة المفتش الروسى بلغتها الروسية السليمة. وكان آخر الأسئلة «من هو قيصرنا المحبوب»، تمهلت مانيا ثم أجابت بصوت يكاد يختنق «إنه القيصر ألكسندر الثانى». وعندما أغلق الباب خلف المفتش انفجرت باكية «لخيانتها». لكنها قد بدأت تتعلم أن إظهار مشاعرها الحقيقية قد يتسبب فى حدوث كارثة.

كان والدها، الذى تكاد تعبده، يعيش حياة مزدوجة هو الآخر، فكان يحاضر طلابه من العلماء البولنديين ليغرس فيهم الفخر والاعتزاز بتراثهم. كان المفتش العام للمدرسة فى شارع نوثوليبكى روسيا، وقد اكتشف النشاط «الهدام» للأستاذ سكلادوفسكى. فُصل الأستاذ سكلادوفسكى فى التو فأصبح بلا راتب وبلا مسكن، فى الوقت الذى قررت فيه برونيسلافا أنه دون النظر لحالتها الصحية فإن عليها العودة لبيتها. وعندما رأت مانيا والدتها وأختها الكبرى مرة أخرى اندفعت فى أحضان زوسيا لكن أمها مدت ذراعها وراحة يدها مفتوحة حتى لا تقترب مانيا منها. توقفت الطفلة ذات السنوات الست لوهلة حيث تعرفت بالكاد على طيف المرأة التى كانت تسعل سعالا متقطعا. وفى هذا الأحد ركعت مانيا على ركبتيها وصلّت داعية لربها أن يأخذ حياتها فقط لتشفى والدتها.

استأجرت الأسرة بيتا، وافتتح فيه الأستاذ سكلادوفسكى مدرسة داخلية للبنين من الضواحى، ليتدبر تكاليف المعيشة. كان عدد التلاميذ فى البداية خمسة ثم أصبحوا عشرة ثم عشرين. ولم يكن فى هذه الأحياء سوى القليل من التعليم الخاص وكانت مانيا تنام على أريكة فى غرفة الطعام وتستيقظ كل صباح فى السادسة لتعد المائدة للإفطار.

أخذت برونيا وزوسيا عدوى التيفوس من أحد الطلاب المقيمين فى يناير سنة ١٨٧٤. كان التيفوس ينتشر فى الأماكن المزدحمة لأن عدواه كانت تنتقل بواسطة القمل والبراغيث من الفئران، وكانت هذه البراغيث والقمل تجد مأواها فى الملابس القذرة والأسرة والفراء. وقد قضت موجتان سابقتان من وباء التيفوس فى وارسو وحدها على الآلاف من الناس. كانت شقيقتا مانيا ترتعشان من الحمى بينما كان سعال أمها فى الغرفة المجاورة يسمع ليل نهار. وبعد مرور اثنى عشر يوما استعادت برونيا صحتها. وبعد أسبوعين توفيت زوسيا ذات الاثنى عشر ربيعا فقط والرفيقة العزيزة لأمها. أقعد المرض برونيسلافا عن وداع ابنتها حتى متواها الأخير فى المقابر، لكنها وقفت فى نافذة البيت أثناء عبور موكب الجنازة بجوارها. ارتدت مانيا المعطف الأسود الطويل الذى كان يخص أختها المتوفاة وسارت خلف التابوت فى حالة ذهول. وفى مايو سنة ١٨٧٨ استسلمت برونيسلافا للسل. وقد كتبت مانيا أن أمها وهى فى الثانية والأربعين من عمرها قد قضت نحبها بفعل الموت المفاجئ وفقد ابنتها والمرض القاتل «ذهبت مانيا إلى الكنيسة فى الأحد التالى كعادتها. وعندما ركعت فكرت مليا وقررت أنها لن تؤمن أبدا بعد ذلك بالنزوع إلى الخير».

ظهر الألم الذى تسبب فيه فقد هاتين الاثنتين فى ما أطلقت عليه مانيا «الاكتئاب المدوى» وبداية نسق من الاكتئاب ظل يلازمها طوال حياتها. وفيما بعد عندما أصبحت مدام كورى وسلطت عليها الأضواء والشهرة العالمية، أصبحت أقل صراحة وأطلقت على هذا الأمر «التعب» أو «الإرهاق» أو «متاعب أعصابى». وقد يقيم الأخصائيون اليوم حالتها على أنها اضطراب أساسى متكرر مسبب للاكتئاب، والذى يحدث عادة نتيجة الحزن أو الفقد. مضت شهور بعد ذلك قبل أن تتوقف عن اللجوء بهدوء إلى مكان منعزل للبكاء، الأمر الذى كانت تخفيه عن عائلتها وزميلاتها فى المدرسة. استمرت فى دراستها وأداء واجباتها المدرسية دون أى علامة للحزن وظلت على القمة فى فصلها. وبعد وفاة والدتها بفترة قصيرة بدا أن مانيا أخذت تستغرق فى القراءة بالساعات وأحيانا بالأيام. كانت قليلا ما تتحدث. وكانت الطريقة الوحيدة لبقائها هى أن تستبعد تماما هذا العالم وتركز بوسواس ملح على موضوع واحد، وبذلك تتمكن من إيقاف شعورها بالأسى والحزن. وبعد سنوات من ذلك تذكرت إيف أنها رجعت فى أحد الأيام فى الثالثة صباحا فشاهدت الضوء ينبعث من غرفة والدتها وعندما دخلت إيف الغرفة وجدت أمها مستغرقة تحدق فى بعض الابحاث العلمية حتى أنها لم تنتبه لوجود ابنتها. كان الاكتئاب والعزلة مطبوعين عليها منذ الطفولة وحتى أصبحت مدام كورى.

وفى نهاية العام الدراسى سنة ١٨٧٩ قامت مدام سيكورسكا مديرة مدرسة مانيا بزيارة للأستاذ سكلادوفسكى لتخبره بأن مانيا، على الرغم من تفوقها على نفسها إلا أنها كانت حساسة بشكل غير عادى ويخشى على عقلها. واقترحت عليه أن يتريث عاما آخر قبل أن تلتحق بالصف التالى من المدرسة. لكن والدها فعل عكس ذلك بالضبط وبما أن المدارس التى يديرها الروس فقط هى المؤهلة

كان كل الأطفال
فى أسرة سكلادفسكى
أذكياء متفوقين فى المدرسة
إلا أن مانيا كانت
أكثرهم ذكاء

للدراسة الجامعية، فقد قام بنقل ابنته من مدرسة سيكورسكا ومن الجو الذى أحاط بتنشئتها، وسجلها فى مدرسة عليا روسية (جيمنازيم) رقم ٣. كان مستوى التعليم فى هذه المدارس، والتى كانت فى الأصل ألمانية رفيعًا، غير أن الروس بذلوا كل جهدهم لمحو الثقافة البولندية، الأمر الذى تسبب فى القلق والاضطرابات. وطوال سنوات الدراسة شعرت مانيا بشدة كيف يعامل المدرسون الطلاب البولنديين كأعداء. وقد كتبت مانيا أنها كطفلة كانت عندما تشعر أحيانًا بالغضب أو العزلة أو تجبر على الكذب «ترغب فى الخربشة بأظافرها مثل القطة». لكنها الآن أصبحت تتمرد بطرق أكثر هدوءًا». وعندما قام أحد المعلمين بتوبيخها لاستعلائها قائلا «إننى أشعر وكأنك تنظرين إلى من أعلى»، أجابت مانيا، والتى كانت أطول من المعلم مغلفة غضبها ببعض من الفكاهة «فى الحقيقة ليس فى الإمكان أن أفعل أى شىء آخر».

حقق الأطفال فى أسرة سكلادوفسكى واحداً إثر الآخر توقعات والدهم فى التخرج من الأوائل مع كل درجات الشرف فيما عدا هيلينا التى جاء ترتيبها الثانية فى فصلها. شعرت بقنوط واكتئاب لأنها لم تحقق آمال والدها. أما مانيا سالومى سكلادوفسكا فقد تخرجت من المدرسة العليا الحكومية وكانت الأولى فى فصلها، وحصلت على الميدالية الذهبية كأفضل طالبة سنة ١٨٨٣. وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها.

وبعد سنوات من التوتر والاجتهاد لتكون الأفضل، وبعد سنوات من الخداع وكبت مشاعر الغضب، وبعد القنوط واليأس سقطت مانيا مصابة بانهيار عصبى شامل. أخذوها إلى سريرها فى غرفتها المظلمة. لم تكن تتحدث وكانت تأكل القليل فقط وأخيراً تنبه والدها لما حدث فقرر إرسالها إلى أقربائهم فى الريف لتستعيد صحتها واتزانها. وهكذا بدأت تلك السنة التى ستصبح أكثر السنوات سعادة وروعة فى حياتها.

كان كل من آل بوجوسكى وآل سكلادوفسكى ينتميان لعائلة ممتدة، وكان البعض من أقاربهم قد تمكن من الاحتفاظ بقصورهم وببعض ثرواتهم. أمضت مانيا الجزء الأول من الصيف فى الجنوب فى بيت أحد أخوالها من آل بوجوسكى. وقد كانت واهنة ومكتئبة فى البداية لكونها ستمضى الوقت فى الراحة فقط، إلا أنها سرعان ما بدأت تستعيد روحها الطيبة. هجرت مانيا كتب العلوم وأصبحت تقرأ الروايات وتصطاد الأسماك وتجمع الفراولة البرية برفقة أبناء خالها. بالأطواق وبكرة الريشة وبلعبة المساكة، وقد أخذت تستمتع بالكثير من الأشياء المماثلة الخاصة بالطفولة». أعطاها أقاربها ألبوماً للرسم فرسمت فيه أموراً عظيمة وأخرى مضحكة. وفى أحد الاسكتشات رسمت كلب العائلة وهو يأكل من طبقها. كتبت مانيا «كنت أضحك أحيانًا على نفسى وأنا أتأمل حالة الغباء الشامل التى أنا فيها براحة حقيقية». لقد عاشت الطفولة التى لم تعشها أبداً من قبل.

قامت مانيا فى شهر نوفمبر بزيارة خال آخر كان يعيش فى منطقة جنوبية أبعد تقع على أعتاب تلال كارباتيان. وكان خالها وأحد أبنائه عازفى كمان موهوبين. وكان هذا المكان هو الآخر حافلا بالسعادة والموسيقى والكتب والفن. وعندما بدا أن كل المرح قد قارب على الانتهاء قامت إحدى تلميذات والدتها السابقات التى تزوجت زوجاً غنياً، قامت بدعوة كل من مانيا وهيلينا إلى ضيعتها الريفية الواقعة إلى الشمال الشرقى من وارسو. كانت الحفلات فى هذه الضيعة أكثر ثراء وأكبر من تلك التى كانت تقام فى بيوت أخوالها، وقد تذكرت ذلك هيلينا قائلة «لقد مضى الوقت بسرعة مثل الحلم لكن ذكراه ظلت ماثلة للأبد».

وبعد سنوات أخبرت مارى ابنتها إيف عن هذه السنة السحرية حيث أغرقها أخوالها وخالاتها بهداياهم السخية، وحيث كانت الزلاجات المتلئة بالشباب الضاحك تنتقل من قصر ريفى إلى قصر ريفى آخر ليلاً، لتقام الولائم والألعاب ورقص أحدث رقصات «المازوركا» عند الفجر. وقد أخبرت إيف كيف أنها استمرت ترقص فى إحدى الليالى للدرجة التى جعلتها تتخلص من حذائها فى القمامة لأنه ماعاد يصلح لشىء بعد ذلك. لم تستطع إيف تخيل ذلك إلا بصعوبة شديدة، فقد ولدت وأمها فى السابعة والثلاثين ومات عنها والدها وهى ابنة أربعة عشر شهراً فقط، لصرامة أمها وصمتها وانعزاليتها، وما تبدو عليه من فقدان المشاعر، تلك الصورة التى أصبحت عليها مدام كورى -الفتاة السعيدة المتفتحة على العالم والتى رقصت طوال الليل.■

النهايات

معارك الشرف ... والعنصرية!

أحبت مارى
مساعدها المتزوج وكشفت
خطاباتها له كل شىء

■■ فى ليلة دافئة من شهر إبريل سنة ١٩١٠ حلت مارى على آل بوريل حيث كانوا فى حفل عشاء غير رسمى مع آل بيرين. وبدلاً من الرداء الأسود الداكن الذى داومت على ارتدائه منذ موت بيير كانت ترتدى ثوباً أبيض على أحدث موضة وعلى وردة قرنفلية اللون مثبتة على خصرها. بدت وكأنها شخص آخر، المظهر العابس الجامد حل محله الرقة والسكينة. لدرجة أنه فى صباح اليوم التالى سأل جين بيرين مارجريت بوريل «ماذا حدث لها؟».

وبالرغم من أنها أقرت بأنه لم يكن لديها «حياة اجتماعية»، حيث كتبت عن ذلك ابنتها إيف فيما بعد بأنه على الأغلب لم يعرفها أحد عن قرب. كان لمارى مجموعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين تتكون غالباً من هؤلاء الذين يتفهمون عملها: كان هناك مساعدها المتفانى فى خدمتها أندريه ديبرين وجين بيرين الخبير فى أشعة الكاثود وتحلل الراديوم وطبيعة الحرارة والضوء، وهنرييت زوجة جين التى كانت تشبه أختها برونيا، شخص هادئ وكانت تنادى مارى بضمير المفرد Tu الدال على الخصوصية، ثم عائلة بوريل، إميل الذى عين عميداً لمدرسة الإيكول نورمال سوبريير، ومارجريت إبنة بول أبل عميد العلوم بالسوربون. وكان من بين أصدقائها المقربين هيرثا أيرتون Hertha Ayrton العالمة المعروفة ومن المناضلات الأوائل فى حركة حقوق المرأة بانجلترا. وبالرغم من أن هيرثا كانت تعيش بلندن إلا أن ذلك لم يؤثر على صداقتهما. كان كلاهما يعتبرن من خارج مجتمعهما: مارى بولندية، وهيرثا يهودية. وقد ساعدت المؤلفة جورج اليون (اسمها مارى آن إيفانز Mary Ann Evans لكنها اختارت أن تكتب تحت اسم مذكر مستعار) ماديا فى تعليم هيرثا، وعندما كتبت رواية دانييل ديرونا استخدمت شخصيتها باسم ميرا اليهودية الموهوبة والمنبوذة. وسيصبح كل هؤلاء الأصدقاء متورطين فيما سيعرف لاحقاً بالفضيحة الكبرى».

كان بول لانجفين السبب فيما حدث. تلميذ سابق لبيير وصديق عزيز لعائلة كورى وتم اختياره ليحل محل بيير فى EPCI. كان بول يصغر مارى بخمس سنوات، طويل القامة ذو مظهر عسكرى وعيون نفاذة، حليق الشعر له شارب على الموضة. كان لانجفين فيزيائى وعالم رياضيات عبقرى. توصل لانجفين فى سنة ١٩٠٦ إلى النتيجة E = mc2 (أى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء) إلا أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء) إلا أن عالما آخر يدعى اينشتاين سبقه ونشر هذا الاكتشاف.

كتبت مارى لهنرييت بيرين إنها «تقدر تماماً الذكاء الفائق (للانجفين)». لقد ساعدها فى تحضير محاضراتها فى السوربون وقام بتنقيح ما يعرضه. ووجدته صديقاً حنوناً، وسرعان ما بدأ يسألها فيما يمكن أن يفعله حيال ما أطلق عليه، غلطته الكارثية فى الزواج، إلى جين ديسفوسيس ابنة واحد من الطبقة العاملة الذى يعمل فى مجال السيراميك. أحس لانجفين بأنها تشده إلى الوراء وتعطله عن اكتشافاته العظيمة بسبب طبيعتها العنيفة وطلبها الدائم للنقود. كتب لانجفين أنه

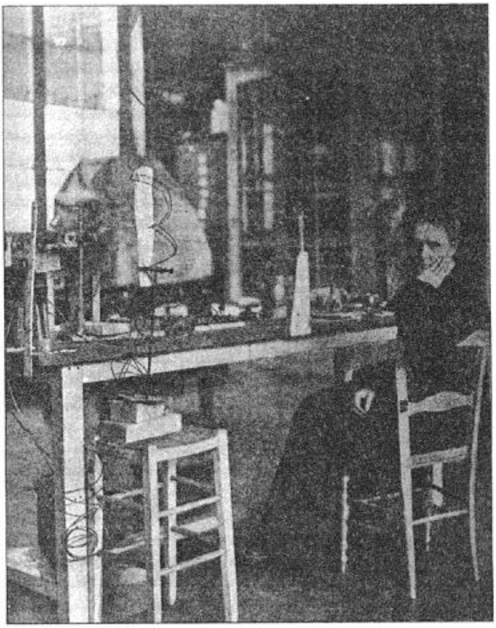
انجذب لماري، كما تنجذب إلى الضوء... بدأت أبحث للحصول على شيء من الرقة، من تلك التي حرم منها في بيته.. رحبت جين ديسفوسيس لانجفين بماري بمنزلهم وتعرفت ماري على أطفالهم الأربعة. وفي ربيع سنة ١٩١٠ اشتكت جين لماري من قسوة بول تجاهها وعنفته ماري لذلك. وفي المقابل كشف لها بول عن جرح عميق لم يلتئم بعد بسبب تحطيم جين زجاجة على رأسه.

يأتي كل ما نعرفه عن العلاقة بين كوري ولانجفين مما ذكره أصدقاؤهما وأيضاً، وبالأخص من الخطابات التي كتبتها ماري لبول والتي سرقها مخبر خاص وظفته زوجته لانجفين، من مكتب في شقة صغيرة كان يستأجرها زوجها بالقرب من السوربون. وبحلول يوليو سنة ١٩١٠ أظهرت هذه الرسائل أن ماري وبول كانا عاشقين. ونرى في هذه الرسائل أن بول صديق وتوأم روح وشريك هام في مجال العلوم الذي ربما يحل محل بيير ربما تكون فرصة ثانية قد سنحت لماري لتعيد الأيام الجميلة التي كانت تعرفها.

وبهذه الرغبة المتقدة كتبت ماري لبول:

إنه سيكون شيئاً عظيماً إذا اكتسبنا الحرية ليرى كل منا الآخر كلما سمحت لنا ظروف عملنا لنعمل معاً ولنتنزه أو نسافر سوياً عندما تسمح الظروف. هناك ترابط عميق جداً بيننا يحتاج فقط إلى ظروف حياتية موائمة لينمو.. المشاعر التي قادت كلا منا تجاه الآخر قوية جداً... ما الذي يمكن ألا يأتي به هذا الإحساس؟.. إني أعتقد أننا نستطيع الوصول لكل شيء من خلاله: العمل الجيد سمتنا نحن الاثنين، وصداقة متينة جيدة، وشجاعة في مواجهة الحياة وحتى أطفال الحب بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان جميلة.

وبالرغم من أن جين لانجفين قد تعايشت مع خيانة زوجها في الماضي إلا أنها منذ اللحظة الأولى لهذه العلاقة مع ماري الشهيرة فقدت صوابها وهددت بقتل ماري. وفي التو حاول بيرين تهدئة جين إلا أنها وأختها انتظرتا في شارع مظلم بالقرب من شقة ماري. وعندما اقتربت ماري منهما أمرتها جين أن تترك فرنسا فورا وإلا ستموت. ارتعبت ماري وبدلا من أن تذهب إلى منزلها هربت إلى منزل آل بيرين. كتب جين بيرين عن تلك اللحظة «هذه المرأة الشامخة تقلصت إلى شيء تائه مثل وحش تم الإيقاع به». أخبر بول لانجفين ماري أن زوجته قادرة تماماً على القتل ونصحها أن تترك فرنسا لكنها رفضت. وفي النهاية تقرر ألا يرى كل منهما الآخر مؤقتاً. ولكن عندما غادر لانجفين وماري باريس لحضور المؤتمر العالمي للإشعاع والكهرباء أخبرت جين لانجفين أختها أن الرحلة ما هي إلا ستار لإخفاء علاقتهما، وجددت تهديداتها متوعدة بأنها ستكشف علاقتهما. عندما وصلت ماري إلى المؤتمر كان رذرفورد أول من لاحظ حالتها. كتب يقول «بدت مدام كوري منهكة





جداً ومتعبة وأكبر من سنها كثيراً. إنها تعمل كثيراً مما يؤثر على صحتها. وعلى كل فهي كيان يثير الكثير من الشفقة، لكن ستيفان ماير Stefan Mayer الذي طور معياراً للراديوم خاصاً به كان أكثر تهكماً وأخبر رذرفورد أن هذه الصدمات العصبية الظاهرة والإرهاق الذي اضطرها أن تترك قاعة الاجتماع قد حدث فقط عندما أصبحت المناقشة على غير هواها.

بعد انتهاء المؤتمر عادت ماري وبول إلى باريس ثم لحقت هي بأطفالها في مدينة لاركوي على الساحل الشمالي البريتاني، وهو المكان الصيفي المفضل للعلماء والأساتذة (مما يطلق عليه على سبيل المزاح «حصن العلماء»). وكانت عائلتا بوريل وبيرين تقيمان هناك. أصبحت مارجريت بوريل صديقة ماري المفضلة ومحل ثقتها. وفي إحدى الأمسيات جذبت ماري مارجريت من يدها وأفضت إليها بتخوفها، فبالرغم من أنها مستعدة أن تلقي بنفسها في النار من أجل بول لانجفين إلا أنها تخشى من أنه قد يرضخ لضغوط جين ويهجر العلم لمهنة مربحة أكثر أو يصل إلى حالة من الإحباط.

«أنا وأنت أقوياء... أما هو فضعيف». وبالرغم من ذلك وتماماً كما فعلت مع كازيمير زورافسكي فدعت نفسها بأنها ستجد وسيلة ما ليكونا معا.

اعترفت ماري بحبها لبول وبالغت في حقيقة أنها تخاطر بمكانتها من أجله وربما يصل الأمر بها إلى الانتحار إذا لم تسر الأمور كما يجب: فكر في ذلك عزيزي بول، عندما تشعر بأنك أصبحت منزعجاً بسبب اعتقادك أنك أسأت إلى أطفالك، فإنهم لن يجابهوا أبداً ما سيجابهه بناتي المسكينات اللاتي قد يصبحن يتامى بين يوم وليلة إذا لم نصل إلى حل مناسب». وبشيء يفهم منه أنه لحظة من الغيرة حذرته من استئناف علاقته الزوجية مع زوجته لأنه إذا ما حدث وأنجبت طفلاً آخر فإن كليهما، سيحاسب حساباً عسيراً من كل هؤلاء الذين يعرفون بعلاقتنا وللأسف فإنهم كثيرون. فإذا حدث ذلك فإنه سيعني القطيعة المؤكدة بيننا... إنني قادرة أن أخاطر بحياتي ومكانتي من أجلك لكني لا أستطيع تحمل هذه المهانة... فإذا أدركت زوجتك هذا فإنها ستقدم على هذه الخطوة».

تبع ذلك عدة رسائل إلى بول مشيرة إليه - بمزيج من القسوة والولع الذي يبين عدم حساسيتها - عن كيفية التخلص من زوجته، لا تكن ليناً معها عندما تبكي أو تذرف الدموع. تذكر المثل الذي يقول يبكي التمساح لأنه لم يستطع اقتناص فريسته، إن دموع زوجتك من هذا النوع، ثم تناشد لانجفين، عندما أعرف أنك معها تصبح ليال موحشة فظيعة، ولا أستطيع النوم. أنام بصعوبة لمدة ساعتين أو ثلاث، وأستيقظ بإحساس بالحمى ولا أستطيع العمل. افعل ما في استطاعتك لتنتهي من هذا الموضوع... إننا لن نستطيع العيش

على هذه الحالة، مارى التى تحايلوا وتوددوا إليها لتتزوج بيير الهادئ صارت ملتهبة ثم أنهت رسالتها قائلة، عزيزى بول إنى أضحك إلى بكل ما أوتيت من رقة... سأحاول العودة إلى العمل بالرغم من صعوبة ذلك عندما يكون الجهاز العصبى متهيج بهذه الدرجة.

يبدو أن لانجفين متذبذب، ففى مرة سابقة انفصل عن زوجته المزعجة إلا أنه سرعان ما أخذ يتوسل إليها أن تعود إليه. لم يترك لانجفين زوجته ولم يتوقف عن رؤية مارى. ودار نقاش حاد بين أندريه وبيرين الهادئ بطبيعته وبين بول لانجفين عاتباً عليه بسبب صحة مارى التى أصبحت أكثر اعتلالاً. وبسبب تقلباتها العاطفية وشرودها فى العمل وقد أصبحت لا تمنح بناتها الكثير من العناية.

أصبح المؤلف أسوأ من ذى قبل حيث تلقت مارى مجموعة من الصدمات الواحدة تلو الأخرى. فبإلحاح من أصدقائها، وربما لتجعل لانجفين فخوراً بها أعلنت تقدمها لشغل كرسى الفيزياء فى أكاديمية العلوم، أكثر الأماكن نفوذاً المجال العلمى فى فرنسا، حيث يلقى الأعضاء أبحاثهم، ويعقدون اجتماعاتهم وينالون منحاً ضخمة للبحث العلمى. كان المرشحون الآخرون لهذا الكرسى ضعفاء ما عدا إدوارد برانلى Edward Branly المخترع الذى كان له اليد الطولى فى مساعدة ماركونى فى التوصل إلى البرقيات اللاسلكية. وقع تصرف مارى كورى كالصاعقة على أعضاء هذه المنظمة عالية المستوى والتى يتسيدها الرجال وأفرزت تعليقات سلبية ليس من الرجال فحسب بل من النساء أيضاً اللاتى وجدن أنها تهدد أنوثتهن. كتبت الكاتبة ذات النفوذ جوليا دوديه، العلم عادة ليس للنساء، كما كتبت الممثلة الشهيرة مدام ماريا ريجنبير فى صحيفة الفيجارو، يجب ألا يحاول المرء أن يجعل المرأة مساوية للرجل، وأطلقت الصحيفة ذات الميول اليمينية وابلاً من النقد اللاذع ذاكرة أصلها البولندى ومواقفها المعادية للحرب. لم يكن ذلك إلا نذيراً لما هو قادم.

اجتمع أعضاء الأكاديمية يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩١١ ليدلوا بأصواتهم، وأعلن الرئيس أرماند جوتيه Armand Gautier أنه يرحب بالجميع ليدخلوا القاعة ما عدا النساء. وعند التصويت فى الجولة الثانية حصل إدوارد برانلى على ثلاثين صوتاً مقابل ثمانية وعشرين حصلت عليها مدام كورى. أرسل العديد من العلماء رسائل مواساة لها بسبب هذه الخسارة لكن المهم فى الأمر أن أشهر علماء فرنسا والحائزة على جائزة نوبل لم تستطع أن تلقى بأبحاثها فى الأكاديمية ولم تحاول أن تفعل ذلك أبداً بعد ذلك، ولكنها كانت ترسل بأبحاثها إلى المجلات العلمية مثل Comptes rendus.

وبحلول ربيع سنة ١٩١١ عاد بول ومارى للقاء مرة أخرى سراً حيث لم يستطيعا البقاء منفصلين. وكان اللقاء يتم فى شقة لانجفين بباريس. لكن مارى كانت قلقة لاعتقادها أن جين ترسل من يتتبع زوجها، ومن المحتمل أنها قد أرسلت ابنها الأكبر للتجسس عليهما. وكانت الرسائل شديدة الخصوصية قد اختفت فى فترة عيد القيامة من درج المكتب. وبعد أسبوع من سرقة الرسائل زار صهر جين لانجفين مدام كورى وأخبرها أن هذه الرسائل موجودة الآن فى حيازة مدام لانجفين وأنها تعد العدة لإعلانها. وفى ثورة غضب بسبب الرسائل المسروقة ترك بول المنزل ولكنه عاد مرة أخرى بعد أسبوعين. وفى يوم ٢٦ يوليو وبعد معركة مع زوجته غادر بول المنزل وبدأت جين فى إجراءات رفع قضية مدعية الهجر.

أرسلت مارى المنهكة والتى ترتعد من الخوف ابنتيها أيرين وإيف إلى بولندا لزيارة آل دلوسكى ولحقت بهما فى نهاية الصيف ثم توجهت إلى بروكسل لحضور مؤتمر سولفاى Solvay لسنة ١٩١١. وكانت هذه المؤتمرات تجذب أعظم العقول العلمية وكان يمولها إرنست سولفاى Ernest Solvay وهو كيميائى من بروكسل محب للخير كان قد طور طريقة جديدة لصناعة كربونات الصوديوم.

ومرة أخرى كان بول لانجفين حاضراً وكذلك كل من جين بيرين وألبرت اينشتاين و هـ. أ. لورنتز وماكس بلانك وارنست رذرفورد وآخرين.

وفى لحظة مثيرة وأثناء المؤتمر تلقت مدام كورى برقية من لجنة نوبل تعلن أنها الفائزة الوحيدة بثانى جوائز نوبل لكن فى الكيمياء هذه المرة. وفى الحفل الذى تلا ذلك أثنوا عليها «لإنتاج عينات نقية كافية من البولونيوم والراديوم ولتقدير أوزانهم الذرية، تلك الحقائق التى أكدها علماء آخرون، ولعملها الجليل لإنتاج الراديوم كعنصر نقى». وفى نفس اللحظة تقريباً وصلت برقية ثانية تفيد أن جين لانجفين قد بعثت برسائل مارى لبول إلى الصحف. تركت مارى المؤتمر على عجل لكنها كتبت على وجه السرعة قبل المغادرة رسالة قصيرة إلى رذرفورد تشكره على اختياره لها لعمل معيار الراديوم وأنها مقدرة لكل الاهتمام الذى أولاه إياها أثناء المؤتمر. وشرحت له أنها كانت تود مصافحته قبل المغادرة لكن مرضها لم يمكنها من البقاء.

عادت مارى إلى باريس وإلى السموم التى نشرتها الصحف عنها. وقال بولتوود الحقود «إنها تماماً كما تصورت البلهاء المقيتة!». أحاط الناس بمنزل مارى كورى وقذفوا بالحجارة نوافذه، فهربت بأطفالها إلى عائلة بوريل. نشرت وسائل الإعلام الكيفية التى شرحت فيها لبول بالتفصيل المطول كيف يمكن أن يتخلص من زوجته، واتهمتها بخراب البيوت، وأنها امرأة فاسقة، وشيطانة بولندية ويهودية.

وقد ساعدت الصحف اليومية اليمينية البذيئة فى تلطيخ سمعة مارى كورى والإشارة فى طبعاتها لجائزة نوبل التى لم تلق إلا بالقليل من الاهتمام فى مجال العلوم. وبالرغم من احتجاج مارى وبول بأن الرسائل قد سرقت لكن رسائل الإعلام كانت مصرة على تحطيم هذا الرمز. وقد قدم الإعلام ذلك إلى المجتمع الفرنسى المنقسم على نفسه. فبعد نصف قرن، وبعد الهزيمة المهينة لفرنسا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا والإبادة الهمجية للجنة باريس الثورية أصبح هناك خلاف سياسى فى فرنسا. والموضوع الوحيد الذى اتفقت عليه الغالبية هو رغبة الانتقام من الاحتلال الأجنبى وتلطيخ الشرف الذى حل بفرنسا. أصبح التعصب ضد السامية والشوفينية والخوف من الأجانب وكرههم هو السلاح الفعال فى يد اليمين القوى، حتى أنهم أطلقوا على جابرييل ليبمان الذى رفض أن يدين مدام كورى «اليهودى الذى اخترع التصوير الملون»، وعلى جين بيرين الذى دافع عنها «وريفوسارد المتعصب» (فى موجة من العنصرية والعداء للسامية فى سنة ١٨٩٤ شرعت نفس وسائل الإعلام اليمينية فى تجريم القبطان اليهودى ألفريد دريفوس متهمة إياه خطأ بأنه جاسوس).

كانت أيرين بالمدرسة عندما أشارت زميلة لها إلى عنوان جريدة لوفر L'ocuvre الذى تناول الفضيحة. قرأت أيرين القصة وانفجرت فى البكاء. وصل دوبرين الوفى للمدرسة وأخذها إلى منزل آل بوريل. وفى حجرة ضيافة آل بوريل كانت مارى المرتعبة تجلس فى انتظار أطفالها. وعندما وصلت إيف قالت لمارجريت بوريل «ما» حزينة وتبدو مريضة بعض الشىء، ويبدو أن «ما» فى حاجة للملاطفة». أما أيرين الرزينة فجلست بالقرب من أمها التى تعشقها والتى كانت تجلس متكمشة فى أحد الأركان، وفى لحظة نادرة من إظهار العاطفة أخذت مارى تداعب شعر أيرين. وصل أيرين وتطوعوا لأخذ أيرين معهم إلى منزلهم لكنها رفضت بإصرار «لا أستطيع أن أترك ما». وأخيراً عنفوها أن تذهب معهم. وبالرغم من أن كل الاهتمام كان مركزاً على مارى كما هو متوقع إلا أن ابنتيهما كانتا أيضاً تتألمان.

تحول بول أبل الذى شارك ديبرن فى تسليم جثمان بيير لمارى ضدها مثل الكثيرين من أصدقائها القدامى. ورتب مع مجموعة من الأساتذة من السوربون أن يطلبوا من مدام كورى مغادرة فرنسا. وعندما سمع أبل أن ابنته قد أخذت مارى لتعيش معها طلبها للحضور إلى شقته. وعندما وصلت مارجريت بوريل وجدت أباها فى ثورة عارمة. وقال لها «لماذا تتدخل فى أمور ليست من شأنها؟». ثم أعلن أنه سيقابل مدام كورى بعد ظهر غد ويطلب منها مغادرة فرنسا، وقد رتب لها كرسى فى بولندا. «وجودها فى باريس أصبح مستحيلا... لا أستطيع إيقاف البحر الذى سيغرقها».

وكما ذكرت مارجريت بنفسها أنها وقفت وهى ترتعش أمام أبيها الذى لم تجرؤ طيلة حياتها أن تعارضه أبداً. ثم استقامت فى وقفتها وأجابت «إذا استسلمت لتلك الحركة القومية البلهاء. وإذا أصررت على أن تغادر مدام كورى فرنسا... فإننى أقسم أنك لن ترانى أبداً إلى آخر يوم فى حياتى». أبل الذى كان يهم بلبس حذائه قذف بأحدها عبر الحجرة. ووراء كل هذا الغضب كان أبل يخشى أن تنزلق، ابنته فى هذه الفضيحة ولكنه استسلم ووافق على تأجيل قراره.

لاحظت مارجريت أن شيئاً من كل هذا ما كان ليحدث لو أن مدام كورى كانت رجلاً. ومن المؤكد أنه لم يسأل أحد بول لانجفين أن يترك فرنسا أو حتى أدانوه. الكل يعلم أنه قد عرضها للتبنى، وعلى أى حال لم يرها أحد أبداً. وفى عام ١٩١١ وفى كل يوم ما عدا أيام عطلة نهاية الأسبوع تسجل محاكم باريس تسعة وثلاثين حالة خيانة زوجية. ومن بين كل مائة حالة ولادة يتم رصد أربعة وعشرين منها لأطفال غير شرعيين. وجريمة مارى فوق كل ذلك لم تكن مجرد عشيقة بل هى امرأة متحررة عندما كان أمثالها من النساء يشكلن تهديداً لكلا الجنسين. وبسبب الارتفاع المتزايد الذى وصل إلى معدلات غير مسبوقة لحالات الإجهاض شكلت الصحف اتحاداً يمنع نشر إعلانات القابلات اللاتى يقدمن «الخدمات المستترة». والأدهى من ذلك الرسائل التى تظهر امرأة متحمسة: المرأة المحترمة تتقبل العملية الجنسية ولكنها لا تستمتع بها. وبالنسبة للرجال فإنهم يجدون متعتهم الجنسية خارج سرير الزوجية. واصلت الصحافة هجوماً يشبه انقضاض النسور على الجيف. وسارع كل من برونيا وكازيمير ولوسكى للوقوف بجانب مارس وكذلك جاك كورى للدفاع عنها. وبدا الأمر كله يأخذ شكل أوبرا هزلية، لدرجة أن كتب الصحفى اليمينى جوستاف تيرى أن لانجفين «شخص فظ وجبان». فتحداه لانجفين للمبارزة. كانت المبارزة أمراً غير قانونى فى ذلك الوقت ولكنها كثيراً ما تحدث. وبعد ترتيبات مستفيضة رفض تيرى أن يطلق مسدسه قائلاً إنه لا يريد أن يحرم فرنسا من واحد من العقول العظيمة. ولم يرفع لانجفين مسدسه بالمرة قائلاً «أنا لست سفاحاً». وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وأخيراً وقعت مدام لانجفين على وثيقة الانفصال بعد أن نجحت فى إيلام مارى كورى أكثر مما كانت تتوقع وذلك دون الإشارة لمارى فى الوثيقة. وبعد ثلاث سنوات عادا وتفاهما واتخذا بول عشيقة غير معروفة. وبعد عدة سنوات وبعد أن أنجب طفلاً غير شرعى من معاشرة إحدى تلميذاته السابقات إيلين مونتيل Elane Montel طلب من مارى أن تجد لإيلين مكاناً فى معملها، وفعلاً تم ذلك. أصبحت إيلين بعد ذلك أستاذة فى الإيكول فورمال فى سرفنى. ■

"الأنفلـــــونـزا الكبـــــرى":

ويليـــــام ماكنيـــــل

ترفع منظمة الصحة العالمية درجة التحذير من انتشار أنفلونزا الخنازير إلى الدرجة السادسة. وتنتشر مقالات على الإنترنت تقول بأنه «لا وباء هناك». وأن المسألة كلها صنعتها شركات الأدوية. وتعلن وزارة الصحة في مصر عن وصول عدد الإصابات بأنفلونزا الخنازير إلى ٧١ (حتى كتابة هذه السطور). الأمر الذى يمثل خطرًا. أخذا فى الاعتبار أن وباء أنفلونزا الطيور كان قد استوطن مصر والتى سجلت أعلى معدل للوفيات بسبب هذا المرض فى العالم.

فى أرشيف «وجهات نظر» مقال نشر في عدد أغسطس ٢٠٠٤ يلخص القصة الملحمية التى كتبها جون باري عن هذا الوباء. عندما تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و١٩١٩ واستحق أن يوصف بأنه الوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ.

(المحـــرر)

[١]

■■ رواية. جون بارى، عن وباء الأنفلونزا الذى تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩. وقتل من البشر أكثر مما قتلتهم بنادق وحراب الحرب العالمية الأولى، رواية رائعة مفعمة بالحياة زاخرة بالمعلومات ويتعين أن تثير اهتماماً غير عادى فى عام ظهور نوع فتاك من «أنفلونزا الطيور» ينتقل إلى البشر ويتفشى فى شرق آسيا وقد يكون على وشك اجتياح العالم على نطاق واسع كما فعل سلفه «وباء ١٩١٨». فى ذلك العام، لم يكن أحد يعرف سبب الوباء، الأمر الذى أدى إلى فشل جهود إيجاد الدواء. أما اليوم فإن المشتغلين بالطب، وكذلك هيئات الصحة العامة، فى وضع استعداد أفضل كثيراً عما كان عليه الحال عام ١٩١٨. إنهم يعرفون الآن طرق تحصين الإنسان ضد فيروس الأنفلونزا. رغم ذلك، ومع كل الخبرات والمهارات المتراكمة، يظل الشك قائماً فى قــدرة المؤسســة العلاجية المعاصرة على تقديم المصل الضرورى، فى التوقيت الصحيح، وبالقدر الكافى، لإحباط زحف أمراض وموت مشابه لما حدث قبل ٨٦ عاماً.

يروى «بارى» قصة الوباء فى فصول تبحر عبر أزمنة بعيدة وقريبة، وتفاصيل مثيرة لذكريات بداية تفشى الأنفلونزا فى ولايات أمريكية. يتعرض للمحاولات العملية والجهود الحثيثة، وإن فشلت، لمجموعة من الأطباء الأمريكيين سعت إلى العثور على الجرثومة المسببة للمرض، بهدف إيجاد المصل المضاد للوباء الذى خمد فى نهاية المطاف وانحسر نتيجة عوامل خاصة بالدورة الطبيعية للجرثومة وتطورها، والعلاقة الأزلية ما بين الكائنات الحية والبيئة وارتفاع مستويات المقاومة داخل خلايا الدم عند الإنسان، والتغير المهم المفاجئ للمورثات، والذى يجرد الفيروس من خاصيته المميتة.

خمد الوباء لأسباب لم تكن مفهومة زمن تفشيه، ودون أى تدخل طبى يعترض عملية التفاعل الطبيعى بين الفيروس الطفيلى وجسم الإنسان. لكن رواية «بارى» تستفيد من الاكتشافات العلمية اللاحقة، وتستند إلى فهمه المتجدد المثير للإعجاب والذى يضفى تفرداً و«هيبة» على الصور التى يرسمها لـ «ديناميكية» العدوى والوباء، ووظيفة الفيروس ومحاولة الأطباء ومسئولى الصحة العامة مواجهة الخراب والتعامل مع الموقف. يرصد «بارى» الأخطاء ويبدى تقديره لـ «الجهد» ويعيد بناء دورة العدوى وطبيعة الوباء فى ضوء مستويات الفهم العلمى الحالية، ويقول إنه احتاج لكى ينجز كتاب «الأنفلونزا الكبرى» إلى ٧ سنوات، وهى ضعف الفترة التى توقعها لإنجازه، وإن بعض أسباب «التأخير» تعود إلى توسعه فى فصول الكتاب عندما قرر دراسة الأوضاع المؤسفة لصناعة الدواء الأمريكية قبل العام ١٩١٨ كى يتوصل إلى فهم أفضل للموقف الذى كان على العلماء والأطباء مواجهته عندما تفشى وباء الأنفلونزا فى ذلك العام. ويشير بارى إلى سبب آخر يكمن فى صعوبة الحصول على مادة مفيدة عن الوباء ويقول: «كان من السهل تتبع حكايات الموت. لكن اهتمامى الأكبر انصب على حكايات أولئك الذين حاولوا ممارسة بعض سيطرة على الأحداث. وكل من فعل ذلك كان فى عجلة من أمره، وفى حالة ارتباك شديدة إلى درجة أن أحداً لم ينتبه إلى ضرورة تدوين الأحداث وحفظها فى سجلات».

السجلات هى، بلا شك، أول ما ينهار تحت وطأة تفشى الوباء. وظنى إن عاملاً آخر له تأثيره فى هذا السياق ويتمثل فى وجود أسباب خاصة تدفع الذين نجوا من الوباء إلى قمع ذكريات معاناتهم. وهذا العامل يفسر. فى اعتقادى. ندرة الأرقام فى الذاكرتين العامة والخاصة عن وباء أنفلونزا عام ١٩١٨، رغم ضخامة الإحصاء الذى سجل حوالى ٦٧٥ ألف حالة وفاة فى الولايات المتحدة، وما بين ٢٠ إلى ٥٠ مليون حالة حول العالم، معظمها فى الأسابيع الاثنى عشر الأخيرة لعام ١٩١٨. إن كل من عاش تلك الأسابيع الأخيرة، وإلى أن دار الوباء دورته، خاض تجربة الخوف من الموت أو من السقوط مريضاً، أو عانى معاناة حادة مع المرض. لقد كنت من هؤلاء الناجين لكننى لا أتذكر شيئاً إذ كان عمرى وقتها ١٣ شهراً عندما سقطت أمى صريعة المرض فى شيكاغو. كانت حاملاً فى شقيقتى التى وضعتها فى الرابع عشر من ديسمبر ١٩١٨، قبل موعد ولادتها بأسابيع. أصيبت، ووالدى، بالأنفلونزا، وكان والدى خريجاً جامعياً مفلساً وجد نفسه، وأمى، وحيدين فى مدينة مشلولة وبلا أقرباء أو عون خارجى. لم يسجل والدى معاناتهما فى كتاب. ولم أسمعهما يتحدثان. فيما بعد. عما تبقى لديهما من ذكريات. بدت التجربة الأكثر رعباً فى حياتهما وكأنها تعرضت لمحو ذاتى منظم لكى يبقى ما جرى بالفعل، وصراعهما من أجل البقاء، مجهولاً بالنسبة لى. لكننى علمت من كتاب «بارى» أن وباء الأنفلونزا كان أقل فتكاً فى شيكاغو مع حلول شهر ديسمبر عام ١٩١٨، عما كان عليه بداية تفشيه داخل معسكرات الجيش بالساحل الشرقى والمدن القريبة. «أصيب الشرق والجنوب بالوباء مبكراً وبقوة أعنف من تلك التى أصابت الساحل الغربى.. وفى وسط البلاد كانت المعاناة قليلة». وهذا يفسر لى نجاة والدتى، وكذلك شقيقتى، رغم أن الأشهر الستة الأولى من عمرها كانت محفوفة بالمخاطر. وعندما لجأت أسرتى خلال الصيف إلى مسقط رأس أبى فى مزرعته بكندا، أنقذت الشمس المشرقة، ورعاية جدتى، أمى وشقيقتى من أهوال شهر ديسمبر. انزوت الأهوال بعيداً فى زوايا النسيان وبقيت النهايات السعيدة تعاد وتروى دون ذكر لتفاصيل آلام الوحدة والخوف واليأس والمعاناة.

لدى كل من عانى وشفى من وباء الأنفلونزا ذكريات مشابهة مقموعة. ويرى «بارى» أن كتاب الصحافة والدراما فى العشرينيات لم يذكروا إلا القليل عن معاناة البشر أيام الوباء. وأذكر أن الشخص

الرسالة الواضحة هى أن عودة
انتشــار المـــوت بفعــــل الأنفـــلونزا
لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة،
ورغــــم كثـــرة المنظمـــات العالميـــة
المنـــوط بهـا مقاومة الأوبئـة

The Great Influenza: The Epic Story of the Deadliest Plague in History

الأنفلونزا الكبرى: القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ

John M. Barry

Viking Books, 2004, 560pp

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

قصة الجائحة

القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكا فى التاريخ



الوحيد الذى تحدث معى عنه، فى المحيط الذى تربيت فيه. كان صبيًا مات والده فى معسكر للجيش. وما نقلته إليه أمه لم يكن فيه الكثير عن وباء الأنفلونزا بقدر ما فيه عن الحرب التى اعتبرتها سبب وفاة زوجها. الجديد عند «بارى» هو عثوره على ما يشبه رواية يوميات تسجل حالة الإصابة بالوباء فى كتاب بعنوان «فرس شاحب.. فارس شاحب» نشرته «كاترين آن بورتر» عام ١٩٣٩، وكانت نفسها ضحية المرض. وينقل «بارى» عن «بورتر» قولها: «... راحت تغرق وتغرق فى ظلمات عميقة. رقدت كحجرة فى قاع الحياة مدركة أنها لم تعد ترى أو تسمع أو تتكلم. لم تعد تشعر بأعضاء جسدها. انسحبت إلى نقطة بعيدة عن اهتمامات البشر ولم تتبين سوى لحظة احتراق وحشية فى بؤرة من كينونتها لعلها شكلت الدافع الوحيد وراء إرادة عنيدة لكى تقاوم الانهيار دون حراك أو مساعدة أو خطة...». هذه المشاعر تبدو زائفة بالنسبة لى فقد أصبت، فى الخمسينيات، بالتهاب رئوى (وهو القاتل الفعلى لمعظم ضحايا وباء الأنفلونزا). وربما شعرت وقتها بـ «قاع ظلمات وانسحابات» بورتر. لكننى لم أشعر بتلك «الإرادة المشتعلة» للحياة. فى المقابل، وبفضل «البنسلين» أصابنى الشحوب ورقدت فى حالة إغماء وصحوت فى اليوم التالى خائر القوى بدرجة لم أعرفها من قبل.

آلام الحمى تعقبها حالة إغماء، وبعدها إما أن نشفى أو نموت. وأظن أن هذا هو ما خبره معظم ضحايا وباء الأنفلونزا ما بين عامى ١٩١٨، ١٩١٩. لا يوجد الكثير لكى يقال ويذكر. ولا يقول كتاب «بارى» الكثير عن كيف كان الحال عند الإصابة بالأنفلونزا الوبائية فى تلك الفترة. لكنه، وبصياغات أدبية غير عادية، وبراعة مثيرة للإعجاب فى عرضه لكل جديد فى علم الأوبئة، يقوم بعملية تنشيط قوية للذاكرة المعاصرة فى وقت قويت فيه التهديدات من أشكال جديدة لفيروس أنفلونزا مميت ظهر ويثير قلق المختصين والعامة على نطاق واسع.

[٢]

يعد وباء الأنفلونزا من أخطر الأوبئة التى تهدد البشرية. وتكمن خطورته فى أن الفيروس المسبب له يكون فى حالة تغير مستمرة خلال انتقاله ما بين الطيور والخنازير والكائنات الحية. وكل موسم جديد من مواسم «الأنفلونزا» يحمل تحديات جديدة للمختصين الذين عليهم أن يحددوا، وعلى وجه الدقة، نوع سلالة الفيروس التى يمكن استخدامها لإعداد المصل المضاد الملائم، وكذلك تحديد نوع الجرعات التى يمكن لملايين الأطفال والمسنين تعاطيها لمنع العدوى. ومواجهة هذه التحديات لا تزيل التهديد الذى يظل قائمًا ويتمثل فى أن كل نوع يظهر فجأة من فيروسات الأنفلونزا يكون على درجة من الاختلاف عن ما قبله، تجعله قادرًا على مقاومة المصل وكل المضادات الحيوية المتراكمة داخل أنظمة التحصين عند الطيور والخنازير والبشر.

وتتميز الفيروسات، كشأن كل الكائنات الحية، بقدرة على التحول والتغير واستمرار افتراسها، بلا رحمة، لخلايا أجسادنا. ونحن، كبشر، لدينا قدرات فريدة تمكننا من مقاومة أشكال هائلة لأنواع أخرى من فيروسات الأنفلونزا، إضافة إلى قدرة على استفزاز مصادر الطاقة الكامنة داخلنا. ونجد، فى المقابل، أن فيروس الأنفلونزا مقيد، بشكل محدود، ويعتمد، كما أشرنا، على إمكانية التحول المفاجئ والناجح إلى طفيل يصيب الطيور (المصدر الأساسى لتغذية الفيروس) كما يصيب مختلف الثدييات مثل الخنازير والبشر بالدرجة الأولى. هكذا يقدم «بارى» فى كتابه، أكثر التفسيرات وضوحًا لكيفية تمكن نوع بعينه من فيروس الأنفلونزا من اختراق الخلايا البشرية والتكاثر داخلها، وخلال ما يقرب من عشر ساعات، إلى آلاف الفيروسات المنبعثة من الخلية الميتة والمستعدة القادرة على تكرار الدورة المميتة.

أوضح بارى كيفية تغير الفيروس عبر ما يسمى بـ «تحول الجسم المضاد» وبصياغات دقيقة ومحكمة وأسلوب بسيط يسهل فهمه. فالسرعة التى تتكاثر بها فيروسات الأنفلونزا وتنتشر بنجاح داخل أجسادنا هى التى تزيد من وطأة المرض وشدته. ورغم قدرة الأجسام المضادة، داخل الجسد البشرى، على كبح هذا التكاثر، إلا أن نوعًا ثانويًا من البكتيريا يغزو الحنجرة والرئة ويتكاثر ويكون القاتل الفعلى لمعظم ضحايا الأنفلونزا.

يسوق «بارى» فى كتابه ملاحظات كثيرة وجيهة حول انعكاسات سلبية لحالة التعبئة الأمريكية النشطة فى الحرب العالمية الأولى، على وباء عام ١٩١٨. فى مقدمة هذه الملاحظات أن الآلاف من الجنود الصغار كانوا أكثر عرضة للعدوى عندما فرضت التعبئة للحرب تكدسهم بالآلاف داخل معسكرات ضيقة وعشوائية. هذه الحقيقة كانت معروفة لمجموعة صغيرة من الأطباء الذين تتبع «بارى» تاريخهم المهنى مثل ويليام هنرى ويلش، سيمون فيلكستر، ويليام كراوفورد جورجاس، ويليام بارك، أوزوالد أفيرى، وبول لويس. بعض هؤلاء، وخاصة جورجاس، ويلش، وفيلكستر، كانوا فى وضع سمح لأصواتهم المحذرة بأن تصل إلى القيادات لكن ضرورات الحرب، الحقيقية أو المبالغ فيها، أدت إلى تجاهل جهودهم الرامية إلى عزل ومحاصرة المرض الوبائى فى بداية تفشيه. وتفيد إعادة ترتيب الإحصاءات بأن عدد الجنود الذين لاقوا حتفهم بسبب العدوى أكثر من عدد هؤلاء الذين قتلتهم إصابات الجروح. كما أن الأمصال المضادة لأمراض مثل التفوئيد والكوليرا، والتى جاءت ثمرة تطورات علم الجراثيم عام ١٩١٧، هى التى ساعدت على نجاة ملايين البشر داخل الخنادق على الجبهة الفرنسية، فى وقت كان فيه الجنود الروس يموتون بالتيفوس وأوبئة مماثلة، على الجبهة الشرقية لتلك الحرب البعيدة كان الطبيب جراح كراوفورد جورجاس يعرف ذلك جيدًا عندما عين برتبة جنرال بالجيش الأمريكى بعد أن ذاع صيته لنجاحه فى

السيطرة على وباء الحمى الصفراء فى هافانا ومنطقة القنال (فى كوبا). لقد عمل جورجاس على إنتاج وتخزين كميات كبيرة من الأمصال والمضادات الحيوية والمحاليل. رغم ذلك، وعندما تفشى وباء الحصبة فى ولايتى جورجيا وتكساس ما بين سبتمبر ١٩١٧ ومارس ١٩١٨، تبين أن استعداداته لم تكن كافية وتسجل الإحصاءات ٥ آلاف و٧٤١ حالة وفاة بالحصبة فى معسكرات الجيش الموبوءة. لكن هذا الرقم سرعان ما تضاءل أمام أرقام ضحايا هجوم الأنفلونزا الذى بدأ فى الشهر الذى خمد فيه وباء الحصبة. ففى مارس ١٩١٨ بدأ وباء الأنفلونزا يتفشى فى معسكر «فنستون» بولاية كنساس. كانت الوفيات قليلة فى البداية، ولم يبدأ الاهتمام الواسع المشوب بالخوف إلا فى شهر يوليو عندما حصدت موجة ثانية من الوباء المزيد من الأرواح مع ظهور أعراض حادة تشير إلى أنها أنفلونزا غير عادية، وتزامن تفشيها فى كل من برست بفرنسا، فرى بورت بسيراليون، وبوسطن ماستشوستس. وسرعان ما راح ينتشر فى أنحاء العالم تحمله السفن والطرق الحديدية ليصل ذروته فى سبتمبر واكتوبر ثم يبدأ فى الانحسار تدريجياً بعد توهجات متواترة.

يرجع جديد الأبحاث نشأة وباء أنفلونزا عام ١٩١٨، داخل الولايات المتحدة على الأقل، إلى سلالة خبيثة لفيروس أصاب بعض أهالى ريف كنساس فى فبراير من ذلك العام، وأن العدوى انتقلت إلى معسكر «هاكسل» بواسطة ثلاثة رجال طلبوا لأداء الخدمة العسكرية فى ذلك الشهر وقبل بداية موسم الحصاد فى كنساس. ونحن نعرف أن نشأة وباء أنفلونزا الطيور الجديد وتفشيه (بداية العام الجارى) كانت فى ريف شرق آسيا. ففى الريف يعيش الإنسان عادة على قرب شديد من الطيور والخنازير.

المصدر الأكيد للوباء القديم (١٩١٨) لم يتحدد بعد. لكن «بارى» ركز انتباهه على سلسلة أحداث مترابطة ومنتقاة عن مسار الوباء وانتشاره فى الولايات المتحدة وبعض أجزاء من العالم. وقد لوحظت أهم إصابات الوباء مع نهاية اغسطس وخلال الأيام الأولى من سبتمبر فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوسيتس حيث تكدس ما يقرب من ٤٥ ألف رجل فى المعسكرات العشوائية وسجلت أيام الذروة ما يقرب من ألف و٥٤٣ إصابة، وحوالى ٢٠٠ حالة وفاة كل يوم. كان الأطباء والممرضات الأكثر عرضة للعدوى، وسقط العديد منهم بين مرضى وموتى. وسرعان ما انهار مستشفى المعسكر وأعلن المتحدث الرسمى له، يوم ٢١ سبتمبر، أنه لن يسمح بدخول المزيد من المرضى مهما كانت حالاتهم. كادت الرعاية الصحية تنعدم تماماً إلى أن ظهر الدكتور ويليام هنرى ويلش على مسرح الأحداث باعتباره «البطل الأمريكى» الرئيسى الذى أنشأ مختبراً علمياً للدواء، على الطريقة الألمانية، ووصفه بارى فى كتابه بأنه «زعيم الحركة التى أوجدت أكبر مؤسسة علمية للدواء، وربما أعظم مؤسسة علمية فى العالم كله». وقت ظهور الدكتور ويلش كان أكثر من ستة آلاف جندى قد حشروا داخل المستشفى صمم لاستيعاب ما لا يزيد على ٢٥٠٠ مريض. واختفت الممرضات وتزايدت المخاطر مع تزايد الأمراض. أنوف وآذان نازفة، وجوه زرقاء، ورئات محطمة بصور غير معهودة، جنباً إلى جنب مع جثث الموتى المتراكمة كالحبال والأخشاب». هذه الصور الدامية أقنعت ويلش ورفاقه بأن «هذا لابد أن يكون نوعاً جديداً من العدوى أو الطاعون». لكن ويلش، وبعض العلماء، سرعان ما تخلوا عن هذا الاعتقاد وتوصلوا إلى أن سبب الوباء يكمن فى نوع خبيث جديد من الأنفلونزا مركب من «تشكيلة» من الأوبئة الأخرى. وبقى السؤال يبحث عن إجابة محددة: ما هو سبب وباء الأنفلونزا؟

أوضحت أبحاث حديثة، فى مجالات وباء السل وأوبئة بكتيرية أخرى، أن معرفة الوباء تتطلب أخذ مسحات من الأغشية المخاطية للمرضى والموتى، ثم محاولة إنماء البكتيريا العالقة بتلك المسحات فى المختبرات على أمل تحديد هوية الكائن الحى المسئول، أو المسبب للمرض. وتستند هذه النظرية إلى فرضية أن كائناً شديد الدقة، متناهى الصغر، لا يرى إلا تحت المجهر ويدعى «الفيروس المترشح»، ربما يكون مسبب المرض. وكان الدكتور لويس، أهم أبطال رواية «بارى» ميالاً إلى هذه النظرية خاصة وقد أثبت من قبل أن فيروساً مشابهاً يكمن وراء «شلل الأطفال». لكن تسمية المسبب غير المرئى باسم جديد دون تحديده، تعد أمراً شديد الشبه بأن نرجع سبب مرض ما إلى «بخار عفن منبعث من مستنقعات»! وهذا هو ما فعله أكثر أطباء أوروبا إطلاعاً، فيما قبل الثمانينيات، عندما أثبت الطبيب الألمانى روبرت كوتش، نظرية «الجرثوم المنافس» وأعلن أن أنواعاً محددة من البكتيريا الدقيقة التى يمكن رؤيتها تحت المجهر، هى التى تتسبب فى وبائى السل والكوليرا. تمكن كوتش من تطوير طرق إنماء هذه البكتيريا فى معمله ثم قتلها وإعداد أمصال مضادة. ولا يمكن لهذه الخطوات أن تتم طالما بقيت الفيروسات غير مرئية. لهذا لم يكن أمام أطباء وعلماء عام ١٩١٨ إلا تركيز جهودهم الساعية إلى إيجاد علاج لوباء الأنفلونزا، على ضرورة اكتشاف البكتيريا العضوية المسئولة عن الوباء.

وفى ألمانيا، عندما تفشى نوع بسيط من وباء الأنفلونزا، أعلن طبيب محترم يدعى ريتشارد بفيفر أنه اكتشف نوعاً جديداً من هذه البكتيريا قال إنها تنمو داخل حناجر المرضى وتسبب ما أسماه بـ «الأنفلونزا البكتيرية». ويبدو أن الدكتور بفيفر ظن أن موقعه كمدير لمعهـــد برلين للأمراض الوبائية سيجعل «اكتشافه» جديراً بالتصديق. إذ إن العثور على تلك البكتيريا الجديدة فى حناجر المصابين بالأنفلونزا كان أمراً شديد الصعوبة. إضافة إلى فشل د. بفيفر فى إيجاد الوسائل المعملية الكفيلة بإنماء هذه البكتيريا ومحاولة إعداد أمصال مضادة للمرض.

ومن المؤكد . علمياً . أن ما حدث عام ١٩١٨ هو أن مجموعة متنوعة من البكتيريا غزت حناجر ورئات الأشخاص الذين تحللت أو دمرت أغشيتهم المخاطية نتيجة إصابتهم بفيروس الأنفلونزا الخبيث. هذا الفيروس الذى أحكم سيطرته وأحدث تلفيات وردود أفعال لأنظمة المناعة داخل جسم الإنسان، وغمر الرئة بخلايا ونفايات فيروسية. هذه هى الأسباب . المرجحة . وراء معظم الوفيات. أما بكتيريا الدكتور بفيفر فقد ظلت غير واضحة إلى أن تحسنت وسائل الفحص المعملى وتم اكتشافها فى مسحات أغشية مخاطية، الأمر الذى دفع د. بول لويس إلى التخلى عن فكرة وجود فيروس واحد وراء العدوى واللحاق بالفريق الذى يعتقد أن بكتيريا د. بفيفر هى المسبب للمرض. لكن هذا الاعتقاد انتهى بإعداد مصل يستفيد من جثث الموتى لكنه عديم الجدوى فى مكافحة الأنفلونزا. عدم فاعلية هذا اللقاح، وكل جهد بذل فى إطار نظرية بفيفر، أنعش من جديد نظرية الفيروس الواحد إلى أن جاءت الأربعينيات بالمجهر الإلكترونى القادر على أن يجعل الفيروس مرئياً وأصبح من الممكن تمييز مختلف الفيروسات ودراسة سلوكها.

لقد كان على الفهم المعاصر لفيروس الأنفلونزا، وقدراتنا الحالية على إعداد المصل المضاد، أن ينتظر اختراع المجهر الإلكترونى. ويقودنا الحديث إلى جهد مواز بذل ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ وكان أكثر نجاحاً فى إيجاد المصل المضاد للالتهاب الرئوى رغم أن فاعلية هذا المصل كانت مقصورة على التعامل مع بعض سلالات الجراثيم التى تصيب الرئة، وأدت صعوبة تصنيعه إلى إنتاج كميات ضئيلة منه لم تكن متوفرة إلا قبل النهاية «الطبيعية» للوباء. رغم ذلك، وكما يقول «بارى» فى كتابه، تبين أن تلك الأبحاث والتجارب التى أجراها د. أوزوالد حول جراثيم الرئة هى التى قادت عام ١٩٤٣ إلى الاكتشافات الأولية



للحمض النووى DNA فى التركيب الوراثى.

حكايات «بارى» عن بكتيريا الدكتور بفيفر وجهوده المعملية لإيجاد علاج للإنفلونزا، حكايات زاخرة بالمعلومات وتنويرية يرويها بإعجاب ويضفى أبعاداً درامية فى تناول كل جهد لكل عالم أو طبيب من أبطال روايته. رغم ذلك يعانى كتابه من أوجه نقص تجعل روايته عن وباء الأنفلونزا غير شاملة، ركز بارى على ما حدث داخل الولايات المتحدة لكنه لم يخبرنا . عملياً . إلا بما حدث فى مكانين فقط بـ الموقف الكارثى فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوستس والذى اقترن برواية أطول عما حدث فى فلاديلفيا. فقفز بارى فوق مدن أخرى مثل نيويورك وبوسطن حيث كان للوباء القدر نفسه من الشلل والفتك.

أما إشاراته إلى تفشى الوباء فى أجزاء أخرى من البلاد فقد جاءت متناثرة وشحيحة. ولم يقل «بارى» شيئاً عن اوروبا. وما قاله . بالفعل . حفل بمغالطات ناجمة عن رغبته فى التعظيم من خطر الأنفلونزا. يقول . على سبيل المثال. إن الهجوم الألمانى فى ربيع عام ١٩١٨ ربما يكون توقف بسبب تفشى الأنفلونزا وأن «القائد الألمانى» لودندورف نفسه «لام الوباء الذى أفقده المبادءة». ثم يتراجع قائلاً إن لودندورف ربما يكون اتخذ من سقوط جنود الحلفاء مرضى بالأنفلونزا ذريعة أو حجة لوقف الهجوم.

وفى السياق نفسه يأتى قول «بارى» أن هجمة أنفلونزا فى عام ١٩٢٠ «أضعفت عقل وجسد الرئيس ويلسون إلى درجة دفعته إلى إنهاء صراعه مع كليمنصو ولويد جورج حول شروط معاهدة فرساى للسلام».

هكذا يُحمل بارى الأنفلونزا مسئولية قرارات سياسية وحربية من المؤكد أنها تأثرت باعتبارات أخرى أكثر إلحاحاً. كذلك عانى كتاب بارى من قصور ملحوظ فى تصويره لمدى وحجم تفشى الوباء فى بقية أنحاء العالم. جملتان فقط هما كل ما كرسه للصين، البلد الأكثر تعداداً فى السكان، تلتهما صفحة من الوصف المبالغ فيه عن الوباء فى الهند: «لم يكن هناك إلا الموت فى شبه القارة الهندية، القطارات تغادر حاملة الأحياء وتعود كل يوم محملة بالموتى والموت». وفى تصوير آخر مفعم بالدراما يقول «اندفع الفيروس بعنف مخترقاً السنغال، سيراليون، إسبانيا، وسويسرا، مخلفاً الدمار الحاد وفارضاً ضريبة موت زادت فى بعض المناطق عن ١٥٪ من إجمالى عدد السكان». معلومات مبهمة عشوائية وتكاد تكون بلا معنى.

يضاف إلى ذلك أن بارى يتمسك بمجموعة من المشتغلين بالطب كأبطال لروايته رغم أن تجاربهم المعملية لم تخرج بشىء يذكر لمقاومة الأنفلونزا. ويبدو أن النجاحات اللاحقة فى اكتشاف الفيروس جعلت بارى لا ينظر إلى جهود أخرى، غير فعالة أيضاً، وإن كانت مريحة ومساعدة، بذلها آخرون فى مواجهة المرض وللحد من الوباء. لقد قلل من شأن أطباء فعلوا ما يفعله أمثالهم من مهنيين عبر قرون مضت: تقديم علاجات غير مفيدة. لكنهم . ومع ذلك . أكدوا للناس أن شيئاً ما يحدث وأن أطباء «بارى» ليسوا أفضل منهم.

يعرب «بارى» عن أسفه للسياسة الحكومية والإعلامية التى حاولت التقليل من حقيقة الوباء، أو إنكارها. وينقل . بسخرية . عن مفوض الصحة العامة قوله: «إن من واجبنا إبعاد الخوف عن الناس، فالقلق يفتك بأعداد أكثر من تلك التى يفتك بها الوباء». وهذه مجرد أكاذيب أو أنصاف حقائق صممت لطمأنة الناس، وقد تكون سمحت للمجتمع الأمريكى بالاستمرار فى أداء وظائفه قبل وبعد تفشى الوباء، وحافظت على «السلوك العادى» فى العديد من القرى والمدن. ومن المهم ملاحظة أن اقتصاد المجتمع الأمريكى فى عام ١٩١٨ كان يقوم ويعتمد على تدفق السلع والخدمات عبر البلاد. وكل إعاقة لحركة التدفق هذه تعد تهديداً للحياة. فلا توجد مدينة تستطيع أن تحيا دون إمدادات متواصلة من الغذاء والسلع الضرورية الأخرى. وقد زاد المجهود الحربى من قابلية هذه الأوضاع للانكسار بأن حشد ملايين الجنود فى معسكرات جيش عشوائية. وكان من الضرورى الحفاظ على «روتين» عمل يومى. وربما يكون الإنكار الرسمى لاقتراب الوباء القاتل من هذه المدينة أو تلك قد ساعد فى تحقيق الأهداف المرجوة. لكن «بارى» يظن أن مثل هذه السياسات الرسمية أوجدت عدم الثقة. وفى المقابل لا تذكر فصول الكتاب شيئاً عن دور رجال الدين والجهد المنوط عادة بالقساوسة ورؤساء الكنائس لطمأنة رعاياهم وقت الأزمات. ومن المؤكد أن هؤلاء جابوا البلاد ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ لتقديم العون التقليدى عبر إقامة الصلوات والاحتشاد وأداء شعائر وطقوس وخدمات دفن الموتى. هذه الجهود لم تقدم الدواء لكنها طمأنت الخائفين وساهمت فى الحفاظ على تماسك المجتمع الأمريكى، ولو لبعض الوقت.

لقد شيد بارى نصاً شديد البراعة يبدأ وينتهى بلقطات فوتوغرافية للدكتور بول لويس وهو يتحدى المرض الجديد داخل مستشفى فلاديلفيا عام ١٩١٨، ثم وهو يعانى سكرات الموت بالحمى الصفراء عام ١٩٢٩ فى البرازيل.



جعل «بارى» من الدكتور لويس النموذج والرمز للجهود «غير المجدية» التى حاولت إيجاد علاج للوباء فى المختبرات العلمية. وصفه بأنه «أذكى من عرفهم» لكنه، وفى كل مرة يتحدث فيها عنه كان يكرر وصفه بالعبارة نفسها التى بدت وكأنها شعار أو «موتيفة» لشركة لإنتاج الأفلام. وفى السياق نفسه صاغ العناوين الرئيسية لفصول كتابه وكأنها ترديدات «كورس» فى فرقة إنشاد: «هذه أنفلونزا.. مجرد أنفلونزا»، «الحرب هناك والوباء هنا، ولم يكن هناك وقت»، لكن هذه الصور البلاغية أضفت ظلالاً شبه ملحمية على النص. ولعل هذا هو سبب اختيار «بارى» للعنوان الفرعى لكتابه: «القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكاً فى التاريخ». ولأن هذه العبارات توحى بالملحمية وتكرسها نرى «بارى» قد أكثر من اللجوء إليها فساوى بذلك. فى كتابه . ما بين الأبطال والمخادعين. وهنا قد تكمن حقيقة الأنفلونزا ذاتها: فوباء عام ١٩١٨ قتل من البشر أكثر من الذين قتلهم أى وباء سابق. لكن «حجم الفتك» وفداحته كان بسبب كثافة بشرية مكنت الفيروس من العثور على من يتغذى بهم. وفى النتائج النهائية فإن هذا الوباء يكاد يكون من الأوبئة العادية إذا ما قورن بـ «الموت الأسود» الذى تفشى فى أوروبا وآسيا فى القرن الرابع عشر، أو الطاعون الذى تلاه. فكلاهما كان له التأثير الأبقى والأقوى على المجتمعات البشرية، وحصد من الناس حصة أكبر مما حصدها وباء أنفلونزا عام ١٩١٨ . ١٩١٩.

وطوال فصول كتابه يريدنا «بارى» أن نرتجف من الموت والمعاناة وأن نعجب بأبطاله فى المختبرات العلمية ونستهين بشأن هؤلاء الذين حاولوا تهدئة الأمور وطمأنة الناس بالكلمات والعلاجات غير الكافية وقد يؤخذ عليه أنه بدا فى بعض الفصول كمحرر إعلانات يريد أن يملأ شاشات التلفاز بالمبالغات والإثارة. لكن فهمه الموسوعى لعلم الأوبئة المعاصر، وتفسيره البارع لكيفية عمل الفيروس داخل جسم الإنسان، يطغيان على بعض صياغاته التى جنحت إلى المغالاة.

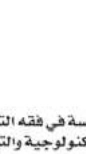
ويبقى النص رسالة واضحة تجعل كتابه الكتاب الأكثر جدارة بالقراءة.. ذلك أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

دراسة في فقه التنمية التكنولوجية والتعليمية

تأليف: إبراهيم بدران

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٥٨ صفحة



لقد أيقنت منذ مقتبل العمر أن المعرفة والبحث هما السبيل القويم لإحراز التنمية التي تأكد بعدها أنها شريعة للتقدم والبقاء في زمن أصبحت فيه قدرة العقل وكفاءة الابتكار هما المؤهل للتنافس والرفعة للدول والشعوب.

لذلك دعتني الظروف في أخريات رحلة الحياة أن أعتصر الذاكرة عما اجتبيناه في مسار الرحلة الشاقة التي كتبت علينا ومشيناها، بداية من أوائل أربعينيات القرن العشرين عندما التحقنا بكلية الطب، جامعة القاهرة وحتى اليوم.

والآن رأيت أن أختصر محصلة هذه الرحلة الشاقة في وريقات، رؤية لا أدعي أنها شخصية، ولكنها خلاصة خبرة وجهد جيل كامل قدمنا فيها ما أمكننا وقدر لنا من جهد وعطاء مخلص في مرحلة من تاريخ مصر.

■

مسألة الحرب العادلة فى الإسلام

جون كلسى

ترجمة: د. رلى ذبيان

مراجعة: د. رضوان السيد

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٢٨٧ صفحة



إن هذا الكتاب يتطلع إلى وصف كيفية ممارسة الشريعة الإسلامية بين المسلمين المعاصرين، وذلك من خلال تفسير مصطلح الجهاد الذى أصبح يرتبط فى أيامنا هذه بأكثر المعانى إرهاباً وتضليلاً.

يقدم جون كلسى، فى كتابه، تفسيرات واضحة لظروف الجهاد الذى يتبعه المسلمون بحسب التقليد الإسلامى، مرتكزاً فى تفسيراته هذه إلى الأحداث التاريخية السابقة من جهة، وإلى الآيات القرآنية من جهة ثانية. فهذا الكتاب هو عمل راق يقوم الحجج الإسلامية المرتبطة بمنطق الشريعة الإسلامية، ويزيل أى التباس عند المسلمين وعند غير المسلمين حول مسألة الحرب العادلة.

■

الرواية الإسلامية المعاصرة

دراسة تطبيقية

حلمى محمد القاعود

كفر الشيخ: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩



هذه الدراسة تهدف إلى الاهتمام بفن الرواية الإسلامية أو كتابة الرواية من خلال منظور إسلامى، بوصفها جنساً أدبياً مهماً، يمكن أن يدعم الأدب الإسلامى ويمده بالكثير من الثروة والقيمة الفنية، إن صح التعبير.

لقد ركز الأدباء الإسلاميون فى معظم أعمالهم الأدبية فى مجال الشعر، وقليلون هم الذين اتجهوا إلى ميدان الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والملحمة، ولعل ذلك يرجع إلى سهولة التعامل مع الشعر فى مجال الإبداع، وعلى العكس من الأعمال القصصية أو الدرامية التى تقتضى جهداً وتفكيراً وزمناً طويلاً. إن التصوير من خلال الشخصيات والأحداث والتركيب القصصى يبدو أكثر صعوبة من التصوير الشعرى، ويحتاج إلى نفس طويل وعميق، لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الأدباء.. وفضلاً عن ذلك، فإن البعض ينظر إلى فن القصة عموماً نظرة فيها الكثير من الشك والارتياب، انطلاقاً من بعض المفاهيم القاصرة.. لذا كان نصيب الرواية فى مجال الأدب الإسلامى محدوداً وقليلاً.

وقد عملت هذه الدراسة على تتبع أبرز الأعمال الروائية الإسلامية بالدرس والتحليل أملاً فى تجلياتها وإبراز إيجابياتها، مع بيان قيمة المعالجة الروائية لقضايا الأمة ومشكلاتها وآمالها.. وتأثير تلك المعالجة على القارئ الذى يرى الفكرة مشخصة ومجسمة فى خياله ووجدانه من خلال أحداث ومواقف، وشخصيات ونماذج، فيكون صداها فى نفسه عميقاً وفعالاً.. على العكس من الفكرة الذهنية المجردة التى تُغرق فى الخطايا والكلام المرسل، فيكون تأثيرها وقتياً وسطحياً.

إن هذه الدراسة تُعنى بالقراءة التطبيقية للأعمال الروائية المختارة، بوصف القراءة التطبيقية ضرورة مهمة فى الدعوة إلى الأدب الإسلامى الذى كثر الحديث عنه حديثاً نظرياً مجرداً، وتصور بعض الناس أن الأدب الإسلامى مجرد كلام وعظى لا يتقيد بالتقاليد الأدبية ولا بالقيم الفنية، ومن ثم، فإن القراءة التطبيقية تفرز النصوص الجيدة والنصوص الرديئة، أو تبرز العناصر الإيجابية ونظيرتها السلبية من النص الأدبى، فتثبت أولاً أن الأدب الإسلامى لا يتسامح فى هبوط المستوى الفنى ولو كانت الغاية سامية وشريفة، وتؤكد ثانياً على عناصر القوة والضعف لدى الأديب فى عمله الأدبى، فيستزيد من الأولى ويتخلص من الثانية.

■ ■

بدأت هذه الدراسة بتمهيد طويل حول الرواية الإسلامية المعاصرة يرصد واقعها ويعبر عن الآمال المعقودة عليها، ثم يعقب هذا التمهيد مجموعة الفصول التى ضمت القراءة التطبيقية للروايات المختارة. هذه الروايات تمثل إلى حد ما واقع الرواية الإسلامية فى العالم العربى، تم اختيارها عشوائياً، فضمت روايات لأدباء من العراق والأردن وفلسطين والسعودية ومصر والمغرب، يأمل الباحث أن يواصل مستقبلاً ـ إن شاء الله ـ مسيرة الرواية بالقراءة والتحليل فى شتى الأقطار العربية.

وقد أضيفت إلى قراءة الروايات المختارة، قراءة رواية أفغانية مترجمة، لتثبت ما تحدث عنه الحديث فى التمهيد من ضرورة اطلاع أدبائنا العرب على الأدب الإسلامى فى اللغات الأخرى مثل التركية والفارسية والأردية وغيرها، لإثراء أدبنا الإسلامى فناً وموضوعاً.

تبقى الإشارة إلى أن القراءة التطبيقية فى هذا البحث انتهجت طريقة تحاول الاقتراب من القراء كلما أمكن، بأيسر الألفاظ وأوضح العبارات، بعدما شاع الغموض والتعقيد فى الدراسات المعاصرة دون مسوغ منهجى أو نقدى. فالغاية فى حقيقة الأمر، هى قراءة النص الروائى وفهمه واستبطان أعماقه والوقوف على أبعاده المختلفة. وعندما تصبح القراءة النقدية عبئاً على القراء والنص، فإنها تعنى أن خللاً ما يكمن فى هذه القراءة، وهو ما يعيب دراسات عديدة تدعى مسايرة التطور والنظريات النقدية الجديدة دون أن تستوعب هذه النظريات أو ذلك التطور استيعاباً حقيقياً يسفر عن إغناء دراستنا النقدية بالعناصر المفيدة والمثمرة.

لقد طمحت هذه الدراسة إلى التركيز على جماليات النصوص الروائية موضوع القراءة التطبيقية، مع تقديم نبذة أو خلفية عن النص ومؤلفه، وعلاقة ذلك بالنصوص الأخرى للمؤلف إن وجدت، وفى الوقت ذاته، فقد اهتمت الدراسة بـ «اللغويات» انطلاقاً من واقع نقدى أهمل هذا الجانب إهمالاً ملحوظاً، وتحاول الدراسة «رد الاعتبار» للغة وخاصة فى مجال النحو والصرف، ومعالجة الأخطاء الشائعة التى ينساق إليها بعض الكتاب بحسن نية، ومسايرة لآخرين، دون تأمل أو تدقيق.

وبعد، فإن الدراسة محاولة متواضعة، تأمل أن تحرك باحثين آخرين للاهتمام بفن الرواية إبداعاً ووصفاً من أجل مستقبل أفضل للأدب الإسلامى فى اللغة العربية. وصلى الله وسلم على نبينا الكريم، وعلى اله وأصحابه أجمعين.. والله من وراء القصد ـ وهو الهادى إلى سواء السبيل.

■

الإسلام والغرب (الأنا والآخر)

إشراف الدكتور محمد عابد الجابرى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٠٤ صفحات



«عرفت العقود الأخيرة، ومنذ الثورة الإيرانية، اهتماماً متزايداً بموضوع «الغرب والإسلام». ويلاحظ أن الاهتمام بهذا الموضوع قد تطور، إلى أن توسع الكلام فيه ليندرج تحت ما أسماه هنتنجتون بـ «صراع الحضارات»، أى الصراع بين الحضارة الغربية من جهة والحضارة الإسلامية من جهة ثانية.

إن هذا الكتاب يهدف إلى تفكيك عبارة «الغرب والإسلام» فى محاولة لتحريرها من الأفكار الموروثة والمشحونة بدلالات غامضة تجمع بين قلق الحاضر والخوف من المستقبل».

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، أشرف الدكتور محمد عابد الجابرى على اختيار مجموعة من المقالات المنشورة فى مجلة فكر ونقد، والتى كتبها نخبة من المفكرين وجمعها فى كتاب يمثل الكتاب الأول من سلسلة فكر ونقد التى ستصدر كتبها تباعاً.

■

بيت العائلة

سامية سراج الدين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣٨٢ صفحة



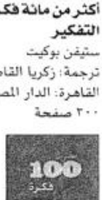
رواية مدهشة ومحيرة تتناول كفاح عائلة مصرية عريقة لمواجهة اضطرابات ما بعد الحرب العالمية الثانية في القاهرة. نشأت جيجي في أحد القصور الفخمة بجاردن سيتي، يضم عائلتها الكبيرة، الرجال منهمكون في العمل بالسياسة، والتجارة، وزراعة القطن. والنساء منهمكات في تبادل الزيارات والنميمة والتسوق وترتيب الزيجات وغيرها من الشئون العائلية. كان البيت مفتوحاً على الدوام أمام الزوار ورجال السياسة، والعائلة: هناك حيث اختلط الكرم المصري الأصيل بالسلوك الكوزموبوليتاني. كان عالماً مبهراً ويبدو خالداً، بينما أوشك عصر الباشوات على الأفول. أجبر الكثيرون على الرحيل عن مصر. أما من بقي منهم فقد واجه واقعاً مراً.

أكثر من مائة فكرة لتدريس مهارات التفكير

ستيفن بوكيت

ترجمة: زكريا القاضى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٣٠٠ صفحة



لأن اختيار المرء وافر عقله، كما يقول ابن حزم، يوضح زكريا القاضى فى مقدمته للترجمة أهمية هذا الكتاب، وما يمكن أن يحدثه من أثر فاعل فى طرائق التفكير وأساليبه بدءاً من القارئ العادى، وطلبة كليات التربية، ومعلمى المراحل التعليمية المختلفة فى التعليم ما قبل الجامعى، وأعضاء هيئات التدريس بالجامعات. وما يمكن أن يرسمه من خلاصات للحوار والتواصل مع غيرنا من بنى الإنسان فى زمن، غدت فيه الخلاصات أساساً للبقاء وشرطاً جوهرياً للسير ضمن قافلة المبدعين والقادرين على تحقيق أحلامهم.

الكتاب الذى يحتوى على أكثر من مائة فكرة، قدم له العالم التربوى الكبير د. حامد عمار، الذى أثنى على الترجمة لغة وفهماً، كونها جاءت من زكريا القاضى عاشق الترجمة.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء كبرى، تحتوى على مائة وعشرين فكرة، فالجزء الأول وهو: «بناء بيئة التفكير» يتوقف طويلاً أمام العقل المنطقى والعقل المبدع، والتفكير الاستراتيجى، وكل العمليات المرتبطة بالذهن البشرى والبيئة، التى يجب توافرها لتكون عملية التفكير ناجحة.

أما الجزء الثانى، والذى يحمل عنوان «أدوات اللعبة» فيدرس أدوات التفكير الإبداعى، والبنية العميقة والبنية السطحية ومنحنى التعلم، والتركيز على الأفكار والأسئلة، وعلى هذا المنهج العلمى البسيط والواضح يأخذ الجزء الثالث «إحضار كل الأدوات معاً» بأيدينا ليدلنا على درجات التفكير الأعلى، ودرجات التفكير الأقل والتفكير من أجل المتعة، وعادات جيدة للتعلم، ويتبع المؤلف كل فصل من هذه الفصول بتعليمات للنشاط يجريها المعلم مع تلاميذه لاكتشاف ملكات الفهم لديهم، لأن التعليم والتعلم الناجح يعرض خصائص الإخلاص والأصالة.. فالإخلاص يعنى امتلاك التوجه الذى ترغب فى أن يحصل لدى طلابك، وإظهار الفضولية وحب الاستطلاع نحو العالم، استمرار عملية تكوين المعلومات، بينما الأصالة تعنى إعداد المهام التى يتلقاها الطلاب بما يلائم العالم الواقعى.

بهذا المفهوم يتسع الكتاب بفصوله كلها ليخرج من كونه كتاباً موجهاً إلى المعلم، ليشمل كل من يريد أن يكون عمله ناجحاً، سواء كان معلماً أو مديراً أو حتى كاتبا مبدعا يتلمس طريقه نحو استقلاله الذاتى فى الكتابة والإبداع، وهو نوع من الكتب مفتقد فى ثقافتنا العربية، لأننا ننظر إلى الموهبة باعتبارها مناط كل تميز، ونهمل جانب التعلم والدأب.

■

كيمياء الحب والمرح والمناعة

عبدالهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩

المحمول والوجبات السريعة.. سلوكيات تهدد حياتنا

عبدالهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩





فى طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، وعلى ورق فاخر ومصقول، صدر كتابان للدكتور عبدالهادى مصباح، هما: «كيمياء الحب والمرح والمناعة»، و«المحمول والوجبات السريعة.. سلوكيات تهدد حياتنا». فى الكتاب الأول، يتناول عدة موضوعات تهم القارئ وتثير فضوله مثل الحب والعدوى والنوم والساعة البيولوجية فى جسم الإنسان، والضحك والانفعالات والتوتر، والنوم والأرق، والسعادة والرضا والإيمان، وتأثير كل منهما على الصحة بشكل عام، والمناعة بشكل خاص، كما يتناول موضوع الغذاء ومضادات الأكسدة، وتأثيرها على صحة الإنسان ومناعته، وعلى تأخير الشيخوخة وأعراضها وأمراضها.

ويتساءل د. عبدالهادى مصباح، ويحاول تفسير كيف يحدث الحب، وهل الحب كيمياء أم فيزياء أم بيولوجى؟ فالتفسير الفيزيائى للحب والتجاذب بين البشر يشير إلى أن الحب يحدث نتيجة التغير فى الموجات الكهرومغناطيسية المنبعثة من أجسامنا، أما التفسير الكيميائى للحب فيعتمد على أن كل عواطف الإنسان وانفعالاته إنما تحدث نتيجة لعمليات كيميائية يسببها منبه معين: نظرة عين أو لمسة حانية من نوع خاص تشعر بها اليد أو من خلال كل ذلك مجتمعاً، ويبقى التفسير البيولوجى للحب الذى يتمثل فى علاقة الغدد والهرمونات بأحد التفسيرات البيولوجية لغريزة الأمومة.

ثم تنتقل فصول الكتاب إلى الحديث عن جيش الدفاع الإلهى المسمى بجهاز المناعة، وأهم مكوناته، وكيف يتصدى للعدوى بالأمراض والميكروبات المختلفة، مثل فيروس الأنفلونزا، وكيفية الوقاية منه، ثم يتناول الضحك، الذى عزَّ وغلا فى هذه الأيام، وكيف له تأثير إيجابى عظيم على جهاز المناعة، وكيف أن العلاج بالضحك أصبح فرعاً من فروع الطب البديل لعلاج الكثير من الأمراض. وإذا أضفنا الضحك إلى عاطفة الحب، فإن جهازنا المناعى يكون فى أقوى حالاته وأكثرها قدرة على مواجهة الأمراض.

أما الكتاب الثانى: «المحمول والوجبات السريعة.. وسلوكيات تهدد حياتنا» فإنه يتناول الجانب السلبى للتطور العلمى، والأضرار والتأثيرات التى تنتج عن عدة عادات تضر بالصحة مثل التليفون المحمول، والوجبات السريعة وإدمان التليفزيون، والمضادات الحيوية، والعادات الغذائية السيئة. فالمحمول أخطر اكتشافات العصر، يؤثر تأثيراً مباشراً على خلايا المخ، ويشوش على الموجات الكهربائية للقلب، ويقدم الكتاب الوصفات المثالية للتخلص من إدمان التليفزيون والإنترنت، الذى لا يقل خطورة عن مضاعفات تناول المضادات الحيوية.

ويأتى الفصل الخامس ليقف أمام مشكلة يعانيها معظم الرجال، ويخجلون من الحديث عنها وفيها، وهى مشكلة العجز الجنسى وانخفاض خصوبة الرجال، ويعرض تقييما للأدوية التى ظهرت لهذه المشكلات مثل الفياجرا والسياليس ومدى نجاحها فى معالجة مشكلة العجز الجنسى، مختتماً بالكلام عن فن الاستماع المفقود، وكيف نتعلم أن ننصت لغيرنا.

إنهما كتابان فى غاية الأهمية لأية أسرة مصرية خصوصاً فى ظل انتشار أنواع غريبة من الأنفلونزا مثل أنفلونزا الطيور والخنازير وغيرهما مما لا نعلمه ومنهما نتعلم كيفية مواجهة هذه الأمراض الغريبة بتقوية جهاز مناعتنا.

■

عندما تبكى الخيول

عبدالرشيد الصادق محمودى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٩



ليس فى جاردن سيتى خضرة ولا طيور ولا فراش ولا أخبار عن عروش بعيدة يحرسها الجان. ليس فيها إلا مبان وحديد. فيها حشرات دنيئة كالذباب والصراصير. ولكنها تخلو من ألوان الطبيعة وغنائها. ليس فيها نضرة البرسيم ولا ذهب سنابل القمح وهى تتمايل وتموج مع الريح ولم يمر بها الهدهد فى أى يوم من الأيام ليتفقد رعيته. وهى لا تعرف ذلك الجزء من أجزاء النهار الذى يسمى «الضحى». الضحى عندما يرتفع بطن النحل ويهدل الحمام وربما سمعنا أنين السواقى ونعيق الغربان. الضحى هو الساعة التى تشهد انتشاء الكائنات بالنور قبل اشتعال الأرض بنيران الظهيرة.

■ ■

ها هو رجل مصرى صميم تحصن مثله مثل كل المصريين فى ركن يفر إليه من المدينة المنهارة، رجل يمارس الفن الذى يجيده كل المصريين وهو فن الصبر على المكروه. لم يعودوا يأبهون لمن يحكمهم ولا لطريقته فى حكمهم. ليس لهم إلا الصبر حتى يمر. فإذا جاءهم مثلاً الإخشيد أو عبده المخصى كافور أو «الرئيس المؤمن» سايروه على قد عقله.. إلى أن يمر. وربما تفوقوا عليه فى النفاق، فأطلقوا اللحى وحفوا الشوارب وحملوا المسابح وحجبوا نساءهم ونقبوهن.

■

«باب التوفيق».. فى معرض تورينو

■■ بمناسبة معرض تورينو الدولى للكتاب الذى عقد أخيرا واستضاف مصر كضيف شرف، قام اتحاد كتاب مصر بإعداد هذا الكتاب الذى يضم ترجمات إلى الإيطالية لأعمال ١٦ من كبار الكتاب المصريين من أمثال جمال الغيطانى وبهاء طاهر وخيرى شلبى وسلوى بكر ومحمد المخزنجى وغيرهم.

الاحتفاء بالكتاب كان واضحا فى تغطيات الصحف الإيطالية. قالت «كورييرى ديلا سيرا»: «كنا نتمنى أن يكون هناك فى المعرض عشرات الكتب مثل «باب التوفيق» فمناسبة استضافة مصر كضيف شرف لا تحدث كل سنة وينبغى أن تكون فرصة لتبادل المعرفة بين المصريين والإيطاليين من خلال اصدارات جديدة تنشر بهذه المناسبة، أما جريدة «إلتمبو» فقال مراسلها لويجى كرافيلى «لقد وقفت تماثيل الفراعنة على مدخل معرض تورينو هذا العام تحرس الكنوز الفكرية المعروضة فى الجناح المصرى والتى كان من درانها كتاب «باب التوفيق» الذى قدم لنا الأدب القصصى المعاصر فى مصر فى ترجمة ايطالية رشيقة نشكر عليها اتحاد كتاب مصر، باولو فالسيا صاحب دار النشر التى تحمل اسمه».

ولا شك أن المشاركة المصرية فى المحافل الثقافية الدولية التى كان آخرها معرض تورينو يمكن أن تعود على مصر بفائدة جمة حيث تمثل فرصة لتقديم الوجه الفكرى والثقافى لمصر المعاصرة، ذلك البلد الذى طالما جذب إليه اهتمام العالم على مر العصور، فما من شك أن لاسم مصر عبر التاريخ حضوراً لافتاً، بوصفها كيانا مرموقا فى المنطقة، بل وبين مختلف دول العالم، برغم معاناتها فى فترات تاريخية طويلة من طبقات المستعمرين المتراكبة والمتعاقبة، ورغم الفقر والقهر والقحط والتهميش والكوارث الطبيعية والسياسية. وقد كانت تلك المكانة منبثقة فى الأساس من العطاء الثقافى الخصب، خاصة إبان ازدهار الحضارة المصرية القديمة، وقد تمثل هذا العطاء فى إبداعات فنية وأدبية حملتها إلينا عبر العصور والآف السنين الرسوم والنقوش والتماثيل، وكذلك النصوص الأدبية فى القصة والشعر، ولم يعد خافيا أو مجهولا أن أول قصة فى التاريخ الأدبى العالمى قصة مصرية وضعها الكاتب المصرى القديم تحت عنوان «الأخوان»، وتنضم إليها قصص كثيرة حفظتها أوراق البردى، أما أشعار المصريين القدماء فتحتاج إلى مجلدات، والاطلاع على نماذج قليلة منها كفيل بأن يدرك المصرى المعاصر والأجنبى أن الطاقة الإبداعية المصرية كانت عالية وملهمة، وتكشف تمتعه بالموهبة الأصيلة والخيال والحس المرهف وعشقه الدائم للجمال وكما برع المصرى فى الآداب برع فى فن العمارة، ولعل المعابد والمقابر لا تزال بكل زهو شاهدة على ذلك.

وقد تجدد هذا الحضور فى حقب كثيرة وتواصل فى العصر الحديث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث استعادت مصر بعضا من مكانتها الثقافية فى المنطقة على يد كوكبة كبيرة من الأعلام لا يتسع المجال فى هذه السطور لاستعراض قوائم الأسماء العامرة.

على أن تشكيل الوجود الثقافى طوال القرنين الأخيرين على الأقل (١٩ و٢٠) لم يعد منطلقا من المعطيات ذاتها التى تمثلت طوال عشرات القرون فى العمارة والشعر والمسرح والرقص والفن التشكيلى، فقد أطلت فى الآفاق تجليات أخرى للحضور الثقافى، أعلنت عنها باقتدار أنواع أدبية وفنية تقدمت إلى الصدارة مثل الرواية والقصة القصيرة والموسيقى والسينما وغيرها، وليس من تحصيل الحاصل أن نقول إن العقود الأخيرة تشهد فى العالم التفاتا ملموسا نحو الرواية والسينما وتتزايد مع السنوات كمية الجوائز الكبيرة التى تخصصها جهات عديدة رسمية وأهلية لتشجيع المبدعين فى هذين المجالين على مزيد من الابتكار و تأكيد قيم العدل والجمال والحرية وحقوق الانسان.

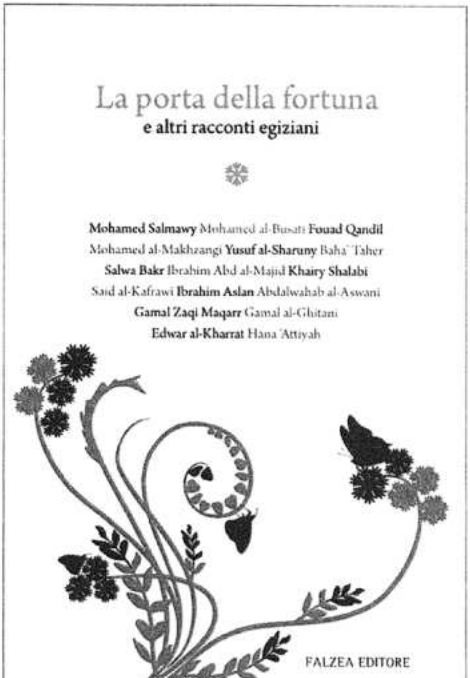
وفى ضوء هذه المستجدات وتعاظم عوامل التنافسية فى مختلف التوجهات العالمية فإن باستطاعة بعض الشعوب أن تحقق مجدا ثقافيا قد لا يتيسر تحقيقه فى غير هذا النشاط الإنسانى، كما نلحظ ذلك إذا ذكرت قارة أمريكا اللاتينية مثلا، فسوف يتبادر إلى الأذهان فى الأغلب دورها الثقافى المتألق قبل أن يحتسب لها أى ملمح آخر، ومثل ذلك يسير أن يقال عن الهند حيث تتألق سمعتها فى مجالات الأدب والسينما وتكنولوجيا المعلومات، ويقتحم الكتاب اليابانيون العالم بإبداعاتهم المتميزة ويحرزون كل يوم مزيدا من الاهتمام والتواصل، وغدا الأدب ينافس الصناعة فى ذلك البلد الناشط.

وأحسب أن البعض ربما لا يعرف إلا القليل عن إفريقيا، التى أصبحت اليوم صاحبة مجد فى الأدب والموسيقى والسينما يعتد به فى الأوساط العالمية، رغم تغلغل الفقر وتردى الأحوال الاجتماعية والسياسية والصحية، وتتحتم الإشارة إلى أن شيئا من ذلك لم يتحقق إلا بترجمة المنتج المحلى إلى اللغات العالمية، إذ تحرص هذه الشعوب كلما بزغت نبتة واعدة ومبشرة على رعايتها وسرعة تقديمها إلى العالم.

أما مصر فلا شك إنها حققت بعض الإنجازات المهمة على صعيد الأدب والسينما وغيرهما، وحظيت بالصدارة فى المنطقة طوال قرن على الأقل وحققت بعض المجد الذى لا ينكره إلا جاحد، على أن هذا المجد الإقليمى لم يشكله علو كعبها فى الصناعة، ولا ضخامة عوائدها الزراعية أو النفطية، ولا قدراتها التصديرية أو إمكاناتها العسكرية ولا ابتكاراتها العلمية، وليس لها فى الدورات الرياضية الدولية إلا الحضور الشرفى، لكن المجد الحقيقى تشكل من العطاء الثقافى الذى هو فى الأغلب حصاد النبوغ الفردى فى مجال الفنون والآداب، حيث تفجرت المواهب بالإبداع وفاضت العقول بالفكر ودبجت القرائح أروع النصوص، شعرا ونثرا، فاستمتعت الجماهير ولا تزال بجمال الفن الذى يغذى الروح ويرتقى بالوجدان.

ولا يمنع هذا من الاعتراف بأن مكانة مصر المعاصرة فى الثقافة العالمية لا تزال محدودة، وسوف تظل كذلك إذا لم تتحرك المؤسسات المعنية المختلفة لترجمة الإبداع المصرى إلى كافة دول العالم وخاصة الدول القارئة صاحبة الرأى والتقييم والتى تقود الحراك الثقافى فى شتى الأقطار.

فى هذا الإطار وعبر هذه الرؤية تأتى مبادرة اتحاد كتاب مصر الذى سعى بشكل مستقل لاستثمار مناسبة انعقاد معرض تورينو بإيطاليا فى مايو الماضى، حيث كانت مصر ضيف الشرف، وقبل الموعد بعام كامل وضعت خطة التحرك من أجل تقديم الأعمال الأدبية المصرية للقارئ الإيطالى ومن ثم إلى غيره من قراء الأرض، على أمل تطوير التجربة فى العديد من الأصعدة فى مقبل الأيام..



Porta della fortuna

«باب التوفيق»
مجموعة من الكتاب
دار «فالسيا» Falsea
إيطاليا

ولأن الاتحاد بدأ من فراغ، إذ لم يسبق له أن اقدم على هذه التجربة تأسيسا على أن القدرات المالية له لا تعينه على ترجمة كتاب واحد إلى اى لغة، فقد تمت إزاحة الترجمة من قائمة أنشطة الاتحاد على مدى يقرب من أربعين عاما وكأنها لا تعنيه من قريب أو من بعيد، لكن مجلسه الحالى برئاسة الكاتب الكبير محمد سلماوى عزم على أن يخوض كل التجارب التى يمكن أن تخدم مصر وأدبها وكتابها، فلم يجد ثمة غضاضة فى الاعتماد على التبرعات من الأفراد أو المؤسسات الأهلية، وبالفعل اتفق الاستاذ سلماوى مع إحدى السيدات الفضليات وهى المهندسة شهيرة فهمى، التى أبدت استعدادها لدفع تكاليف ترجمة ونشر مجموعة قصصية لكوكبة من كبار كتاب مصر، وجرى الحوار مع الملحقية الثقافية المصرية بروما لاقتراح دار نشر إيطالية موثوق بها، فرشحت مؤسسة فاليسا للنشر واشترط الاتحاد ضرورة تكليف مترجمين إيطاليين حتى يحسنوا الترجمة بما يتناسب مع ذائقة القارئ الإيطالى، وأوكل الاتحاد إلى الروائى فؤاد قنديل والدكتور ربيع سلامة أستاذ اللغة الإيطالية و الملحق الثقافى السابق بسفارتنا بروما متابعة الترجمة ومساعدة المترجمين لتفسير ما قد يتعذر فهمه من المفردات العربية أو الدلالات الحياتية فى البيئة المصرية، كما تم الاتفاق على أن يتم الانتهاء من الترجمة والنشر فى موعد اقصاه نهاية ابريل ٢٠٠٩ حتى يمكن المشاركة بالكتاب فى معرض تورينو.

وفى المعرض الدولى الذى كانت فيه مصر السيدة الأولى وضيفة الشرف، أمكن للقراء الإيطاليين أن تصافح عيونهم المجموعة القصصية التى تحمل عنوان «باب التوفيق» وتضم قصصا لستة عشر كاتبا، هم إدوار الخراط ويوسف الشارونى وبهاء طاهر.. محمد سلماوى وخيرى شلبى ومحمد البساطى وجمال الغيطانى وفؤاد قنديل.. سعيد الكفراوى وابراهيم عبد المجيد وابراهيم أصلان وسلوى بكر، عبد الوهاب الأسوانى ومحمد المخزنجى وهناء عطية وجمال مقار، وقد قامت المترجمة الايطالية ماريا لويز أليانو بترجمة المقدمة المصرية التى تناولت بشكل مكثف مسيرة القصة القصيرة فى مصر، وتجلياتها المرموقة فى العقود الأخيرة، وتعدد قضاياها واتجاهاتها وأبرز أعلامها، كما قامت بكتابة تعليقات على كل قصة توقفت خلالها فى عجالة عند موضوعها وتقنيتها وجمالياتها.

تضم مجموعة « باب التوفيق» عددا من القصص المصرية التى تمثل الاتجاهات الفنية المختلفة، وفى الوقت ذاته فإنها تشكل وهى مجتمعة صورة بانورامية لملامح الحياة المصرية فى شتى تجلياتها وخصوصيتها الاجتماعية والنفسية.

ففى قصة «سرادق الألم» لخيرى شلبى وهى من مجموعته «أسباب للكى بالنار» وقد ترجمتها إلى الإيطالية إلينا دى كريستافرو، تدور الأحداث فى المقابر التى يسكنها الكثير من البشر، وقد اقيم سرادق للعزاء فى عزيز رحل، وتتكدس فى أجواء المكان كل ألوان الألم والحزن والصراخ، وفوجئ المعزون وهم مغمورون فى عالم الموت بأصوات الزغاريد والغناء والموسيقى المدوية والرقص تمر بهم فى احتفالية تكاد تعلو على صوت المقرئ فرحا بزواج شاب من سكان المنطقة، فيسقط فى أيديهم، ويتحمس البعض عازما على إيقاف الفرح أو إرغام أصحابه على المرور فى صمت، لكن آخرين يرفضون ومطالبين الجميع بأن يدعوا الخلق للخالق، بينما كان عن بعد قريب فريق ثالث يسهر فى غرزة ويدخنون أشكالا من المزاج العالى ويتندرون ويعجبون.. وتبدو الفرصة متاحة للكاتب كى يفيض فى وصف المشاعر الإنسانية المتناقضة، وفى الوقوف عند التفاصيل التى يتكون منها النص بما فيه من مفردات شعبية حميمة ودالة، تفضى إلى ذلك الفرح الذى يولد فى حضن الحزن، والحياة التى لا تعبأ بالموت.

وفى قصة «الجوال العائم» لمحمد البساطى التى ترجمها انطونيو بريور، نلتقى بملمح من ملامح القرية المصرية، حيث ذلك المشهد الغامض المتمثل فى جوال يحمله النهر وبداخله قتيل أو قتيلة، ولكل جوال رفيق يتبعه سرا من قرية إلى أخرى حتى يرفعه من يرفعه فى مكان بعيد، يتولى عمدته إبلاغ المركز، لتضيع تقريبا بصمات الأثمين. أغلب الجثث لبنات حملن سفاحا فيسرع أهل البنت بالتخلص منها ووضعها فى جوال يلقونه بليل فى النهر، وسرعان ما يغوص فى الماء وبعد يومين على الأكثر يطفو منتفخا ويواصل رحلته، وكلما مر الجوال بقرية، حاول من يتولى حراسته دفعه حتى لا يحط على ضفاف قريبة إلى أن ينأى ويتجاوز الزمام، وعلى النهر بعد عدة قرى بوابات تتوقف عندها الجثث وكل ما يسبح ولا يمكن عبوره من هذه البوابات. ويستطيع الفلاحون تمييز جثمان المرأة فى يسر وهو يعبر قريتهم محشورا فى الجوال المبتل والمسافر فوق الماء. تناول هذا المشهد من قبل توفيق الحكيم ويوسف إدريس، ولكن نص البساطى له طعم آخر.

أما قصة بهاء طاهر «فى حديقة غير عادية» وهى من مجموعته «أنا الملك جئت» فقد ترجمها ربيع سلامة، وفيها يذهب البطل كعادته فى الترويح عن نفسه إلى حديقة فى جنيف حيث يقيم، ويجلس على أريكة حجرية وسرعان ما تجاوره سيدة عجوز تصحب كلبها ويدور حوار أغلبه عن الحياة ثم عن مصر التى تشعر العجوز بالندم لأن العمر أوشك على الانقضاء ولم تزرها.. ويتنقل الحوار بين الشرق والغرب وعن الكلاب أيضا لتعترف السيدة بأنها مغرمة جدا بها، وفى المقابل يعلن البطل عن كراهيته لها.. صمتت السيدة وشحب وجهها وفوجئ المصرى بسقوطها. فأسرع يطلب الإسعاف، وجاء رجاله على عجل حيث أخذوا السيدة وأوكلوا إليه أمر الكلب، وهكذا اضطر البطل أن يرعى الكائن الجميل الذى أصبح فجأة بلا اهل وقد حاول أن يتخلص منه لكن الكلب تمسح فيه وتمنى عليه دون كلمة أن يكون فى معيته، وهذه القصة ككل أعمال بهاء تسيل عذوبة ورقة وتحاول استبطان وجع الإنسان وهمومه دون خطابية وفى عبارات ناعمة تحمل أصداء ما تتناوله ببساطة آسرة.

فى قصة «جرح مفتوح» لإدوار الخراط وهى من مجموعته «ساعات الكبرياء» وقد ترجمتها كل من سيلفيا مارشيوتى و إلينا دى كريستافرو وهى عن ولد وحيد لأم وحيدة، تبدأ القصة بسقوط الأم فى الطريق وتعرضها لحادث مؤسف تتفاقم آثاره بسبب سنها المتقدمة ويحزن الابن، وتنسال ذاكرته لتكشف أبعاد الجرح الكبير المفتوح بعرض السنين، يستدعى الابن ما مر بأمه وقد عانت وتحملت وصبرت وما زالت تحضنه برغم الظروف القاسية وتوليه كل حنانها واهتمامها.. تضيف لغة الكاتب الكبير الكثير إلى هذه الحالة من الأسى والشجن.

فى قصة «باب التوفيق» لمحمد سلماوى من مجموعته التى تحمل الاسم ذاته، نعيش حالة من المصرية الحميمة فى حى الجمالية، ومع قطعة من تاريخنا الأثرى ضفرها الكاتب مع مشاعر الشخصيات فى نسيج حالم وشاعرى وإنسانى. باب التوفيق باب أثرى من معالم شارع المعز لدين الله حيث القاهرة الفاطمية ذات الزخم العربى والإسلامى، يعثر على الباب الضخم المنقوش بالزخارف تاجر من أبناء الحى يجور الزمن عليه فيهدى الباب للبطل الذى كان مدينا له بمبلغ بسيط من المال. يقاوم محسن هذه الهدية بالغة القيمة، لكن عم عبده يصر، فيحضر محسن من يحملون الباب إلى بيته وهو منبهر به إذ إنه رغم قدمه لا يزال يفيض بهاء وسحرا.. يدهش محسن لأن الايام تحمل له بعض الأخبار الطيبة فيحصل على مال وتعود إليه صديقته التى يحبها وتبتسم له الأيام لعدة أشهر، ثم تتغير الأحوال كما هو منتظر من الحياة فليس الباب هو مصدر الخير، وإنما العمل والإخلاص هما السبيل، ثم يفاجأ محسن برجال هيئة الأثار وقد حضروا لاستلام الباب بعد أن بلغهم وجوده عنده. وقد وفق الكاتب فى تشكيل بنية قصته فى ثلاث حركات تتناسب مع تطور الحدث والحراك النفسى الذى طرأ على حياة الشخصيات.

وفى قصة «غرفة للسيدات» لهناء عطية من مجموعتها «شرفات قريبة» وقد ترجمتها أيضا إلينا دى كريستافرو، تحكى الكاتبة موقفا بسيطا للغاية لكنه مؤثر للغاية، سيدة تساعد سيدة فى ارتداء ملابسها، ولها ثدى واحد فقد أجرت عملية وتم التخلص من الآخر. وتحاول صديقتها حشو الموضع الفارغ بكرة من القطن وتداريه بغطاء من البلاستيك حتى تبدو كأن الثديين حاضران.. صفحتان فقط كافيتان لاختزال عذابات الوجود الإنسانى. ورغم ذلك فصاحبة الثدى الواحد غير منزعجة فقد تطبعت مع ظروفها وتقول ان زوجها راض تماما بما بقى.

وفى قصة إبراهيم عبد المجيد «ليلة أنجيلا» من مجموعة له بهذا الاسم وقد ترجمتها دوناتيلا فينتشينتى نعيش مع البطل ليلته مع أنجيلا صديقته الفرنسية حيث تجولا خلالها فى مناطق عديدة فى باريس، يدعوها لحجرته فى الفندق فتفر وتدعوه لمطعم فيضيع المطعم، ويجوسان فى الأزقة ويجلسان على المقاهى ويتحدثان طويلا ثم يدعوها إلى غرفته فتتعلل وتقاوم.. كان يهيمن عليه هاجس مضاجعتها لكنها لا تمكنه، ثم يذهبان إلى حديقة الحيوان بصحبة صديقتها لمشاهدة الحيوانات والعبث معها إلى ان يفاجئوا بأن الوقت قد مضى بسرعة غريبة و بأن الحديقة أغلقت أبوابها. يبذلون جهودا مضنية للخروج فتذهب هباء كل المساعى وتبدأ السماء فى صب أمطارها بغزارة ولا يجدون من سبيل إلا اللجوء إلى شجرة ضخمة، يتعانق الجميع بحثا عن الدفء والحماية وطلبا للراحة والأمن، تبلغهم أصوات الحيوانات التى تعلو، لكن ذلك يزيدهم إصرارا على الالتحام والتماسك حتى أصبحوا كائنا غريبا وأسطوريا من الأجساد والمشاعر والحميمية.. لهذه القصة أيضا إشارات بعيدة ومتوارية لمعنى الحياة والأمل الذى يساور الأحياء فيها، لكنه أبدا يراوغ، وتتجدد الأحلام وتبذل الجهود وتعمل الإرادة عملها، لكن الذى يبقى هو الحب والتماسك والحرص على الإنسان.

قصص كثيرة جميلة ابدعها بقية الكتاب فى أنساق جمالية متباينة، وكشفت عن قدرات عفية وحاضرة بنصاعة وقادرة على التقاط مواقف ولحظات إنسانية متوهجة من حياتنا المحتشدة بكميات هائلة مما يتعين تناوله فى أعمال لا يتوقف فيضانها طالما هناك مواهب بهذا القدر من الخصوبة. ■

فــؤاد قنــديــل

Islamism in the shadow of al-qaeda

الإسلام فى ظل القاعدة

Francois Burgat
Translated by Patrick Hutchinson
The American University in Cairo press 2009- 182 p.



فرانسوا بارجت كاتب وباحث متمكن وصفته جريدة لاموند ديبلوماتيك بأنه: «بخلاف معاصريه، لم يعط بارجت أى معلومات دعائية لوسائل الإعلام من حولنا، وقدم لنا بخلفيته المعرفية التاريخية والاجتماعية الهائلة رؤية كاملة استعراضية عن العربى/الآخر. قلة هم من يعرفون العالم العربى الإسلامى أكثر من بارجت». والجدير بالذكر أن فرانسوا بارجت عاش لمدة ١٨ عاما فى شبه الجزيرة العربية كمدير للمركز الفرنسى للآثار والعلوم الاجتماعية باليمن. كما انه خصص عدة اشهر للعمل الميدانى بشمال افريقيا.

من المؤكد ان أنظمة الحكم فى العالم الإسلامى سلطة مقيدة للتحركات الإسلامية ويقدم كتاب بارجت «الإسلام فى ظل القاعدة» مفاتيح مكتوبة عن عزام والظواهرى وابن لادن وعن تحركاتهم باسم الإسلام، ويكشف النقاب عن منظور تاريخى مطلوب بشدة.

من وجهة نظر بارجت إن معظم السياسيين ووسائل الإعلام الغربية يقومون فقط بتدعيم وضع القاعدة. ويحاول أن يوضح الفجوة العميقة فى فهم ما يتعلق بعنف وتسلط الأنظمة الحاكمة الذى يقسم الشرق الاوسط ويخلق تربة خصبة للإرهاب.

يتكلم هذا الكتاب بشكل تمهيدى عن ثلاث حقب من الإسلام السياسى، منذ عام ١٩٢٨ منذ ظهور الإخوان المسلمين الى صعود الحكم الديكتاتورى فى فترة ما بعد الاستعمار حتى التطرف الحالى لجيل القاعدة. فيقدم خريطة جديدة، فى النهاية يمد بارجت جسرا للأيديولوجيات السياسية والدينية والثقافية الإسلامية والتى لابد من اجتيازها.

■

The butterfly's burden- Poetry

أثر الفراشة

Mahmoud Darwish
Translated by Fady Joudah
The American University in Cairo press 2009- 182 p.



قالت عنه الشاعرة والروائية الفلسطينية نعومى شهاب ناى «يعتبر الشاعر محمـــود درويش المتنفس الرئيسى للشعب الفلسطينى، الشاهد الفصيح على النفى والانتماء، المغنى الرائع الذى يغنى الصور ويجعلها متناغمة والذى يستحضر ويربط ويضئ نورا ساطعا فى قلب العالم. اعتنق قراءه حول العالم كل ما قاله فى شعره واعتبروه الصوت الأهم على الإطلاق، بمجرد التعرف عليه لن تستطيع أبدا أن تنساه».

محمود درويش من أبرز الشعراء فى العالم العربى، فنان وناشط استطاع أن يجذب الافا من القراء إليه. وهو مؤلف ٣٠ كتابا من الشعر والنثر والمقالات مثل وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطينى. عمل لفترة من حياته كصحفى كما انه كان مديرا للمركز الفلسطينى للأبحاث وعاش فى المنفى حتى عودته إلى فلسطين عام ١٩٩٦، حاز العديد من الجوائز الشعرية.

ديوان «اثر الفراشة» يضم مجموعة من أحدث أشعاره وملحق به الديوان المذهل الذى يعتبر بمثابة المذكرات «حالة حصار»، اشعار تعبر عن حالات الحب، سوناتات، مذكرات تحكى القليل، وكلمات متداخلة توازن بين الأدب العربى القديم والحديث، انعكاسات الحب المشرق بجانب مرارة الحنين.

قام بترجمة هذا الديوان المترجم فادى جـودة، هــو طـبـيب فلسطينى عضو فى منظمة أطباء بلا حدود مقيم فى هيوســتن، ولايــة تكســاس، وقد حصل على منحة دراسة الأداب من جامعة وارن ويلســون، ومؤخرا حصل على جائزة «سيف غباش - بانيبال» للترجمة من العربية إلى الإنجليزية للعام ٢٠٠٨ عن ترجمته لديوان «أثر الفراشة».

• من سوناتا •

أمسك مس الكمان الوحيد ضواحى المكان البعيد

على مهل يطلب النهر حصته من رذاذ المطر

ويدنو، رويدا رويدا، غد عابر فى القصيد

فأحمل أرض البعيد وتحملنى فى طريق السفر

■

The zafarani files- Novel

وقائع حارة الزعفرانى

Gamal Al-Ghitani
Translated by Farouk Abdel Wahab
The American University in Cairo press 2009- 335 p.



شخص مجهول يراقب سكان حى صغير قديم ومترابط بالقاهرة. يسجل كل تحركاتهم ومشاجراتهم وآفراحهم واصفا ثيابهم وصفاتهم وتاريخهم بتفاصيل دقيقة. منهم الجامعيون والباعة المتجولون فى الشارع والمعتقلون السياسيون وصاحب المقهى وسائق التاكسى وبائع الخضروات والرجل المتهكم الساخر والخباز والزوجة الصغيرة الجميلة ذات العيون الخضراء التى دائما بصحبة زوجها. هؤلاء هم الشخصيات الذين يقوم هذا الشخص بمراقبتهم وتسجيل حياتهم بسلاسة ليحكى عن حارة الزعفرانى.

فهى حى صغير مطوى فى ركن من أركان القاهرة ويعتبر نموذجا مصغرا للحياة بداخلها حيث الفضول هو التسلية الوحيدة. فكل شخص تقريبا لديه سر خاص به يثير التساؤلات. الشيخ عطية الغامض الذى يلقى سحره على حارة الزعفرانى وجميع رجال الحارة الذين يعانون من العجز الجنسى والنساء اللاتى يحكين أسرارهن من الشرفات ويتوجعن من شدة الرغبة.

الريبة والإيمان بالخرافات والحس الفكاهى هى السائدة فى رواية الكوميديا السوداء «وقائع حارة الزعفرانى» للكاتب والصحفى جمال الغيطانى صاحب رواية «الزينى بركات»، راسما تجربة طفولته التى كانت فى حى الحسين. فقد خلق عالما سكانيا غنيا بالشخصيات المتنوعة والمواقف التى تتمتع بمصداقية من خلف ستائرهم الهجائية.

ولد جمال الغيطانى عام ١٩٤٥ وتلقى تعليمه فى القاهرة. كتب ١٣ رواية و٦ كتب تحتوى على قصص قصيرة. هو حاليا رئيس تحرير مجلة أخبار الأدب.

■

Like a summer- Never to be repeated

كصيف لا يتكرر أبدا

Mahamed Berrada
Translated by Christina Phillips
The American University in Cairo press 2009- 181 p.



قصة ساحرة مستندة على تجارب الكاتب كطالب مغربى يدرس فى مصر ويستكشفها فكريا. يأخذنا الراوى حماد فى جولة استكشافية شخصية عميقة بالقاهرة تنطلق منذ فترة الخمسينيات والستينيات الصاخبة بكل تفاؤلها وأحداثها المثيرة حول استقلال المغرب وحول مدينة السويس والرئيس عبد الناصر حتى التسعينيات وقت كتابة الرواية كاشفا القلق الشخصى العاطفى فيما يتعلق بحياة العرب وثقافتهم.

زيارته المتكررة المنتظمة للقاهرة سمحت لنا بمعرفة التحولات الثقافية خلال أربعة عقود. كاشفا جذور التغيير ودور الثقافة فى المجتمع والذاكرة والكتابة فى نص يجمع السرد القصصى مع النقد الأدبى والتأملات الفلسفية والاقتباس.

كصيف لا يتكرر أبدا من أكثر الأعمال الأدبية تجديدا وابتكارا فى الأدب العربى الحديث وتعتبر شهادة على مكانة محمد برادة كرائد فى هذا المجال.

ولد محمد برادة فى الرباط عام ١٩٣٨ وهو من رواد الكتابة فى المغرب وهو كاتب قصص قصيرة وروايات ونقد أدبى. أما المترجمة كريستينا فيليبس الحاصلة على شهادة الدكتوراه فى الأدب العربى الحديث فتعمل الآن فى معهد الدراسات الإسماعيلية بقسم الدراسات القرآنية بلندن.

■

وليس الذكر كالأنثى..

■■ قبل أن تقرأ هذا الكتاب...

شهدت تسعينيات القرن العشرين ثورة فى الأبحاث العلمية الخاصة بدراسة بنية ووظيفة المخ البشرى، وهى ثورة تقف وراءها قفزتان علميتان هائلتان، تتمثل الأولى فى التوصل إلى تقنيات رائدة مكنت الباحثين للمرة الأولى فى تاريخ البشرية من تصوير المخ أثناء أدائه لوظائفه، فصارت هذه التقنيات بمثابة عينين تطلان داخل الدماغ المغلق.

وتتمثل القفزة الثانية فى التقدم الهائل فى مجال أبحاث علوم البيولوجيا الجزيئية، وهى العلوم التى تقوم بدراسة بنية وكيفية أداء الخلايا المختلفة لوظائفها على مستوى الجزيئات والذرات.

لقد أمدتنا هذه الثورة البحثية بثروة من المعلومات الخاصة ببنية المخ ووظيفته يعجز المتخصصون عن متابعة ما يستجد منها يوماً بعد يوم.

حتى وقت قريب كان يتم إرجاع الاختلاف فى أسلوب تفكير وسلوك كل من الذكور والإناث إلى «العوامل التربوية»، حيث يقوم الوالدان بتنشئة أولادهما بناء على مفاهيم اجتماعية وموروثات حضارية تحدد ما ينبغى أن يكون عليه كل من أبنائنا وبناتنا. ثم اتجهت أنظار العلماء لتفسير هذا الاختلاف الفكرى والنفسى والسلوكى بين الذكور والإناث إلى الفروق الكيميائية بين الجنسين والمتمثلة فى «الهورمونات الجنسية الذكورية والهورمونات الجنسية الأنثوية»، لكن هذه الهورمونات لم تستطع وحدها تقديم الإجابة الكاملة، فهل لبنية المخ ووظيفته دور فى هذه الفوارق بين الجنسين؟

إن الكثيرين منا يحيون بين طرفى نقيض، بين نظرة يتبناها الفكر المادى الغربى ويسيطر عليها مفهوم التماثل العقلى المطلق بين الرجال والنساء (وليس فقط مفهوم المساواة فى الحقوق والواجبات)، وبين إرث من الأعراف البيئية التى يجور كل منها على المرأة بطريقته الخاصة. ولا مخرج من هذا الواقع المجحف المتناقض إلا بالبحث عن الحقيقة وإظهارها وتأكيدها والترويج لها، ولا سبيل لذلك إلا بالعلم. إن الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة الكامنة بين هذين النقيضين هى الدافع وراء إخراج هذا الكتاب.

لذلك يقوم هذا الكتاب على عرض التباين والتمايز المخى والعقلى والنفسى والسلوكى بين الذكور والإناث وعرض آليات حدوث هذه الفوارق والعوامل التى تقف وراءها.

بُنيت هذه الدراسة على نتائج الأبحاث التى أجريت (حتى بدايات القرن الحادى والعشرين) فى كبريات جامعات العالم ومراكزه البحثية المحترمة، وذلك بعد مناقشة واعتماد تلك النتائج مع الجمعيات العلمية والمجلات العلمية المتخصصة، وتجدر الإشارة إلى أن معظم مراجع الكتاب وما ورد به من الدراسات والأبحاث صادر فى الولايات المتحدة والدول الأوروبية، وهى دول تتبنى مفهوم المماثلة والتبادلية بين الرجال والنساء (أى كلاً من الجنسين يماثل تماماً الجنس الآخر من الناحية العقلية، ومن ثم يمكن أن يكون بديلاً عنه فى المجالات العملية والاجتماعية والأسرية). كما ستلاحظ أن الكثير من هذه الدراسات قامت بها باحثات فى أعلى المستويات العلمية ومتخصصات فى علوم المخ والأعصاب، مما يعكس حرصهن على الوصول إلى الحقيقة العلمية (دون أى تحيز) فى مجال الفوارق الجنوسية بين الذكور والإناث.

هذا وقد أصبحت المفاهيم التى يعرضها هذا الكتاب حول الفوارق بين المخ/ العقل الذكورى والمخ/ العقل الأنثوى بمثابة أساسيات وحقائق علمية فى مجال علوم المخ والأعصاب، حتى إن الكثير من المراجع الأساسية المعتمدة لهذه العلوم (Text Books of Neuroscience) أصبحت تُفرد من بين فصولها فصلاً عن الفوارق بين مخ الذكور ومخ الإناث.

يشتمل الكتاب على بابين وحصاد وثلاثة ملاحق:

الباب الأول «الذكورة والأنوثة»، طرح فيه الفوارق المخية/ العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث، مع دراسة أثر العوامل البيولوجية وعوامل التنشئة على وجود هذه الفوارق. ويحتوى هذا الكتاب على ثمانية فصول:

فى الفصل الأول (تأملات وتساؤلات) ندعو القارئ لتأمل الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث فى المراحل العمرية المختلفة كما نعرض بعض الإحصائيات ذات الدلالة حتى يستشعر القارئ بنفسه وجود هذه الفوارق. ثم نطرح فى آخر الفصل تساؤلات مهمة حول مصدر هذه الفوارق وآليات حدوثها.

ويعرض الفصل الثانى للمفاهيم الأساسية والحقائق التى توصل إليها العلماء بخصوص تساؤلات الفصل الأول، وذلك قبل أن يتابع فى الفصول التالية الدراسات التى أوصلت الباحثين إلى هذه الحقائق.

ويقدم هذا الفصل خمسة مفاهيم أساسية يعرضها من خلال خمسة مباحث، وهى: مبحث خاص بكيف صرنا ذكوراً أو إناثاً، ثم مبحث يوضح أن الذكاء البشرى أنواع متعددة وليس نوعاً واحداً، ومبحث ثالث حول ما توصل إليه العلماء من وجود عقلين وذاكرتين فى دماغنا!، ومبحث رابع يعرض الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الذكور ومخ الإناث، ومبحث أخير يستخرج فيه الباحثان (من المباحث السابقة) النمط العقلى السائد لدى كل من الرجال والنساء.

ويعرض الفصل الثالث الفوارق بين أسلوب تفكير وسلوك كل من الذكور والإناث فى خمسة وعشرين مجالاً من مجالات الحياة، ومن ثم السمات المميِّزة لعقل كل من الرجل والمرأة.

أما الفصل الرابع (التنشئة أم الفطرة) فيتحدث عن الآليات والعوامل التى تقف وراء الفوارق بين مخ/ عقل كل من الذكور والإناث.



ويركز الباحثان فى الفصلين الخامس والسادس، (إكسير الذكورة)، و(إكسير الأنوثة) على دور الهورمونات الجنسية الذكورية والهورمونات الجنسية الأنثوية فى تشكيل مخ كل من الجنسين، قبل أن يعرضا فى الفصل السابع لحالات مرضية ساعدت العلماء على معرفة كيف تحدث عملية التجنيس وأثر ذلك على العقل والسلوك.

ويعرض الفصل الثامن والأخير من هذا الباب (الجينات والمخ... ثم ماذا بعد؟) لدور الجينات فى عملية تشكيل المخ، قبل أن يطرح السؤال المهم حول حقيقة العقل الإنسانى (ثم ماذا بعد؟).

ويحتوى الباب الثانى «تطبيقات على الجنوسة»، على خمسة فصول نعرض فيها تأثير الفوارق الجنوسية فى بنية المخ وأسلوب أدائه لوظائفه على بعض جوانب حياة كل من الجنسين.

(الجنس بين شهريار وشهرزاد) يختاره الباحثان عنوانا للفصل التاسع ويخصصانه لأوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين كل من الذكور والإناث فى طبيعة غريزة الجنس عند كل منهما، ثم ينتقلان فى الفصل العاشر ليناقشا ارتفاع معدلات الطلاق خلال السنوات الأخيرة الأمر الذى يرجعانه إلى الاختلاف فيما يتوقعه كل من الرجال والنساء من الحياة الزوجية. قبل أن يخصصا الفصل الحادى عشر للآليات البيولوجية التى قد تؤدى إلى التباين فى مشاعر كل من الوالدين تجاه أطفالهما واختلاف طريقة تعاملهما مع الصغار، محذرين من عواقب التقصير فى التنشئة العاطفية للصغار.

يقدم الكتاب فى نهايته تلخيصاً لما ورد فيه من حقائق علمية فى مجال التمايز الجنوسى بين الذكور والإناث، ويعرض لبعض ما ينشأ من مشكلات نتيجة إنكار البعض وجود هذا التمايز.

يضم الكتاب ثلاثة ملاحق تبدو مقدمة للقارئ المتخصص وتضم توثيقاً لما ورد فى الكتاب من حقائق، وذلك بالمعلومات التشريحية المتخصصة ومن خلال عرض تفاصيل بعض الدراسات التى أجريت من أجل التوصل إلى الفوارق الجنوسية بين الذكور والإناث.

يدور الملحق الأول (مفاهيم بيولوجية) حول بنية المخ ونشأته وتشكله وتجنيسه وأدائه لوظائفه. أما الملحق الثانى (من الكناريا إلى الشمبانزى) فيتناول الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الذكور ومخ الإناث فى الطيور والثدييات. ويشتمل الملحق الثالث (المخ البشرى بين الذكر والأنثى) على الخلفية التشريحية والوظيفية للفوارق الجنوسية فى الإنسان. ■

المخ.. ذكر أم أنثى؟!

د. عمرو شريف ود. نبيل كامل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٣٩٢ صفحة

كـــــــتب يابـانيـــــة

هى التى لا تعرفها هى

رواية

٢٠٠٨/١١



قال لى الرجل الذى أتى من عالم مواز: «أنت عظيمة». يقول إن بداخلى قدرات لا أنتبه لها، قدرات تكفى كى أحصل على ميدالية ذهبية. ولذلك، يطلب منى أن أجرى، كبديل لـ «أنا» فى العالم الآخر. لم لا أصدق كلام هذا الرجل. صحيح أنى مبتدئة، لكنى سأجرى الجرى ١٩٥ ٤٢ كم، نحو أوليمبيات عام ٢٠١٦ فى طوكيو. سأكف عن التظاهر بأنى أعيش دون أن أبذل كل ما أستطيع من قوة. من أجل «نفسى» فى العالم الآخر، من أجلى أنا.

عمل حاصل على جائزة التفوق فى مسابقة اليابان لرواية الفانتازيا.

ساتومى ران ولدت عام ١٩٦٩ بطوكيو. روائية.

■

تندو أراتا
هو الذى يرثى

٢٠٠٩/١١/٢٧

رواية



البطل يهيم فى أنحاء البلد، ويستمر فى ترحاله ليرثى الموتى. حوله، تتكشف الدراما لامرأة قتلت زوجها، لصحفى فاقد للثقة فى البشر، لأم مصابة بسرطان الكبد. هل هو قديس، أم مراء؟ من هو «الذى يرثى»؟ قمة وصل إليها الكاتب بعد أن أنفق للوصول إليها سبع سنوات! قصة الحب التى يختلط فيها الخير بالشر والموت بالحياة.

عمل حاصل على جائزة ناووكى الأدبية

تندو أراتا، ولد سنة ١٩٥٠. روائى يابانى، اسمه الحقيقى كوريتا نوريبوكى.

■

الطريق إلى التوحش النفسى - كلام عن الناس الذين يرتكبون أشياء غريبة رغماً عنهم -

كاسودا تاكيهيكو

طبيب نفسى

يوشينو ساكومى

رسام مانجا

٢٠٠٨/٧



«لم ارتكبت هذا الفعل؟». نندهش نحن البشر أحياناً حين نتذكر تصرفات غريبة صدرت منا، اهتمامات حمقاء، رغبات غير مفهومة. رغم أننا ندرك تماماً دناءة تلك الأفعال، إلا أننا نفيق على أنفسنا وقد فعلناها.

كتاب تحليل نفسى، يتأمل تحركات النفس التى تأبى أن تسير على درب واحد، ويستمتع بالدخول فى أعماقها.

■

الموكب الأخير

قصص واقعية تدفئ القلب حدثت فى ديزنى لاند

ناكامورا كاتسو



قصص ما إن تسمعها حتى تنهمر دموعك فلا تتوقف. لا يعرفها إلا العاملون فى طوكيو ديزنى لاند.

الكاتب، وهو مشرف عمل فى ديزنى لاند لخمسة عشر عاما، سجل فى هذا الكتاب ٣٣ «موقف يدفئ القلب» حدث فى ديزنى لاند، والتى كان حريصاً على نقلها بدقة إلى كل العاملين فى المدينة.

القصص الموجودة فى هذا الكتاب ليست دراماتيكية مثل الروايات. ولا هو كتاب يكشف الوجع الكامن خلف كواليس هذه المدينة بشكل قد يكون فيه منفعة لرجال الأعمال. لكنه يدفئ قلبك ببطء من خلال قصص تجعلك تعيد اكتشاف عظمة كلمات مثل «الحلم» و«الأمل».

■

طو وكيو (أو طوكيو وكيوطو)

ساكاى جونكو

٢٠٠٩/٢



«كيوطو» المدينة اليابانية، التى تعيش مع التقاليد العريقة المتوارثة منذ أكثر من ألف سنة فى أرض ضيقة، و«طوكيو» العاصمة، التى تدخل إليها الأشياء الجديدة يوماً بعد يوم. ماهو سر اختلاف شخصيات البشر فى كل من هاتين المدينتين الرئيسيتين فى اليابان؟ الكاتبة، التى أتت من طوكيو، تسجل بدقة الاكتشافات، التساؤلات، الاندهاشات التى جالت بخاطرها منذ أتت إلى «كيوطو» فى شكل مقالات تقارن ما بين الثقافتين من ١٩ وجها مختلفا مثل «الكلام»، «التقاليد الدينية»، «الشباب»، «النساء»....

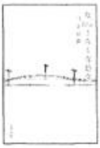
ساكاى جونكو كاتبة مقالات، ولدت سنة ١٩٦٦.

■

أيام ما بين بين

كاواكامى هيرومى

٢٠٠٩/٢



فى ليالى الربيع، أستمع لصوت البكاء الصغير للثلاجة فى المطبخ الخالى، وفى أيام الشتاء الدافئة، ألاحظ «طراوة» اليوسفى الذى اشتريته الأسبوع الماضى لأخزنه. القراءة، الدردشة، السفر أحياناً. كلمات تشعرك بالسعادة لقراءتها، تبحث عن الغنى غير المتوقع فى حواف الأحداث اليومية التى تمر دون أن نلاحظ. مجموعة مقالات ترصد المشاعر الغنية والأحداث الغريبة التى تمر على مدار الفصول الأربعة.

كاواكامى هيرومى

من أبرز الكاتبات اليابانيات، حاصلة على العديد من الجوائز الأدبية اليابانية. ولدت سنة ١٩٥٨.

■

الاعتراف

ميناتو كاناى

٢٠٠٨/٨/٥



المدرسة التى فقدت ابنتها داخل المدرسة، تشير بأصبع الاتهام فى حفلة التخرج، نحو الصبى المتهم بقتلها. تعرض الكاتبة القضية بشكل مونولوج يرويه كل من «الزميل»، «المتهم»، و«عائلة المتهم» لكشف الحقيقة تدريجياً. العمل حائز على جائزة أفضل رواية استدلال لكاتب جديد.

ميناتو كاناى، كاتبة يابانية، ولدت سنة ١٩٧٣.

■

لا أطلب

كاجيما شوزو

٢٠٠٧/٦



مائة قصيدة تبدأ بـ«لا أطلب». لا يعنى «ألا تطلب» دائماً أن تكون بلا هدف أو رغبة، لكن أن تعلم قيمة ما تعودت عليه ولم تعد تراه.

كاجيما شوزو، شاعر ورسام يابانى، ولد سنة ١٩٢٣.

■

قصص رعب قديمة

كيوجوكو ناتسوهيكو.

روائى يابانى.

٢٠٠٧/٧



قصص الرعب اليابانية أو الكايدان،

هى جانب مميز وعريق لا يمكن تخطيه عند التحدث عن الثقافة اليابانية. فى هذا الكتاب، يعيد الكاتب صياغة قصص الرعب القديمة من عصر الإيدو بشكل معاصر يسهل فهمه.

■

قبل ذلك اليوم

شيجيماتسو كيوشى

٢٠٠٨/٩/٣



عشنا حياتنا متجهين نحو «ذلك اليوم».. موت العائلة، الذى يقطع ظلماً تسلسل الأيام التى كان من المفترض أن تستمر لغد، وحتى بعد ذلك.

ماذا ينبغى لنا أن نفعل أمام الحياة وهى تختفى؟ قصص قصيرة تتأمل الحياة والموت، والسعادة المختبئة داخل الحياة اليومية من خلال حياة أب وأبناء ينتظرون فى صمت موت الزوجة.

شيجيماتسو كيوشى كاتب يابانى. ولد عام ١٩٦٣. حاصل على جائزة ناووكى اليابانية عام ٢٠٠١ عن عمله «فيتامين F».

■

اليابانيون الفاقدون للمبدأ

شيراسو جيرو

٢٠٠٦/٥



«تخلى عن الاعتماد على قوة الغير مثل الشحاذين».. «اخجل من قول نعم لكل شىء».. «كف عن تملق الجميع». يعنف الكاتب المواطن اليابانى ويصيب بدقة حقيقته وعيوبه من خلال هذا الكتاب. هذا الكتاب هو أقوال لرجل أعمال يابانى بارز سجلت منذ ما يزيد على الخمسين عاماً. ولا تزال العيوب كما هى. ألن يتغير الإنسان اليابانى؟؟

شيراسو جيرو. رجل أعمال يابانى. ولد سنة ١٩٠٢.

■

البحـــــر

كوجاوا يوكو

٢٠٠٩/٢



فى القصة التى تحمل عنوان الكتاب تروى عن شاب جاء إلى بيت حبيبته، وقضى ليلة كاملة يتحدث مع أخيها الصغير ويخبره عن الجرس الذى رن لأول مرة حين مرت عليه الرياح الآتية من البحر/ قصة «عربة الطائر الصغير» التى تحكى عن الفتاة التى فقدت النطق والبواب الوحيد وكيف تعمقت علاقتهما، قصة «المرشد» التى تروى عن رجل عجوز يضع عناوين لذكرياته وشاب يعمل كمرشد سياحى. سبع قصص يضمها الكتاب تتسم بالغرابة والهدوء فى آن. للكاتبة التى تقول أنها تبحث دوماً عن «الشىء الذى لم يعد موجوداً».

كوجاوا يوكو كاتبة يابانية. ولدت سنة ١٩٦٢.

■

الشجرة التى تسافر

هوشينو ميتشيو

١٩٩٩/٢



الاسكا. محاطة بأرض وبحر شاسعين. تمر عليها الفصول فى مواقيتها. منذ نزل فيها الكاتب لأول مرة فى عام ١٩٧٨. وهو يسجل فى صوره طبيعتها الجميلة والقاسية فى آن، وحياة الحيوانات فيها. يحوى الكتاب ٣٣ فصلاً يسرد بكلمات هادئة حياة سكان الاسكا والأجانب الذين دخلوها فى عصر الانفتاح، والتى تمشى فيها الحياة جنباً إلى جنب مع الموت. كتاب يعيد تعريف النجاح، يغير إحساسك بالزمن، ويربت على كتفيك بحنان.

هوشينو ميتشيو مصور يابانى. ولد سنة ١٩٥٢.

■

كاسو جيرى

رواية من جزءين

شينودا سيتسوكو

١٢- ٢٠٠٨



● عمل يرسم الحاضر المجنون من خلال دين جديد

هذا الكتاب لم يحصل فقط على إجماع النقاد بكونه أفضل أعمال الكاتبة، لكنه صعد إلى قمة الأعمال التى تتناول الأديان الجديدة.

تبدأ القصة فى عام ٢٠٠١. فى الليلة التى يتقابل فيها ياجوتشى ماكوتو، المحرر السابق، والذى طرد من عمله بسبب علاقة غير شرعية فى مكان عمله، مع سوزوكى ماساهيكو، الذى فقد فى أثناء سعيه - تأثراً بياجوتشى - نحو تحقيق حلمه أن يكون كاتباً، عمله وعائلته، وأصبح مشرداً. فى تلك الليلة يرى الاثنان الطائعان على شاشة التلفزيون مبنى المركز التجارى العالمى ينهار بقوة الدين. فى وسط الأزمات الاقتصادية المستمرة، يحاصر الكبار بقلق غامض ورغبة فى الفرار، ويعانى الشباب من الملل.

ليس هناك من عمل يناسب احتياجات العصر مثل الدين. لو أصبح عدد المؤمنين ثلاثين، يمكن تأمين الغذاء. لو أصبحوا ٥٠٠، يمكن شراء سيارة مرسيدس بنز. وهكذا يؤجر الاثنان غرفة فى عمارة قديمة. ويبدأن فى تأسيس جماعة دينية جديدة، بتعاليم دينية مستعارة وسطحية لا تتعامل إلا مع الظواهر، وتمثال لإله صنعوه بأنفسهم. ويؤسسون موقعاً إلكترونياً للدين الجديد.

يبدأ الشباب فى التجمع على الموقع، ويبحث المؤسسان عن مكان للاجتماعات. كيف تكون مراسم الدخول فى الدين؟ كيف يتصرفون مع الناس الذين يحملون حملاً نفسياً ثقيلاً؟؟ يأخذ ماساهيكو دور القائد الدينى، ويأخذ يا جوتشى دور الدعاية.

تكبر الجماعة بالتدريج، متخطية حوادث كثيرة. وتحقق نمواً مفاجئاً حين ينضم إليها صاحب شركة لتعليب الأغذية. ويشعر القارئ بأن الأحداث مثالية إلى حد كبير، إلى تعطل عجلة الأحداث فجأة، ويدخل الاثنان فى دوامة «لعبة القوة» داخل الجماعة الدينية، ويصبحان لقمة طرية لإعلام الفضائح وتنحل الجماعة. ورغم ذلك يفاجأ ماساهيكو، القائد الدينى المزيف، بالمؤمنين يتمسكون به ويرفضون تركه، ولا يعلم ماذا يفعل.

العمل ملىء بأسئلة من العيار الثقيل، و يستحق أن يكون بهذه الضخامة ومقسماً على جزءين. البطل هو سوزوكى ماساهيكو الذى صار القائد الروحانى النصاب. هو شخص لا يتمتع إلا بمستوى عادى من الحساسية، وأسس الدين فقط من أجل المال، وهو أكثر شخص يعرف بأن تعاليمهم مزيفة.

لكن، مشاكل البشر الذين يتشبثون بتلك التعاليم، حقيقية وجادة. امرأة تعانى من العلاقة الثقيلة التى تربطها بأسرتها. فتاة تقضى حياة العشيقة فى فندق. ولد يعانى من اضطهاد أصدقائه له فى المدرسة. الدين المفبرك يفقد توازنه ويتم ابتلاعه فى النهاية من المؤمنين الذين يحملون مشاكل حقيقية. تكتب الكاتبة تلك الأحداث ببراعة أدبية لا تحاكى.

«كاسو جيرى» باللغة اليابانية - اسم الرواية - هى عبارة تم تحويرها من عبارة «تسوكا جيرى». «تسوكا» معناها «يمر» و«جيرى» معناها «مراسم». أى أن الترجمة الحرفية هى «مراسم المرور» بمعنى أن حياة الإنسان مقسمة إلى مراحل، مثل الميلاد. دخول المدرسة، النضوج، العمل، الزواج، الموت.

وكل مرحلة تعنى مسئوليات ودورا مختلفا فى داخل الجماعة التى ينتمى إليها الفرد. وفى أى مجتمع، هناك عدة «مراسم» أو خبرات يجب تأديتها لتحقيق الشروط التى تسمح للإنسان بال مرور، للمرحلة الجديدة التى ستتضمن ظروفا نفسية واجتماعية مختلفة. أما كلمة «كاسو» والتى بدلت بها الكاتبة كلمة «تسوكا» أو المرور فى العبارة الأصلية، فمعناها «الافتراضى» أو «المتخيل».

ما يمكن أن يحققه دين مزيف وفارغ لا يعدو أن يكون «مراسم متخيلة» للنضوج وتحقيق التغير فى حياة الإنسان. لكن المثير للسخرية هو أن سوزوكى ماساهيكو، المسئول عن تلك المراسم المتخيلة، سيمر ب مراسم مرور، أو «تسوكا جيرى» حقيقية. كيف ستغيره المصائب العنيفة التى تسببت فيها الجماعة الجديدة؟ لا تستطيع إلا أن تسأل نفسك هذا السؤال بعد الانتهاء من القراءة.

شينودا سيتسوكو كاتبة. حاصلة على جائزة ناووكى الأدبية عن «جهاد النساء».

■

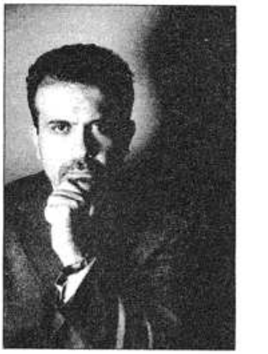
التسامح وحدود الديموقراطية:

الليبراليّون الجُدد نموذجاً

جوزيف مسعد

■ ■ من أهم ما يطرحه علينا الخطاب الليبرالي الذي تسوقه أميركا داخلياً وخارجياً هو فكرة التسامح مع الآخر، وأن هذا التسامح هو إحدى أهم ركائز الأنظمة الديموقراطية الغربية. يسوق هذا الخطاب عربياً، ويلعقه الليبراليون العرب الجدد ويعيدون إنتاجه فى مقالاتهم فى الصحف العربية، ويقدمونه على أنه أهم مقومات ومتطلبات الحداثة والتقدم التى يجب اتباعها عربياً.

ترتكز فكرة التسامح بالطبع على تقبل الآخر على كل اختلافاته فى العادات والدين والممارسات الثقافية والسياسية، وهذا ما ترفض أميركا وأتباعها التسامح معه. فأميركا متسامحة فعلاً مع كل ما يشبهها ثقافياً، ومع كل من يتبعها سياسياً، وترفض التسامح مع من تعرفه مبدئياً بأنه غريب عنها، وتصوره على أنه بربرى وهمجى أو على الأقل غير متحضر. ويحاجج البعض فى اليسار الأكاديمى الأميركى من المناوئين لهذا الخطاب المنافق مزاعم تسامحه. ويدحض هؤلاء النقاد أهم مقومات هذا التسامح المزعوم، وهو أنه متسامح مع كل ما تقبل به الثقافة الأميركية أصلاً وغير متسامح مع كل ما ترفضه. خذ مثالاً على ذلك رفض القانون الأميركى لممارسات بعض الأديان التى يتبعها مهاجرون من جزر الكاريبى مثل ديانة «سانتريا» التى تمزج ما بين الدين المسيحى وأديان روحانية أخرى. يمارس أتباع «السانتريا» شعائر دينية تقتضى التضحية ببعض الحيوانات الداجنة فى مناسبات معينة (وهى فى ذلك تشبه بعض الشىء شعائر عيد الأضحى عند المسلمين). ويعتبر القانون الأميركى، المتسامح جداً مع كل ما يعتبره أميركياً، هذه الممارسات غير مقبولة ولا تستحق التسامح، فيمنعها ويجرمها، وبذلك يخرجها من فضاء التسامح طراً. وهذا واحد من الآف الأمثلة التى تحدد معنى التسامح الليبرالى فى الولايات المتحدة.



عدا عن خضوع فكرة التسامح لهيمنة الثقافة الأميركية السائدة، هنالك مشكلة تعريفية ومبدئية يجب التشديد عليها، وهى أن هذا «التسامح» المزعوم يرفض أن يتسامح مع من يعتبرهم غير متسامحين أصلاً، ما يجعله هو أيضاً خطاباً غير متسامح. إذاً نواة قلب مفهوم «التسامح» على رأسه موجودة أصلاً فى منظومته التكوينية نفسها التى تحتوى على «عدم التسامح» كأهم مكون لـ«التسامح».

يصر ليبراليو أميركا وأتباعهم العرب على أن عدم التسامح مع ما يعتبره «التسامح» غريباً عنه أو مع «عدم التسامح» ضرورى للحفاظ على «التسامح» كنظام قائم، وإلا هدده «عدم التسامح» هذا وقضى عليه. ويعمم هذا المنطق على الديموقراطية نفسها. فتزعم الأنظمة العربية غير المتسامحة، ومعها النظام الأميركى المدعى التسامح والليبراليون العرب الجدد العاشقون بإفراط لتسامح أميركا المزعوم، أن حدود ممارسة الديموقراطية العربية تكمن فى قبول دخول الإسلاميين فى الانتخابات، لكن برفض فوزهم إن فازوا، إذ إنهم سينقلبون على الديموقراطية التى استغلوها أصلاً للوصول إلى السلطة. الديموقراطية تعرف هنا إذاً بأنها نظام للتنافس على السلطة يقتصر على كل من تقبله السلطة ويستثنى كل من ترفضه، لكن التاريخ العربى الحديث يدحض هذه المزاعم، فالديكتاتورية الجزائرية، على سبيل المثال، هى التى انقلبت على الديموقراطية تحسباً لفوز إسلاميى الجزائر، وليس العكس. وهذا هو النهج الذى سارت عليه أخيراً قيادات منظمة «فتح» فى انقلابها على الديموقراطية الفلسطينية وتنصيبها عملاء إسرائيل وأميركا على الحكم غير الديموقراطى فى الأراضى المحتلة.

وتنطبق هذه النزعة على كثير من ديموقراطيى وليبراليى مصر العلمانيين الذين يفضلون الديكتاتورية على فوز الإخوان المسلمين فى أى انتخابات، فى الوقت نفسه الذى يطالبون فيه بالديموقراطية لأنفسهم.

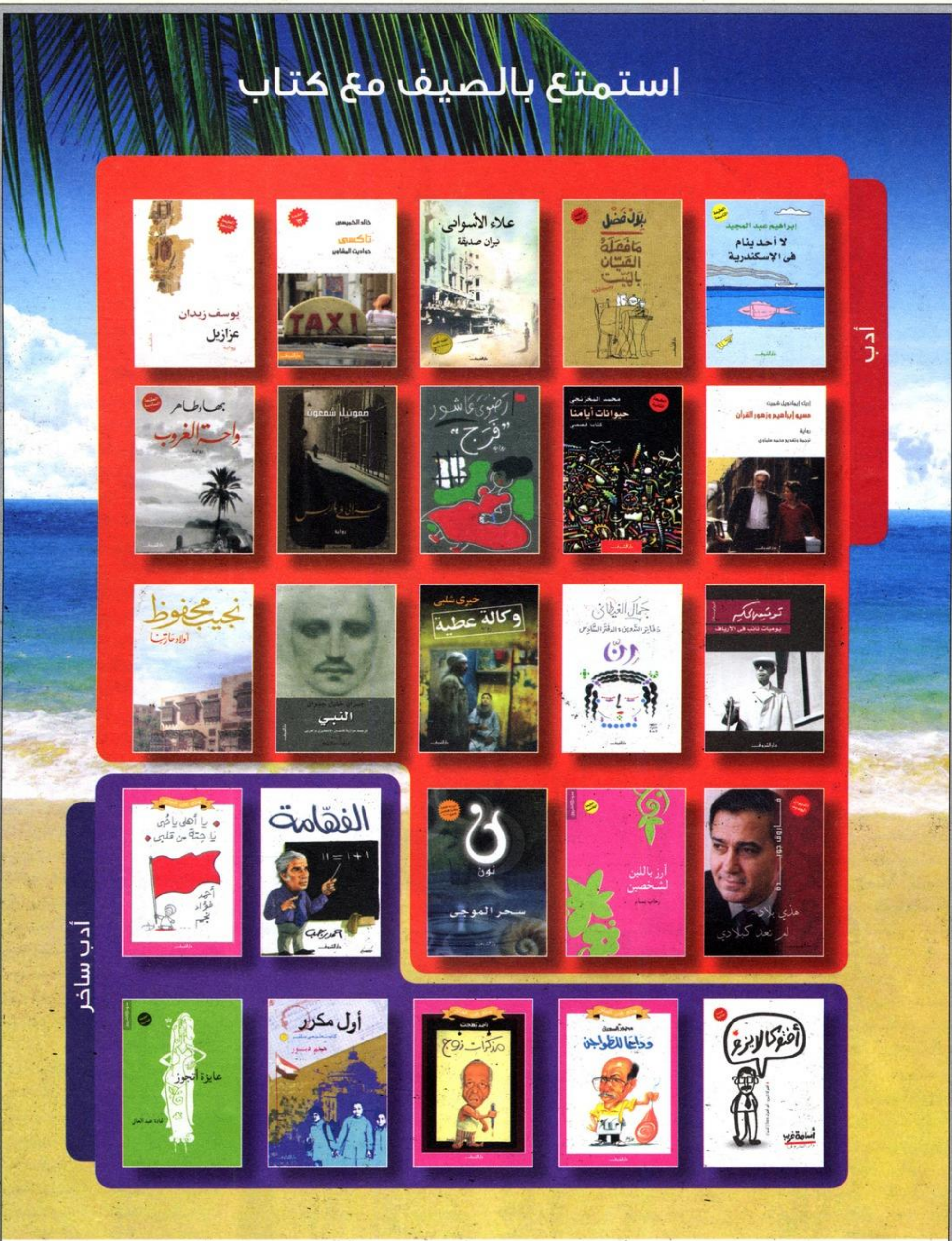
إذاً، الديموقراطية المزعومة هذه، مثلها مثل التسامح المزعوم الذى تنادى به أميركا والليبراليون العرب الجدد التابعون لها، هى ديموقراطية لا تشوبها معارضة، وتتسامح مع كل ما هو مثيل وغير مختلف. وهذا ما يقدم لنا على أنه نموذج «الحداثة الليبرالية» وعنوان دخولنا العالم «المتحضر».

إن التناقض الداخلى لهذه المنظومات الفكرية لا يحتاج إلى سيد قطب ولا إلى مهدى عاكف كى يدحضاه ويعريا الأسس الأيديولوجية المبنى عليها. السؤال الذى يطرح نفسه إذاً هو لماذا تخلى الكثير من يساريى الماضى ويمينيى الحاضر (أى الليبراليين الجدد) عن مقدراتهم التحليلية وجعلوها مرتهنة للتناقضات الليبرالية المعادية للتسامح والديموقراطية فى الوقت نفسه الذى يزعمون فيه اعتناقهم لها؟ هل كان هدف هؤلاء الفعلى عندما كانوا يساريين تحريرنا من النموذج الكولونيالى والعنصرى المسمى «الديموقراطية الأوروبية»، أم أرادوا فى حينها تحويلنا إلى مجتمعات أوروبية كما أراد لنا سلامة موسى وطه حسين، كل على طريقته؟

هنا تنطبق على مثقفينا من يساريى الماضى ويمينيى الحاضر المقولة الأميركية عن الفارق بين المحافظين والليبراليين الأميركيين، وهى أن «المحافظ هو ليبرالى تعرض للسرقة»، أى أن الليبراليين يدافعون عن حقوق الفقراء حتى لحظة تعرضهم للأذى من فقير، فيتحولون فى لمح البصر إلى محافظين معادين للفقراء، أى ينقلبون على الفقراء قبل أن ينقلب الفقراء عليهم. إذا طبقنا هذه الاستعارة على مثقفينا، نستنتج أن اليمينى العربى الحاضر (أى الليبرالى الجديد) هو يسارى تعرض لمنافسة الإسلاميين. ■



كل رحلاتنا من مبنى
الركاب الجديد رقم ٣
سافر من مبنى الركاب الجديد رقم ٣ وإستمتع بتجربة جديدة للسفر
الآن سفر ووصول جميع رحلات مصر للطيران الدولية والداخلية
من مبنى الركاب الجديد رقم ٣
لمزيد من المعلومات إتصل بـ ١٧١٧ من أى موبايل أو ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من أى خط أرضى أو بأقرب وكيل سياحى
Synergy
EGYPTAIR
A STAR ALLIANCE MEMBER
enjoy the sky
egyptair.com


استمتع بالصيف مع كتاب
أدب
إبراهيم عبد المجيد
لا أحد ينام في الإسكندرية
بلال فضل
ما فعله العيان بالميت
علاء الأسواني
نيران صديقة
خالد الخميسي
تاكسي
حواديت المشاوير
يوسف زيدان
عزازيل
رواية
إريك إيمانويل شميت
مسيو إبراهيم وزهور القرآن
رواية
محمد المخزنجي
حيوانات أيامنا
رضوى عاشور
فرج
رواية
صموئيل شمعون
بهاء طاهر
واحة الغروب
رواية
توفيق الحكيم
يوميات نائب في الأرياف
جمال الغيطاني
خيري شلبي
وكالة عطية
جبران خليل جبران
النبي
نجيب محفوظ
أولاد حارتنا
هذي بلاد لم تعد كبلادي
أرز باللبن لشخصين
رحاب بسام
نون
سحر الموجي
الفهامة
يا أهلا يا بكى
يا جنة من قلبي
أحمد فؤاد نجم
أدب ساخر
أوكازيون
أسامة غريب
دولها للطواجن
مذكرات زوج
أحمد بهجت
أول مكرر
عايزة اتجوز
غادة عبد العال